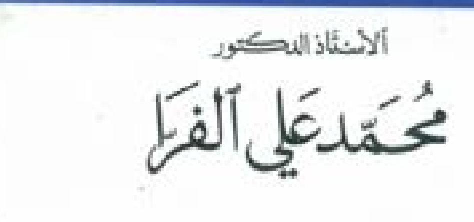


اليهود.. الإسرائيليون.. العبرانيون.. الصهاينة

أساطيرهم وحقيقتهم ومصير دولتهم



اليهود..الإسرائيليون..العبرانيون..الصهاينة..

أساطيرهم وحقيقتهم ومصير دولتهم

الأستاذ الدكتور

"مُحَمّد عَلي" عُمّر الفَرا

اليهود..الإسرائيليون..العبرانيون..الصهاينة

أساطيرهم وحقيقتهم ومصير دولتهم



الطبعة الأولى
2010 – 2011م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2010/4/1216)

956.402
الفرا، محمد علي
اليهود الإسرائيليون العبرانيون الصهاينة أساطيرهم وحقيقتهم ومصير دولتهم/ محمد علي الفرا.-عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010
( ) ص.
ر.إ.: (2010/4/1216)

الواصفات: اليهود//إسرائيل//الصهيونية

ISBN 978-9957-02-393-5 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ – ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الاردن

www.majdalawibooks.com
E -mail: customer@majdalawibooks.com

المُحتَويَات

مقدمة

في أوائل الستينيّات من القرن الماضي، وحينما بدأ التلفزيون الكويتي بثه، كان من بين برامجه المعروفة برنامج "الإسلام والحياة"، من إعداد وتقديم المرحوم الشيخ علي عبد المنعم، وهو شيخ أزهري مصري، مُنح الجنسية الكويتية فيما بعد، وعُيِّن أستاذاً في قسم الشريعة في جامعة الكويت بعد تأسيسها.

كانت حلقات برنامج "الإسلام والحياة" أسبوعية، ومدة كل حلقة ساعة كاملة. وهذا البرنامج يشبه برنامجاً معروفاً ومشهوراً كان يبثه التلفزيون المصري في مطلع الستينيّات، واسمه "نور على نور". وكان يعده ويقدمه الإذاعي المعروف آنذاك "أحمد فراج". وكان يشترك في هذا البرنامج نخبة مختارة من علماء الدين وعلوم الحياة في مصر والبلاد العربية.

وكانت حلقات البرنامجين تُسجّل بحضور عدد كبير من المشاهدين في إحدى صالات مبنى التلفزيون. وكان من عادة الحاضرين توجيه الأسئلة مباشرة للمشاركين في كل حلقة. واستجابة للجمهور، خصص برنامج "الإسلام والحياة" حلقات يتناول فيها بالشرح والتوضيح بعض المفاهيم التي لها ارتباط مباشر أو غير مباشر بالمعتقدات الدينية، كاليهودية، والعبرانية، والإسرائيلية، والصهيونية. وكان الشيخ علي عبد المنعم قد تعرف إليَّ في أثناء لقائي معه في مبنى الإذاعة الكويتية حيث كنت أقدم أحاديثي وبرامجي منذ افتتاحها وإسناد إدارتها إلى الإذاعي العربي المعروف المرحوم محمد توفيق الغصين.

كان الشيخ علي عبد المنعم – رحمه الله – يعرف اهتماماتي بالأديان السماوية، فطلب إليَّ أن أساعده في برنامجه الأسبوعي "الإسلام والحياة"، فقبلت عرضه، وبدأت بإعداد المادة العلمية التي تكفي لعدد من الحلقات. وكنا ندعو في كل حلقة شخصاً متمكناً في الموضوع ليسهم معي في الحديث والحوار. وفي إحدى الحلقات اشترك معي المرحوم خالد الحسن والذي كان آنذاك أميناً عاماً للمجلس البلدي لمدينة الكويت قبل أن يصبح مؤسساً وعضواً بارزاً وفعّالاً في حركة فتح، وفي منظمة التحرير الفلسطينية.

من حصيلة هذه الحلقات التلفزيونية تجمعت لدي مادة علمية لا بأس بها، تصلح للنشر، بعد إعادة النظر فيها وإضافة معلومات جديدة إليها وتنسيقها، إلا أن الظروف لم تكن ملائمة ولا مواتية لذلك بسبب انشغالي بأمور علمية أخرى، وسفري بعد ذلك إلى بريطانيا للدراسة والحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه.

في الثمانينيّات، بدأت أعيد النظر في تلك المادة العلمية تمهيداً لنشرها، وكانت انتفاضة شعبنا الفلسطيني التي بدأت في الثامن من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1987 هي ما دفعني إلى ذلك. فمساهمة مني في العمل الوطني، ومن أجل التوعية على المستوى العربي، قمت بإعداد دراسات مطولة عن ثورات فلسطين، كنت أداوم على نشرها يومياً في صحيفة القبس الكويتية، وذلك ابتداءً من التاسع عشر من شهر كانون الثاني/ يناير عام 1988 وحتى الخامس عشر من نيسان/ إبريل عام 1988. ونظراً لمطالبة كثير من القراء الكرام بنشر هذه الدراسة أبدت القبس استعدادها لنشرها في كتاب تتولى توزيعه. وعلى الفور قمت بإعادة النظر في جميع

الحلقات المنشورة، ورأيت أن أبدأ الكتاب بفصل يتناول الادعاءات الإسرائيلية، والمفاهيم المغلوطة لمسميات شائعة بيننا تبثها إسرائيل والصهيونية العالمية. ومع الأسف تعطل مشروع الكتاب بسبب الغزو العراقي للكويت وخروجنا منها وعودتنا إلى الأردن.

إن الذي يدعوني الآن إلى الإفراج عن المادة العلمية التي لا يزال قسم كبير منها بحوزتي ونشرها على الملأ هو النقاش الذي يدور بين الناس الذين انطلت على كثير منها حقائق مشوهة، ومعلومات مغلوطة، وأفكار خاطئة عن اليهود وأصلهم، والإسرائيليين وماهيتهم، والعبرانيين وحقيقتهم، والصهيونية وارتباطها باليهود والإسرائيليين، وعلاقة ذلك بفلسطين وبقضيتها.

حينما قررت النشر عملاً بنصيحة الأصدقاء، وجدت أنه من الأفضل إعادة النظر فيما تجمع لدي من المادة العلمية واستكمالها، مستفيداً من الكتب والبحوث العلمية لعلماء وباحثين غربيين، تخصصوا في أسفار العهد القديم – وهو كتاب اليهود المقدس – والذي يُطلق على الأسفار الخمسة الأولى منه، "التوراة". وقد أُطلق على هؤلاء العلماء مصطلح: The Biblical Historians والتي تُرجمت عربياً: "المؤرخون التوراتيون".

لقد شكّك هؤلاء العلماء، الذين قام معظمهم بالتدريس في جامعات أوروبية وأميركية، في صدقية التواريخ والأحداث الواردة في العهد القديم، وعدّوها أساطير. وقد انضم إليهم فيما بعد، عدد من علماء الآثار اليهود الذين قاموا بمقابلة الحقائق التي توصلوا إليها من المكتشفات الأثرية "الأركيولوجية" التي قاموا بها، بروايات العهد القديم، فوجدوا أنها لا تتطابق معها، وإنما تتعارض في معظمها، مما

جعلهم يتشككون في مصداقية الروايات والأحداث التاريخية التي وردت في العهد القديم.

وعملاً بالمثل القائل "من فمك أدينك يا إسرائيل" فقد حرصت على أن أدعم أقوالي بمقتطفات من هذه المراجع الأجنبية الموثوقة، وخاصة التي كتبها علماء يهود تخصصوا في الآثار "الأركيولوجيا"، والتاريخ القديم حتى لا أُتهم بالانحياز وبغير الموضوعية، وكي أفوِّت الفرصة لمن يحاول اتهامي باللاسامية، وهي تهمة يهدد بها اليهود اليوم كل من يحاول دحض مزاعمهم وافتراءاتهم، ويثبت بطلان ادعاءاتهم الصهيونية، وكل من يقوم بفضح الجرائم الإسرائيلية في فلسطين والبلاد العربية ويشجبها، مع العلم أن اللاسامية ليس لها سند علمي، أطلقها أحد المؤرخين المتأثرين بالعهد القديم اليهودي. وسنبين ذلك في مكانه المناسب من هذا الكتاب.

لقد أكدت لي هذه المراجع الأجنبية أن العهد القديم المتداول حالياً يشتمل على أساطير وخرافات ابتدعها واختلقها أحبار اليهود لخدمة أهدافهم وأغراضهم. وكان القرآن الكريم أول من أشار إلى ذلك: "فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ" البقرة: 79. لقد قام أحبار اليهود – كما يعلم كثيرون – بكتابة "التلمود"، الذي يقدسه اليهود، ويعدونه أهم من التوراة وأسفار العهد القديم. وسنبين ذلك في موضعه المناسب من هذا الكتاب.

من الأسباب التي دعتني إلى طبع هذه المادة ونشرها في كتاب، استمرار انتشار أفكار وأقوال ثبت بطلانها، وبان زيفها وكذبها، ومع ذلك ما زال كثيرون يصدقونها، ويصر بعض المؤرخين العرب على ذكرها، مما ساهم – مع الأسف –

على ترسيخها في عقول كثير من الناس وأذهانهم.

إن من أبرز هذه الأفكار والأقوال الخاطئة، الادعاء بأن إسحاق بن إبراهيم، عليهما السلام، هو جد اليهود، وكذلك الخلط بين اليهود والإسرائيليين، بالقول أن كل يهودي إسرائيلي، أي أن الاثنين مسميان لشيء واحد. ولذلك فضّلت أن أبدأ الكتاب بدراسة عدد من المسميات والمفاهيم الشائعة، كاليهود والعبرانيين والإسرائيليين، وفحصها والتعرف على ماهيتها وحقيقتها، وهي مفاهيم جرى عليها الكثير من التحريف والتزوير.

وبما أن هذه المفاهيم استمدت معانيها وتفاسيرها من أسفار العهد القديم، وخاصة التوراة، فقد استشهدت بما ورد في مؤلفات العلماء الغربيين واليهود الذين – كما سبق القول – شككوا في صحة هذه الأسفار، لأثبت للقارئ خطأ تلك المفاهيم والأقوال التي درسها أو سمعها. وفي الوقت نفسه أدعو المؤرخين والكتاب العرب إلى تنقية تاريخنا العربي والإسلامي من هذه الإسرائيليات التي ما زالت كتبنا العربية والإسلامية التراثية والحالية تزخر بها.

وبناءً على اقتراحات بعض الأصدقاء، أضفت فصلاً استشرفت فيه مستقبل إسرائيل. ودراسة المستقبل ليست رجماً بالغيب، فقد أصبحت اليوم علماً له أسسه وقواعده ومناهجه. وبناء على هذه القواعد والمناهج، فقد ثبت لي بالقرائن والدلائل بأن إسرائيل كيان زائل، وأن انهياره سيكون من الداخل، كما انهار الاتحاد السوفيتي، والاتحاد اليوغسلافي، وتشيكوسلوفاكيا.

وأخيراً فإني أود القول أنني حرصت في أثناء جمع الحقائق والبيانات

والمعلومات التي استنفذت مني وقتاً وجهداً كبيرين، الاعتماد على المراجع الموثوقة، لمؤلفين ثقات، وخبراء في اختصاصاتهم. وقد سلكت منهجاً مزجت فيه بين الاستنباط والاستقراء، استعنت به في تصنيف تلك الحقائق والبيانات، مما سهّل عليّ قراءتها، قراءة علمية موضوعية، وساعدني على التحليل والاستنتاج، والتوصل إلى آراء وحقائق، قد تبدو غريبة عند البعض، أو مستهجنة، وبخاصة أولئك الذين لا يزالون يصدقون بيانات تاريخية وتراثية ودينية تأثرت بالإسرائيليات، ودرسوها في المدارس والمعاهد والجامعات، التي مع الأسف ما زالت تُدَرِّسُهَا.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل للصديق الأستاذ درويش أبو زور لمراجعته أصول الكتاب لغوياً ونحوياً.

آمل أن أكون قد وُفقت فيما أصبو إليه، وحقّقت ما كنت أتطلع إلى تحقيقه، وهذا ما أرجوه، خدمة لأمتي وأبناء جلدتي، وعلى الله توكلت، وبه استعنت، وإليه أنبْتُ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

"محمد علي" عمر الفرا

ضاحية الحُمَّر – عمان – الأردن

نيسان/ إبريل 2010

الفصل الأول

اليهود... من هم، وما أصلهم وحقيقتهم؟

- لم يكن إسحق عليه السلام جد اليهود، فتلك خرافة يجب أن نتحرر منها.
- لقد أُنزلت التوراة – كتاب اليهود المقدس – على موسى عليه السلام بعد إسحق عليه السلام بنحو 700 عام.
- قبل موسى عليه السلام لم تكن ديانة تُسمى باليهودية، ولا وجود لجماعات يهودية.
- لقد انتشرت اليهودية، كسائر الأديان السماوية، فاعتنقتها أقوام وشعوب في أنحاء العالم.
- اليهودية ديانة، وأتباعها لا يشكلون عرقاً أو جنساً أو شعباً متجانساً كما يزعم اليهود.

الفصل الأول

من هم اليهود؟

ما يهمنا هنا التسمية فقط وليس المحتوى أو المضمون الذي يتناول العقيدة. وهذا يتطلب منا البحث عن أصل التسمية، ومتى ظهرت لأول مرة؟ وعلى من تنطبق؟ وهل اليهودية ديانة فقط أم هي أيضاً مصطلح يطلق على شعب له مقومات خاصة، أو أمة لها مرتكزاتها العرقية والحضارية كما يزعم الصهاينة وكثير من اليهود.

في بحثنا هذا لن نخوض في الديانة اليهودية من حيث أسسها، وأركانها، وما تحتويه من معتقدات ومقومات تشريعية فذلك خارج عن نطاق هذه الدراسة.

من المعلوم بأن الجدل لا يزال قائماً حول أصل تسمية اليهود، فهناك من يفضل تسميتهم بالموسويين نسبة إلى النبي موسى عليه السلام، الذي أنزل الله عليه، التوراة هداية لبني إسرائيل بعد أن ضلوا الطريق، وخرجوا عن ديانة التوحيد.

هل اليهود نسبة إلى يهوذا؟

هناك من يرى بأن كلمة "يهود" مشتقة من "يهوذا" الابن الرابع ليعقوب عليه السلام من زوجته "ليئة". فقد جاء في الترجمة التفسيرية لكتاب الحياة – الكتاب المقدس – بأن "ليئة" حينما حملت في المرة الرابعة قالت: "في هذه المرة

أحمد الرب" لذلك سمت وليدها الجديد (يهوذا) ومعناه (حمد). وكانت قد أنجبت الابن الأول وأسمته رأوبين ومعناه (هو ذا ابن) وسمت الابن الثاني شمعون ومعناه (سميع) بينما سمت الثالث لاوي أو ليفي ومعناه (متحد) لأن بإنجابها له ظنت بأن زوجها سيتحد بها[1].

ويُعد "صابر طعيمة" من الكتاب العرب الذين يؤيدون هذا التفسير إذ يقول: "قبل أن يموت يعقوب كان قد نبه أولاده جميعاً وأوصاهم بأن يسمعوا ويطيعوا وأن يكونوا تحت قيادة أخيهم يهوذا. وكان يهوذا الولد الرابع ليعقوب. ولتقديم يعقوب الولد الرابع يهوذا على سائر إخوته لم يكن الإخوة العشرة يدينون له جميعاً بولاء واحد بل إن بعضهم لم يذعن له بالولاء وانشق عليه، فلما أصبح سيد إخوته، وتولى أمرهم منصباً نفسه عليهم، أطلقت لفظة "يهوذا" واليهوذ على أولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لواء "يهوذا" من أبناء يعقوب. وعندما نطق العرب الكلمة (يهوذا) أبدلوا بالذال دالاً، ومنذ تاريخ عصر أبناء يعقوب أصبحت تنطق لفظتا: الإسرائيليون واليهود وهما يرتبطان تأريخياً بأبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام"[2].

إن رأياً كهذا من الضعف بحيث يمكن دحضه، فهو يخلط بين مفهومين مختلفين، أحدهما ديني، والثاني عرقي أو إثني. ومن المعلوم بأن بين هذين المفهومين فروقاً كثيرة، تجعل الجمع بينهما صعباً – إن لم يكن مستحيلاً. ومن يقول بهذا القول يريد إيهامنا بأن اليهودية عرق، وأن اليهود شعب متجانس ينحدر من جد واحد، نما وتطور حتى أصبح أمة. وهذا ما لا ينطبق على اليهود، لأن اليهودية ديانة اعتنقها كثيرون من أمم وشعوب عديدة تنتمي إلى أصول عرقية وإثنية متنوعة.

وليس صحيحاً ما يحاول البعض إيهامنا بأن اليهودية ديانة خاصة دان بها – ولا زال – شعب انحدر من جد واحد، وهو يعقوب عليه السلام، الذي يقولون بأنه "إسرائيل"، كما سنبين ذلك فيما بعد. وهذا الزعم تبنته الصهيونية لخدمة أغراضها وتحقيق أهدافها.

إذا كان أبناء يعقوب عليه السلام، كما قال "صابر طعيمة" لم يمتثلوا لوصية أبيهم بطاعة أخيهم "يهوذا"، فكيف يطلق لقب اليهود، حتى على الإخوة الذين انشقوا على يهوذا، ويطلق أيضاً على ذرياتهم.

إن هذا الرأي يُعدُّ من الإسرائيليات التي يروجها اليهود الذين يدمجون ما بين المفهومين، ويريدون إيهام الجميع بأن اليهودية – كما قلنا – ديانة خاصة، ودعم مقولة "أرض الميعاد" التي صدقها كثيرون من العرب والمسلمين مع الأسف. ومفادها أن الله سبحانه وتعالى وعد إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم اليهود بأنه جدهم الأعلى، بفلسطين ولنسله من بعده. ثم جدد هذا الوعد لابنه إسحق وحفيده يعقوب، عليهما السلام، مستبعدين من هذا الوعد إسماعيل عليه السلام الابن الأكبر لإبراهيم، والجد الأعلى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الديانة اليهودية، أو الموسوية، كما تُسمى أحياناً، لم تكن معروفة في عهد إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام، وإنما ظهرت بعد أن أرسل الله نبيه موسى، عليه السلام، رسولاً إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه التوراة كتاباً مقدساً.

ومن المعلوم أن الفاصل الزمني بين عصر يهوذا بن يعقوب، وعصر موسى يبلغ نحو سبعمائة عام. وأن الديانة التي كانت معروفة آنذاك هي "التوحيد" أي عبادة الله الواحد الأحد، الذي لا شريك له، والتي أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه

إبراهيم عليه السلام، ليهدي قومه بها، ويحررهم من عبادة الأصنام وتعدد الآلهة. وأن التسليم بإله واحد والاستسلام له وعبادته استمد الإسلام منه مفهومه بمعناه الشامل الواسع. وقد وردت في القرآن الكريم آيات تؤكد ما نقول، كقوله سبحانه وتعالى: "وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ" البقرة: 132، 133.

قد لا يخفى على الكثيرين بأن ديانة التوحيد، لم تختف تماماً، من شبه الجزيرة العربية، بل ظل يؤمن بها عدد من السكان وكان يطلق عليهم "حُنفاء"، كما اعتنق كثير من السكان – فيما بعد – اليهودية والمسيحية، وهما ديانتان توحيديتان.

ولما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم، اتبع ملة إبراهيم عليه السلام بعد أن شاعت عبادة الأصنام. والله سبحانه وتعالى يقول: "فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ" آل عمران: 95. "وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينًا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا" النساء: 125.

هل اليهود نسبة إلى يَهْوَه؟

هناك من يقول بأن اليهود نسبة إلى الإله "يهوه" والذي يزعم اليهود أنه إلههم. وقد ورد ذكر "يهوه" لأول مرة في التوراة[3]: "وقال الله أيضاً لموسى هكذا

تقول لبني إسرائيل – يهوه – إله آبائكم وإله إبراهيم وإله إسحق، وإله يعقوب أرسلني إليكم".

وعلى هذه الفقرة ادعى اليهود بأن إبراهيم عليه السلام، كان جدهم الأعلى، وأن أبناءه من بعده – وهم إسحق ويعقوب كانوا يهوداً مستثنين من ذلك إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم عليه السلام، لأنه ابن جارية "هاجر عليها السلام" والتي دخل عليها إبراهيم عليه السلام بناء على طلب زوجته سارة كما جاء في التوراة، لأنها كانت آنذاك عقيماً.

وينفي القرآن الكريم أن يكون إبراهيم يهودياً: "مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ" آل عمران: 67.

يرى بعض الباحثين، ومنهم الدكتور أحمد سوسة(*) بأن: "كل ما ورد في التوراة من الأسماء التي بنوا عليها أساطيرهم هي من أصل كنعاني، وحتى إلههم "يهوه" لم يكن سوى كبير آلهة القينيين – وكانوا من القبائل العربية التي سكنت

(*) أحمد سوسة عراقي يهودي اعتنق الإسلام، ولد في بلدة (الحلة الجديدة) بجنوب العراق عام 1900م، حصل على بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة كولورادو الأميركية، ثم على الدكتوراة في الهندسة من جامعة جونز هوبكنز. ولما عاد إلى العراق عمل في هندسة الجسور المقامة على نهري دجلة والفرات وروافدهما، فانجذب إلى الآثار ودراسة التاريخ القديم. ومن حصيلة بحوثه الأثرية والتاريخية ألف كتاباً قيماً عنوانه: "العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية". وطبع الكتاب عدة طبعات وترجم إلى عدة لغات أجنبية.

أرض مدين – وكل الوثائق والمكتشفات الأثرية التي بين أيدينا تدعم ذلك"[4].

يستطرد أحمد سوسة قائلاً: "وهناك ما يدل على أن المديانيين (أهل مدين) العرب كانوا يمارسون عقيدة التوحيد أيضاً، فالتوراة تشير إلى أن موسى عليه السلام سكن مع المديانيين بعد هروبه من وجه فرعون (خوفاً من بطشه)، وهناك تزوج إبنة يثرون[*]، كاهن مدين، الذي كان على ما يرجح موحداً ويعبد الله باسم يهوه".

يرجح البعض أن أصل اسم "يهوه" مستمد من اسم إله من آلهة البدو الشماليين العرب، فيقول العلامة "موسكاني" أن الإله يهوه كان معروفاً عند العرب، والأرجح أنهم كانوا يعبدونه لأن كثيراً من أسماء الأشخاص وردت ملحقة باسم الإله يهوه بحسب العادة المتبعة بإلحاق إسم الإله باسم الشخص تبركاً به. ويؤكد الدكتور "نلسون" في بحثه عن تاريخ الأديان أن الوطن الأصلي ليهوه هو شمال غربي بلاد العرب من سيناء وقادش، وهناك تجلى الله للشعب، وهناك سمع موسى وصاياه، وهناك تعلم الشعب الموسوي الدين وطقوسه. وقد كان يثرون والد زوج موسى كاهناً عربياً قديماً. واللفظ أطلقه العهد القديم عليه هو "كوهين"، وهو اللفظ العربي لكلمة كاهن[5].

هل اليهود نسبة إلى مكان؟

أمّا الدكتور كمال الصليبي، فيفسر كلمة "يهوذا" وكلمة "يهود" تفسيراً مكانياً. أي أن هذا الاسم يُطلق على مكان له وجوده وموقعه على سطح الأرض.

(*) ورد ذكره في القرآن الكريم وهو شعيب عليه السلام.

وهذا المكان أعطى لسكانه أو الذين كانوا قد سكنوه قبل أن يرتحلوا عنه اسمه على نحو ما ينتسب الأشخاص إلى أقطارهم أو مدنهم وقراهم، كأن يقال فلان الشامي أو المصري أو النابلسي...الخ. وفي هذا يقول الدكتور الصليبي[6]: "والواضح أن يهوذا كان اسماً جغرافياً قبل أن يصبح اسماً لقبيلة من بني إسرائيل (يقصد سبط يهوذا، الابن الرابع ليعقوب) وصيغته العبرية يهودة هي اشتقاق من يهد المماثلة للعربية وهد، وهو جذر يفيد معنى الانخفاض. ومن الجذر وهد بالعربية والوهدة بمعنى المنخفض أو الهوة في الأرض. ويهود ويهوده التوراتيتان من العبرية يهد، ولا بد أنهما كانتا تعبيرين طوبوغرافيين ساميَّين قديمين يحملان المعنى نفسه".

يستطرد الدكتور كمال الصليبي قائلاً: بأن كلمة يهود كانت الاسم التوراتي لمقاطعة يهودا في أيام الفرس الإخمينيين. ويحدد موقع هذه المقاطعة في شبه الجزيرة العربية[7].

يواصل الدكتور الصليبي كلامه قائلاً[8]: "استناداً إلى سفر التكوين 35:29 و8:49 فإن الاسم يهوده يعني (ليمجد يهوه – نحت من يهوه يده – وهذا التفسير الميثولوجي للاسم هو من نسج الخيال ولا يقره علم اللغة. وحتى الآن لم يجد العلماء لهذا الاسم تفسيراً ناجحاً. وقد افترض عموماً أنه كان في الأصل اسم قبيلة وليس اسم موطن..ولعل قبيلة يهوذا الإسرائيلية كانت تحمل في زمانها اسم أرض الوهد من شبه الجزيرة العربية. فتسمت على اسم الأرض، ولم تتسم الأرض باسمها".

من هذا نتبين بأن للدكتور الصليبي رأياً خاصاً في المكان الذي عاش فيه

اليهود، وأقاموا على أرضه ملكهم، وهذا المكان ليس فلسطين كما يقول الكُتَّاب والباحثون الذين اعتمدوا في كتاباتهم وبحوثهم على الكتاب المقدس اليهودي – أي العهد القديم – المتداول حالياً، فهو يعتقد بأن مُلْك بني إسرائيل قام في شبه الجزيرة العربية. وفي هذا يقول[9]: "فبنوا إسرائيل كانوا في زمانهم شعباً دان باليهودية. وقد كان لهم، بين القرن الحادي عشر والسادس قبل الميلاد مُلْكاً".

ويُحدد هذا المُلْك في شبه الجزيرة العربية، ثم يقول[9]: "وقد زال هذا الشعب من الوجود بزوال مُلْكه، ولم يعد له أثر بعد أن انحلت عناصره، وامتزجت بشعوب أخرى في شبه الجزيرة العربية، وفي غير شبه الجزيرة العربية.وهذا تماماً ما حدث لغيره من الشعوب البائدة".

اعتمد كمال الصليبي في نظريته – كما يقول – على المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة في التوراة بالحرف العبري، وأسماء تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز، وفي بلاد عسير مأخوذة إما عن قدامى الجغرافيين العرب – ومنهم "الحسن الهمداني" صاحب كتاب "صفة جزيرة العرب" و"ياقوت الحموي" صاحب كتاب "معجم البلدان – أو عن المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية الذي بدأ في الظهور عام 1977 – وقد بدأ بجمعه عدد من العلماء السعوديين من أشهرهم: حمد الجاسر ومحمد العقيلي وعبد الرحمن بن خميس وعلي بن صالح السلوكي الزهراني – أضف إلى ذلك معجم معالم الحجاز ومعجم قبائل الحجاز اللذين صنفهما المقدم عاتق بن غيث البلادي ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية الذي صنفه الشيخ "حمد الجاسر". ومن أسماء الأماكن في جنوب الحجاز وعسير ما أخذه أيضاً عن الخرائط المفصلة لتلك المناطق، وعن مؤلفات الرحالة في

تلك الجهات. ويخص بالذكر مؤلفات الرحالة البريطاني "فيلبي"، وكتاب "في ربوع عسير: ذكريات وتاريخ" لمحمد رفيع وكتاب "في بلاد عسير" لفؤاد حمزة. وقد قام بزيارة المنطقة المعنيّة شخصياً للاطلاع المباشر على طبيعتها، وللتحقق من اللفظ المحلي لبعض أسماء المواقع فيها[10].

بموجب نظرية "كمال الصليبي" فإن الانتشار المبكر لليهودية من موطنها الأصلي في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين وغيرها، اتبع مسار القوافل التجارية العابرة لشبه الجزيرة العربية. وفي العالم القديم، كان هذا الإقليم مكان اللقاء للقوافل المحملة بتجارة بلاد حوض المحيط الهندي – الهند وجنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا – الآتية من اتجاه، والقوافل المحملة بتجارة فارس والعراق وبلاد حوض شرق البحر المتوسط – الشام ومصر من اتجاه آخر. ونظراً لوقوع فلسطين في الزاوية الجنوبية للشام، وبالقرب من مصر، فقد كانت هي المحطة الساحلية الأولى لتجارة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية في ذلك الاتجاه. ولا بد أن المستوطنين اليهود، أتباع الديانة اليهودية الأوائل هناك، كانوا من تجار غرب شبه الجزيرة العربية، ومن رجال القوافل العاملين في تلك التجارة. ولم يكن لهؤلاء المستوطنين أن يخفقوا في اجتذاب المهتدين المحليين إلى دينهم، الذي كان يفوق العقائد المحلية في مستواه الفكري والخلقي إلى حد لا يقاس، وكذلك الديانات العليا لإمبراطوريات مصر والعراق"[11].

ويرى الدكتور الصليبي أن اليهود قدموا إلى فلسطين من شبه الجزيرة العربية، وسكنوا فلسطين، ولكنهم لم يكونوا أول من استوطنها، فقد سبقهم الكنعانيون الذين جاءوا من شبه الجزيرة العربية، وأقاموا لهم على أرضها حضارة زاهرة، وبنوا

المدن والقرى، ولذلك أطلق اسم أرض كنعان عليها، قبل أن تُعرف بفلسطين[12]، وهي تسمية تُنسب إلى قوم يطلق عليهم (الفلسطينيون)، قيل أنهم قدموا من منطقة بحر إيجة باليونان، وأنشأوا لهم دولة امتدت من أسدود شمالاً حتى رفح جنوباً.

أثارت نظرية "كمال الصليبي" عن اليهود وموطنهم وكيفية انتشارهم كثيراً من الجدل. وعارضها معظم الذين يدافعون عن التوراة المتداولة حالياً واليهود الذين يزعمون بأن فلسطين هي الموطن الأصلي لليهودية، وعلى أرضها أقاموا ملكهم الذي بلغ الأوج في عهد داود وابنه سليمان عليهما السلام. وتولى الأستاذ "شفيق الخليل" بالرد على الدكتور كمال الصليبي في كتاب عنوانه "السنهدرين الثاني[13]: التوراة لم تأت من الجزيرة العربية"، ونشر على شكل مسلسل أسبوعي على صفحات جريدة القبس الكويتية ابتداءً من الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1987 وحتى الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر 1988.

وفي هذا الكتاب يهاجم شفيق الخليل بشدة الدكتور كمال الصليبي من دون أن يذكره بالاسم إذ يقول[14]: "واليهود عندما دونوا التوراة في بابل، ألغوا فيها كل تسلسل تاريخي للأحداث، وحشوها بالأراجيف والأكاذيب، وعملوا جاهدين منذ تدوينها في ترسيخ أكاذيبها في عقول الناس بأساليب مختلفة وجعلوها المرجع التاريخي الأول أمام الباحثين والعلماء. إنه لمن المؤسف حقاً أن نجد بعض رجال الفكر في بلادنا وقد أخذوا يصدقون هذه الأكذوبة الكبرى وما أوردته من أضاليل، فانقادوا وراءها من دون أن يشعروا أو حتى يحاولوا تلمس الحقيقة. فدونوا تاريخ أمتنا استناداً إلى ما جاء به المستشرقون نقلاً عن التوراة اليهودية. وذهب الكثيرون في الآونة الأخيرة من كتابنا ورجال الفكر في بلادنا، إلى نعت اليهود بأنهم (أبناء

عمومتنا)، وقام البعض بإصدار كتب تنسب التوراة إلى جنوب الجزيرة العربية، مما يوحي للقارئ أن أرض جنوب الجزيرة العربية هي أرض توراتية، مستندين في ذلك إلى مسميات وردت في التوراة اليهودية لأماكن ومناطق موجودة في جنوب جزيرة العرب، فوجدوا في هذه المسميات مبرراً للصق اليهود بها دون التدقيق في أصل هذه المسميات. لقد تناسى كتابنا على ما يبدو أن هذه المسميات هي مسميات عربية أصيلة، وقد جاءت في التوراة لأن التوراة، دونت باللغة الآرامية، واللغة الآرامية هي ابنة اللغة العربية، قام اليهود بسرقتها عن طريق الكنعانية ونسبوها إليهم وأسموهم اللغة العبرية".

يواصل شفيق الخليل هجومه ويقول(15): "إننا في الحقيقة لا نجد أي مبرر لأولئك الكتّاب الذين أطلوا علينا في هذا الزمان بنظرية ظهور التوراة في جنوب جزيرة العرب. إن الأقوام التي هاجرت من جنوب جزيرة العرب واستقرت في الأجزاء الشمالية، منها نقلت معها هذه المسميات، وأطلقتها على أماكن استيطانها الجديدة وتبركاً بها، مثل ما يحدث اليوم في مناطق العالم الجديد كالولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا ونيوزلندا، ونحن لا ندري فيما إذا كان كتّابنا قد أغفلوا البحث أو أنهم أهملوا التدقيق في هذه الحقائق. أو أن البعض منهم قد تناساها عن تعمد وسوء قصد..فعلى جميع الوجوه. إنها كارثة على الفكر في بلادنا إذا كان مفكرونا يسترسلون في كتاباتهم بهذه الأساليب ويأخذ الناس ما يكتبون ويتقبلونه على علاته. ومع مرور الزمن يترسخ في أذهانهم كحقيقة مسلم بها".

هل التسمية مشتقة من كلمة الهداية؟

يبدو لي أن كلمة يهود ليست اسماً جغرافياً لمكان، ولا علاقة للتسمية بيهوذا الابن الرابع ليعقوب عليه السلام، ولا للإله الذي يسمونه "يهوه"، ويعتقدون أنه إله اليهود، كما سبق ذكره.

أعتقد أن كلمة "يهود" مشتقة من "هود" و"الهَوْدُ" والتي يفسرها ابن منظور، في معجمه الشهير، لسان العرب، بمعنى التوبة، ومنها هادَ، ويَهودُ، وتهوّد، والتَّهَوُّدُ بمعنى التوبة والعمل الصالح. ومصداقاً لذلك فقد جاء في القرآن الكريم "وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ" الأعراف: 156، وكذلك قوله تعالى: "قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ" الجمعة: 6.

لقد كان اليهود من التائبين الذين رجعوا إلى الحق يوم أن آمنوا بنبي الله موسى عليه السلام الذي جاء برسالة التوحيد التي دان بها من قبل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام. لقد أرسل الله موسى للناس لينقي ديانة التوحيد مما علق بها من شوائب ويبعد عنها كل ما علق بها من مزاعم، ويصحح مسيرة الناس، وبخاصة بنو إسرائيل، الذين ضلوا الطريق وفسقوا، ورجع بعضهم عن عبادة الله الواحد الأحد ليعبدوا الأصنام. وأنزل الله سبحانه وتعالى التوراة على موسى عليه السلام وفيها القواعد الصحيحة لعبادة التوحيد، وأصول الفقه والتشريع، فمن تبع موسى وتاب وآمن بكلام الله استحق أن يكون (يهودياً)، بمعنى مؤمناً ومهتدياً، كقولنا اليوم بأن من استسلم لله تعالى وأسلم أمره له، وسلم برسله وكتبه ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، فهو مسلم، أي كما يقول ابن منظور بأن

الإسلام يعني الانقياد. والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع وإظهار الشريعة. وبهذا المفهوم فإن القرآن يَعُدّ جميع الموحدين بدءاً بإبراهيم وموسى عليهما السلام، وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم مسلمين: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ" الحج: 78.

ويفسر الإمام القرطبي كلمة "مسلمين الواردة في الآية 128 من سورة البقرة[16]: "رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ" بقوله: الإسلام في هذا الموضع: الإيمان والأعمال جميعاً. ومنه قوله تعالى: "إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ" آل عمران: 19 ففي هذا دليل لمن قال: إن الإيمان والإسلام شيء واحد. وعضّدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى: "فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ" الذاريات: 35، 36.

ربما يقول قائل بأن كلمة "يهود" عبرية، وليست عربية ونرد على هذا قائلين بأن التوراة كتبت في أول الأمر بالآرامية والتي كانت اللغة الشائعة عند شعوب المنطقة. وقد أخذت الآرامية حروفها الهجائية من الكنعانية والتي تُعَدُّ هي والعربية من أصل واحد. وبناء عليه فإن من المرجح بأن الكلمة موجودة في العربية والآرامية.

وفي أثناء إعادة النظر فيما سبق أن كتبته عن "اليهود" و"اليهودية" أطلعت على كتاب "الملل والنحل" للشهر ستاني، المتوفى في عام 548هـ. وهذا الكتاب

يُعَدُّ من كتب التراث المشهورة. وقد أفرد الشهرستاني فصلاً خاصاً بدأه بالقول: "هاد الرجل: أي رجع وتاب. وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: إنا هدنا إليك – أي رجعنا[17]. وقد شعرت بكثير من الارتياح بعد الاطلاع على رأي "الشهرستاني" لأنه يؤيد وجهة نظري ويدعمها – وهي وجهة نظر سجلتها قبل اطلاعي على كتابه المذكور.

انتشار اليهودية:

ليست اليهودية ديانة خاصة، انحصرت في الإسرائيليين كما يزعم اليهود، إنها كالمسيحية والإسلام، انتشرت في بلاد كثيرة واعتنقتها أمم وأقوام وشعوب مختلفة. ففي شبه الجزيرة العربية كانت اليهودية معروفة في الجاهلية، وكما يقول الدكتور جواد علي، بأن اليهود عُرفوا عند عرب الجاهلية وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي...وكانوا يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب، كما سكنوا في اليمن، وفي اليمامة، وفي العروض، وكان تجار منهم يقيمون في مكة، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، ويقومون بإقراض المال بربا فاحش للمحتاجين إليه[18].

أقام اليهود في شبه الجزيرة العربية على شكل قبائل وعشائر وبطون، وفي هذا يقول "إسرائيل ولفنسون"[19]: فكان ممن يسكن المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج من قِبَلِ بني إسرائيل: بنو عكرمة وبنو ثعلبة، وبنو محمد، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص".

عاش يهود الجزيرة العربية كبني جلدتهم من العرب، فكانوا يلبسون لباسهم ويتكلمون لغتهم، ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم، وتصاهروا معهم. فتزوج اليهود

عربيات، وتزوج العرب يهوديات. والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود في الجزيرة العربية هو الاختلاف في الدين. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل – بل يؤكد – بأن اليهود في الجزيرة العربية، عرب متهودون، لا يهود مهاجرون، اعتنقوا اليهودية بالتبشير. ولو لم يكونوا عرباً في الأصل لما صاهرهم العرب، ذلك أن العصبية العربية تقيم حاجزاً يحول بين زواج غير العربي من العربية آنذاك. ومما يؤيد ذلك ما قاله المؤرخ المعروف جواد علي[20]: "ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس".

من المعلوم بأن بعض أنصار النبي صلى الله عليه وسلم كان مسترضعاً في بني قريظة – من يهود يثرب – وغيرهم من اليهود العرب فتهودوا. فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزلت فيهم هذه الآية من القرآن الكريم: "لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ" البقرة: 256.

ينقل أحمد سوسة عن المؤرخ العربي المشهور اليعقوبي: بأن القبائل اليهودية في شبه الجزيرة العربية كانت من العنصر العربي الأصيل. ويقول في وقعة بني نضير: أن نضير فخذ من جذام إلا أنهم تهودوا، ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به. وفي وقعة بني قريظة يقول: بأن قريظة فخذ من جذام أيضاً أخوة بني النضير، ويقال أن تهودهم كان في أيام عاديا بن السموأل، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه[21]. وكان السموأل يقيم في يثرب. وهناك من يقول: بأنه كان ينتسب إلى غسان، وهذا ما قاله الأب شيخو في شرحه لديوان السموأل، معتمداً على رواية أبي

عبدالله بن نفطويه[22].

والسموأل – كما أعتقد – اسم معرب لكلمة "صموئيل" وهو من أنبياء بني إسرائيل. وفي الكتاب المقدس سفر صموئيل الأول، وصموئيل الثاني.

ومن المعلوم بأن السموأل يُضرب به المثل بالوفاء والأمانة، فقد ضحى بولده، ولم يخن أمانته في دروع أودعها عنده امرؤ القيس بن حجر الكندي، بعد أن سار إلى الشام يريد قيصر الروم ليستنجد به على الذين قتلوا والده ملك كِنْده. ولما طالب أعداء امرئ القيس بالدروع رفض السموأل رغم تهديدهم له بقتل ولده. ففضل التضحية بفلذة كبده على الإخلال بالأمانة والوفاء وفي هذا أنشد السموأل أبياتاً من الشعر جاء فيها[23]:

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت

وأوصى عادياً يوماً بألا تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لي عاديا حصنا حصينا وعيناً كلما شئت استقيت

وفي اليمن انتشرت الديانة اليهودية حتى شملت جميع البلاد وصارت الديانة الرسمية فيها وبخاصة بعد أن اعتنق ملوك حِمْيَر هذه الديانة.

ويختلف الباحثون حول تاريخ ظهور هذه الدولة اليهودية، فالمستشرق "بروكوك Prococke"، وهو من علماء القرن الثامن عشر، يرى أن دولة حمير اليهودية ظهرت في القرن الأول قبل الميلاد. أمّا العالم "بيرون" Perron، فيعتقد أنها قامت في القرن الخامس بعد الميلاد مستدلاً على ذلك بما كتبه الطبري[24] أما

إسرائيل ولفنسون فيرجح بأن دخول اليهودية كان قبل ذلك بكثير، وربما كان ذلك في عهد سليمان بن داود ،عليهما السلام، وقصته مع الملكة بلقيس، كما جاء في سورة النمل في القرآن الكريم معروفة[25].

أما المؤرخ جواد علي فيقول: فليس لدينا علم واضح دقيق على ذلك ويزعم أهل الأخبار أن تُبّعاً[*]، وهو التُبَّع "أسعد أبو كرب" اهتدى إلى هذه الديانة عند اجتيازه يثرب، وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي فارس، ذلك بتأثير بعض الأحبار عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة رسمية للبلاد[26].

يبدو أن جواد علي اعتمد على الطبري في ذلك، والذي أسهب في سرد قصة اعتناق أسعد أبو كرب للديانة اليهودية، وذلك في نحو ثلاث عشرة صفحة[27] ويلخصها قائلاً: بأن التبان حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة، حيث ترك فيها، حينما مر بها أسعد أبو كرب ابناً له فَقُتل، فعاد إلى المدينة وهو مصمم على تخريبها، واستئصال كافة أهلها وقطع نخلها، غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلون بالنهار ويقرونه بالليل، فأعجبه ذلك منهم. فبينما هو على ذلك من حربه لهم إذ جاءه حَبْران من أحبار اليهود من بني قريظة، عالمان راسخان، حين سمعا ما يريد من هلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك، لا تفعل فإنك إن أبيت إلاّ ما تريد حيل بينك وبينهم، ولم تأمن عليك عاجل العقوبة، لأن يثرب مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره. فتناهى عن ذلك الذي سمع من قولهما عما كان يريد بالمدينة، ورأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما،

(*) التُبَّع لقب كان يُطلق على ملوك اليمن وحكامها. وكان يسمى أحياناً "تبّان".

فانصرف عن المدينة وخرج بهما إلى اليمن واتبعهما على دينهما".

انتشرت الديانة اليهودية بين عرب اليمن وقبائلها. وكان من أشهر هذه القبائل العربية التي تهودت بطون كنانة، وبنو الحارثة بن كعب، وبنو كندة[28].

كان ذو نواس من أقوى ملوك حمير المتهودين، وفي عهده وقعت حادثة الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: "وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ" البروج: 1-8.

وقد وردت هذه الحادثة في سيرة ابن هشام وملخصها أن ذا نواس سار نحو نجران(*) حيث كان فيها أناس يدينون بالمسيحية وكانوا أهل فضل واستقامة، فدعاهم ذو نواس إلى اعتناق اليهودية، وخيّرهم بين ذلك أو القتل، ففضلوا البقاء على دينهم واختاروا القتل. فحفر لهم ذو نواس أخدوداً في الأرض وحرقهم فيه، وقتل من بقي منهم بحد السيف، حتى قيل أن عدد القتلى بلغ نحو عشرين ألف[29].

وقد أثارت هذه الحادثة امبراطور الروم المسيحي، فأوعز إلى ملك الحبشة النصراني للتوجه إلى اليمن والانتقام من الحميريين. وتوجه الجيش بقيادة "أرياط" ومعه في جنده أبرهة الأشرم الذي غزا مكة فيما بعد وأراد هدم الكعبة. وكان ذلك في عام الفيل. وهي حادثة ورد ذكرها في القرآن الكريم. وتمكن الأحباش من القضاء على الدولة الحميرية وبنوا في اليمن كنيسة لإعادة الاعتبار للمسيحية، إلاّ أن الأحباش لم

(*) نجران في جنوب غرب المملكة العربية السعودية على حدود اليمن، وتقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة خميس مشيط السعودية.

يتمكنوا من القضاء على اليهودية في اليمن فظلت قبائل كثيرة على دينها.

وفي الوقت الحاضر، فإنه رغم هجرة كثيرين من يهود اليمن إلى إسرائيل وأميركا، إلاّ أنه لا زال فيها عدد من اليهود وبخاصة في الشمال في منطقة صَعْدة. كما أن مناطق سكناهم لا تزال تحمل أسماء من رحل منهم مثل "قاع اليهود" في وسط مدينة صنعاء. وفي أثناء زياراتي لليمن في عام 1980 تجولت في عدد من الأماكن التي كان يسكنها اليهود، ورأيت بقايا بصمات لليهود لا تزال باقية، منها مثلاً، رسم للنجمة السداسية اليهودية تُزين قصور أئمة اليمن من أسرة حميد الدين، كما أن بعض المواقع والأماكن لا تزال تحمل أسماءً يهودية في مناطق متفرقة من اليمن وعُمان. وقد لاحظت أيضاً مواقع قيل لي أنها كانت يهودية عند سد مأرب باليمن، وبالقرب من بقايا قصر بلقيس والذي حرصت على تصويره آنذاك.

لقد كانت اليمن – إذن – مركزاً مهماً من مراكز اليهودية في شبه الجزيرة العربية. ويذكر القرآن الكريم العلاقة بين سليمان عليه السلام، وملكة سبأ باليمن، والتي يقول المفسرون: بأن اسمها "بلقيس": "وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" النمل: 22–24 وفي الآية 44 من السورة نفسها بعد أن التقت بسليمان في مقر حكمه، وآمنت بديانته: "قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ".

لم يذكر القرآن الكريم أين كان صرح سليمان، ولا مقر حكمه، ولكنه قال بأن مقر تلك الملكة كان سبأ. ونحن نعلم بأن سبأ تقع إلى الشرق من صنعاء. وعلى أرضها قامت دولة سبأ المعروفة والتي امتد حكمها من 950-115 ق.م. وقد جاءت بعد دولة معين، وقبل دولة حمير. ولا تزال بقايا أعمدة قصور سبأ قائمة إلى اليوم. ويقال: إن هذا القصر كان للملكة "بلقيس".

إن ما ورد في القرآن الكريم عن العلاقة بين "سليمان" والملكة التي يقال بأنها: "بلقيس"، تفيد بأن الديانة اليهودية كانت في اليمن، قبل العصر الحميري.

وعلى أية حال فإن اليهود الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية كانوا – كما قلنا سابقاً – عرباً ولا ينتمون إلى أصل أو عرق غريب أو قومية أجنبية غير العربية. إنهم مثل العرب الذين اعتنقوا فيما بعد المسيحية والإسلام. إنهم متحدون في الأرومة مختلفون في الدين. إنهم كما ينقل "جواد علي" عن المستشرق "مارجليوت"، عرب أصلاء.

إن اليهود في شبه الجزيرة العربية كانوا عرباً متهودين لا يهوداً مهاجرين، كما يدعون ويزعمون، قائلين أنهم جاءوا إلى شبه الجزيرة العربية من فلسطين في أعقاب حملة الرومان الأخيرة وتدمير هيكلهم المزعوم في أورشليم "القدس"، وأنهم – أي اليهود – الذين كانوا منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية قبل الإسلام هم من بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا ادعاء مرفوض وخاطئ، لأن تدمير الرومان للهيكل كان في نحو عام 80 للميلاد، علماً بأن انتشار اليهودية في شبه الجزيرة العربية كان أقدم من ذلك بكثير كما رأينا. وهناك من المؤرخين اليهود –

وبخاصة شلومو ساند الذي سنأتي على ذكره فيما بعد – ما ينفي الكثير من مزاعم اليهود، مثل السبي إلى بابل، وتدمير الرومان للهيكل.

وإذا كان يهود شبه الجزيرة العربية عرباً كما رأينا، فمن أين جاءهم هذا الدين؟ ومن الذي هوّدهم، وما علاقة موسى عليه السلام بشبه الجزيرة العربية، وهو الذي كما يقول القرآن الكريم، ولد وتربى وعاش شبابه في مصر، ودعا إلى ديانة التوحيد وهو في مصر، ومعاناته مع الفرعون وقصته مع السحرة، وهروبه من وجه هذا الفرعون، وعبوره البحر، وأمر الله له ومن معه بدخول الأرض المقدسة: "يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ" المائدة: 21-22. وكان نتيجة هذا العصيان، وقولهم لموسى "فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ" المائدة: 24 أن دعا موسى ربه قائلاً: "قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ" المائدة: 25. واستجاب الله لدعاء نبيه فحرم عليهم دخول الأرض المقدسة، وحكم عليهم بالتيه والضياع أربعين سنة، "قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ" المائدة: 26.

والقرآن الكريم لم يذكر اسم الأرض المقدسة، ولم يبين من هؤلاء القوم

الجبارين؟ ومن القوم الذين رافقوا موسى عليه السلام في خروجه من مصر قاصدين الأرض المقدسة؟ وهل كانوا كلهم إسرائيليين؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، مما سبق طرحه تحتاج إلى عملية استقصاء واسعة، قد تخرجنا عن مسارنا في هذا البحث. وكل ما يهمنا هنا أن القرآن الكريم يذكر بأن الله سبحانه وتعالى أرسل نبيه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، يدعوهم إلى ديانة التوحيد: "وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا" الإسراء: 2.

أما مكان الدعوة فإن القرآن الكريم يذكر بأن مصر كانت المكان: "وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ" يونس: 87. ومن مصر انطلقوا بقيادة موسى عليه السلام قاصدين الأرض المقدسة كما ذكرنا آنفاً.

وحول المقصود بكلمة "مصر"، وهل هي مصر التي نعرفها اليوم، فإن "كمال الصليبي" طرح رأياً يخالف فيه جميع الذين قالوا أن مصر هي القطر المصري. ففي كتابه سابق الذكر، صفحة 146 قال: "مصر يم: من الأكيد أن الاسم هنا لا يشير إلى مصر وادي النيل، بل إلى ما هو حالياً قرية المصرمة – وتلفظ محلياً المصرامة –" . ويحدّدها في غرب شبه الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه فإن الدكتور كمال الصليبي يعتقد: بأن جميع الأسماء الواردة في التوراة لها ما يقابلها – مع تحريف بسيط – في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية. وهو يقول: إن القرآن الكريم

حينما يذكر الأسماء فإنه لا يحدد أماكنها بالضبط، مما يترك للباحث حرية البحث والاجتهاد في تحديد مواقع تلك الأمكنة على ضوء القرائن، والمعطيات الحديثة.

وبطبيعة الحال فنحن لا نتوقع من القرآن الكريم أن يكون كتاباً في الجغرافيا، فيحدد لنا الأماكن والمواقع. وإنما هو يكتفي بذكرها شواهد وأدلة وبراهين، لإثبات حالات معينة ومحددة، لها علاقة بأمم وشعوب – بعضها سادت ثم بادت – آمنت بالله وكتبه ورسله فاستحقت الثواب، وأخرى عصت وكفرت فنالت العقاب. ولا زال الباحثون غير قادرين على تحديد مواقع أسماء وردت في القرآن الكريم بشكل دقيق. والأمثلة على ذلك كثيرة منها: الأحقاف، أصحاب الأيكة، عاد، ثمود...الخ.

يبدو لنا أنه من الصعب علينا تقبل رأي الدكتور كمال الصليبي، وبخاصة حينما قال إن فرعون مصر ليس هو الذي ينتسب إلى الفراعنة الذين حكموا مصر وأنشأوا حضارة عظيمة، وإنما هو "فرعة" الحاكم المتسلط في وقت ما على المصرمة وجوارها، امتداداً إلى مصر وجوارها في حوض وادي بيشة. وفي الوقت نفسه لا نملك من الأدلة والبراهين ما ننقض بها الرأي السائد بأن مصر وادي النيل هي التي عناها القرآن الكريم، وأن الفرعون هو أحد فراعنة مصر وهو الفرعون "أخناتون" كما تحدده بعض الدراسات التي سنأتي على ذكرها بعد قليل.

يرى الدكتور عبد العزيز الخياط أن اليهود حينما خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام هرباً من بطش فرعون، لم يتجهوا إلى فلسطين، وإنما إلى شبه الجزيرة العربية معتمداً في ذلك على عدد من الآيات القرآنية مثل: " وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ

إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ" الأعراف: 138. قال المفسرون هم بنو لخم من قبائل اليمن قبل أن يهاجروا إلى شمال الجزيرة.

وقوله سبحانه وتعالى: "وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ" النمل: 17، 18. ويتساءل الدكتور الخياط قائلاً: "أين وادي النمل في فلسطين؟ ما قرأنا ولا سمعنا عن وادٍ لنمل كبير فيه، وإنما عرفنا أن وادياً للنمل موجود في اليمن في مخلاف خولان[30] ".

وقوله: "فمكث غير بعيد" يدل على قرب مكان حشد جند سليمان من سبأ. أو غير بعيد زماناً. فلم يكن إذن في القدس، لأن الله تبارك وتعالى أخبر عن بعد المسافة ما بين القدس واليمن في قوله: "وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ" سبأ: 18[31].

ويثبت الحاج زكي الغول، أمين القدس: أن بني إسرائيل لم يدخلوا فلسطين معتمداً في ذلك على قراءته لما جاء في القرآن الكريم والتوراة[32].

أمّا ادعاء اليهود بعودتهم إلى الأرض المقدسة – والتي يرون أنها فلسطين – مع النبي موسى عليه السلام، بدعوى أنهم ينتسبون إلى إبراهيم وحفيده يعقوب عليهما السلام، فذلك

محض افتراء، لأن إبراهيم وبنيه وأحفاده لم يكونوا يهوداً، كما سبق أن قلنا.

قلنا إن موسى عليه السلام – والذي كان أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، حيث ورد اسمه 136 مرة – أرسله الله سبحانه وتعالى إلى بني إسرائيل، فالذين اتبعوه واستجابوا لدعوته، وهادوا – أي رجعوا – إلى الله، أطلق عليهم لقب يهود وهذا ما شرحناه سابقاً. ومن هذا نفهم بأن الهداية لم تشمل بالضرورة جميع بني إسرائيل، كما حدث مع غيرهم من الأقوام والشعوب، ومنهم العرب والذين ظل بعضهم على معتقداتهم التي كانوا عليها ولم يعتنقوا الإسلام. كما أن هناك من الإسرائيليين اليهود الذين عصوا موسى بعد خروجهم من مصر. وبطبيعة الحال فإن اليهود اليوم لا تنطبق عليهم صفة الهداية لأنهم حرفوا توراتهم، وعصوا الرسل والأنبياء، ولم يؤمنوا بمن جاء بعد موسى عليه السلام أي عيسى عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم: "قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ" **الصف**: 14.

اليهود ليسوا جنساً ولا شعباً:

يزعم اليهود، أنهم شعب من شعوب العالم من الناحية الإثنوجرافية له مقوماته الحضارية والثقافية المميزة وخصائصه البشرية الموحدة، ومنهم من يعتقد بأنهم يشكلون جنساً أو عرقاً بشرياً كسائر الأجناس والأعراق المعروفة في العالم. وتلك خدعة خدعوا بها أنفسهم، ثم حاولوا بها خداع الناس. وللأسف فقد

صدقها كثيرون، وانطلت على غالبية العرب والمسلمين. وقد تصدى لهذه الكذبة عدد من العلماء في أوروبا وفي العالم، ومن بينهم علماء يهود، وأثبتوا بأن اليهودية ديانة اعتنقتها شعوب وأمم وأقوام مختلفة في العالم. وقلنا فيما سبق إن أول انتشار لليهودية كان في بلاد العرب، وبخاصة في شبه الجزيرة العربية، وإن قبائل عربية كثيرة تهودت، وقامت بنشر اليهودية في المنطقة.

ربما كان عالم الأجناس الشهير "وليم ريبلي" W. Ripley من أبرز الذين أثبتوا في كتابه المسمى "أجناس أوروبا"، والذي اطلعت عليه وأنا طالب بالجامعة، أن اليهود لا يشكلون جنساً كباقي الأجناس البشرية. وقد لا يتسع المقام هنا لإيراد مقتطفات من كتابات علماء أوروبيين وغير أوروبيين ينفون فيها ادعاء اليهود بأنهم يشكلون جنساً مميزاً، أو شعباً موحداً. وسأكتفي بذكر بعض ما كتبه باحث يهودي اسمه "آرثر كوستلر" A. Koestler، في كتابه المسمى "إمبراطورية الخزر وميراثها"، والذي صدر باللغة الإنجليزية عام 1976[33]. وفيه ينفي وجود جنس يهودي، معتمداً على دراسات وبحوث قام بها علماء مختصون. فهو يقول – على سبيل المثال – ما يلي[34]:

"ويكتب رافائيل باتيه Raphael Patai في فقرة مقتضبة، مُلخّصاً خلافاً حاداً مغرقاً في القِدَمْ: تنفي اكتشافات الأنثروبولوجيا الطبيعية وجود جنس يهودي، خلافاً للفكرة الشائعة، فالمقاييس الأنتروبومترية للجماعات اليهودية في أجزاء كثيرة من العالم تدل على أنهم يختلفون عن بعضهم بعضاً اختلافاً كبيراً من حيث الخصائص الجسدية المهمة: طول القامة، الوزن، لون الجلد، الدليل الرأسي والدليل الوجهي وفصائل الدم...الخ".

يؤكد "كوستلر" بأن اليهود ينتمون إلى الشعوب التي يعيشون بينها. وفي هذا يقول[35]:

"فالانثروبولوجيون يرون أن مجموعة من الحقائق تنقض هذا الاعتقاد - بأن اليهود يشكلون جنساً أو شعباً مميزاً - وهي: الاختلاف الواسع بين اليهود فيما يتعلق بالخصائص الجسدية، وتماثلهم مع الشعوب غير اليهودية التي يعيشون بينها، وينعكس كل ذلك في الإحصاءات الخاصة بطول القامة ودليل الجمجمة وفصائل الدم ولون الشعر والعيون وغيرها".

يرى "كوستلر" بقناعته بأن غالبية يهود أوروبا لا يمتون بأي صلة إلى الشرق، فهم ينتمون إلى العرق القوقازي الذي ينتمي إليه الأوروبيون، وأن موطنهم الأصلي منطقة القوقاز وحول بحر قزوين والذي كان يسمى بحر الخزر، وأن أقرب الأقوام والقبائل إليهم من حيث العرق قبائل: الهون والمجيار واليوغاز.

ويقول بأن الأرض التي سيطر عليها الخزريون اتسعت فشملت مناطق حول نهر الفولجا الذي يصب في بحر قزوين، وهي اليوم أراضي روسية. وقد اعتنق ملك الخزر الديانة اليهودية في نحو عام 740م، وتهوّد الشعب من بعده. وقد بلغت دولة الخزر أوجها في القرنين السابع والعاشر الميلاديين[36].

يستطرد كوستلر قائلاً: بأن الخزر – وهم شعب من أصل تركي – احتلت دولتهم موقعاً استراتيجياً على المعبر الحيوي الواقع على البحر الأسود وبحر قزوين...وقد نجحت جيوش الخزر في إيقاف الاجتياح العربي في أكثر مراحله المبكرة، وهكذا فقد حالت دون الانتصار الإسلامي على أوروبا الشرقية...[36].

وفيما يتعلق بزوال دولة الخزر، يقول "كوستلر" بأن الخلاف يدور حول مصير الخزر المتهودين بعد انهيار إمبراطوريتهم في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلاديين. وتذكر المصادر أن حالات توطن في أواخر العصور الوسطى حدثت في القرم وأوكرانيا والمجر وبولندا وليتوانيا(38). ومن هذه الأقطار انتشر اليهود فيما بعد في باقي البلاد الأوروبية.

يستشهد "كوستلر" بأستاذ سابق للتاريخ اليهودي بجامعة تل أبيب اسمه "بولياك" A.N.Poliak أصدر كتاباً عنوانه "خازاريا" بالعبرية في عام 1944، وظهر في طبعة ثانية عام 1951 جاء فيه(39): "إن هؤلاء اليهود الخزر يمثلون نواة التجمع اليهودي الكبير في أوروبا الشرقية،...إن أبناء هذا التجمع – هؤلاء الذين بقوا حيث هم؛ وهؤلاء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وغيرها من الأقطار، وهؤلاء الذين ذهبوا إلى إسرائيل يمثلون الآن الغالبية العظمى من اليهودية العالمية".

خلاصة القول أن الديانة اليهودية انتشرت في بلاد كثيرة، ففي الهند تهودت أعداد كثيرة من الهنود، وفي أثيوبيا اعتنقها كثير من السكان الذين أُطلق عليهم "فلاشا"، وهم الذين استقدمتهم إسرائيل جواً، وعلى شكل جسر جوي في سبعينيات القرن الماضي. وعن يهود الفلاشا وغيرهم يقول "كوستلر"(40):

"وثمة مصدر مهم لعملية التهجين هو العدد الكبير من الناس الذين تحولوا إلى اليهودية، وكانوا من أجناس شديدة الاختلاف. وممن يمثلون الهوس الديني لليهود في العصور القديمة: فلاشا الحبشة (أثيوبيا) السود البشرة، ويهود كاي فنج Kai – Feng الصينيون الذين يشبهون مواطنيهم، واليهود اليمنيون بتقاطيع

وجوههم الزيتونية الداكنة، واليهود البربر في الصحراء الذين يشبهون الطوارق..".

وأخيراً، وليس آخراً، نشر في عام 2008 "شلومو ساند" Shlomo Sand أستاذ التاريخ بجامعة تل أبيب كتاباً في غاية الأهمية والخطورة عنوانه: "متى وكيف اختُلق الشعب اليهودي؟"، وهو عنوان مثير وجذّاب. وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية وطُبع في عام 2009 بعنوان "اختلاق الشعب اليهودي" The Invention of the Jewish people.

نفى "شلومو ساند" في كتابه هذا، كثيراً من الآراء والطروحات التي روجتها الصهيونية وحاولت إقناع اليهود بها، وقامت بنشرها وترويجها عالمياً، مثل أكذوبة الشعب اليهودي، والادعاء بأن اليهود يشكلون عرقاً أو جنساً مميزاً، وقائماً بنفسه، يختلف عن سائر شعوب العالم وأجناسه.

دُعي "ساند" للمشاركة في عدة برامج تلفزيونية وإذاعية، وأبدى الصحفيون اهتماماً كبيراً به، وأجرت معه صحيفة "هاآرتس" الإسرائيلية مقابلة، ونشرتها على موقعها في الإنترنت بتاريخ 21/ 3/ 2008 بعنوان "تحطيم خرافة وطنية" Shattering a National Mythology.

أبدى المؤرخون الإسرائيليون التقليديون الاستياء والغضب بعد اطلاعهم على الكتاب، وعدوا "شلومو ساند" عدو الشعب. إلاّ أنه نظراً للزوبعة – و إن شئت فقل الإعصار – الذي ولدته أفكار "ساند" وطروحاته، فقد أقبل الناس على قراءته، وتولى عدد من الكتاب عرضه وتحليله وتقريظه، ونال المؤلف جائزة النقاد الفرنسيين، وهي جائزة قيمة، فاز بها من قبل، كبار الكتاب والمفكرين في فرنسا.

وقد ظل الكتاب لمدة تسع عشرة أسبوعاً على قائمة أفضل الكتب مبيعاً.

ينسف الكتاب ما روجته الصهيونية، أكذوبة الشعب اليهودي، كما قلنا، وهي الأكذوبة التي قام عليها الشعار الصهيوني الكاذب: "وطن بلا شعب، لشعب بلا وطن". والوطن في نظرهم فلسطين. وسنناقش هذا الشعار الكاذب في مكانه المناسب من الكتاب.

لعل أبرز الطروحات التي وردت في كتاب "ساند" قوله بأن يهود العالم لم يشكلوا في الماضي شعباً واحداً، وهذا ينطبق عليهم اليوم أيضاً، فهم يختلفون في أصولهم وأعراقهم، ولذلك فإنهم لا يتمتعون بأي حق من الحقوق الوطنية التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة، كحق تقرير المصير، وحق إقامة دولة خاصة بهم، وحق الاستقلال والسيادة الوطنية.

وقد نفى خرافة الشعب في الفصل الثاني من الكتاب، وبالتحديد تحت عنوان "من خرافة الإثنية إلى التصور المدني"[41]. وهو يؤكد على أن الصهيونية في ترويجها لخرافة الشعب اليهودي، اعتمدت على كتابات ومؤلفات يهودية ظهرت في القرن التاسع عشر، مستندة على كتاب ومؤرخين يهوداً، بدءاً بأول مؤرخ يهودي اسمه "فلافيوس جوزيفوس" Flavius Josephus، في القرن الأول للميلاد، والذي ردد ما قالته التوراة بأن تاريخ اليهود قديم جداً، ومتزامن مع خلق العالم[42].

يعتقد "ساند" أن أول يهودي، اختلق خرافة الشعب اليهودي كان "هنريتش جريتز" Heinrich Graetz، وذلك في كتابه المسمى: "تاريخ اليهود من

أقدم الأزمنة وحتى الآن". وقد نشر هذا الكتاب في عام 1850م، وتُرجم إلى عدة لغات[43].

أمّا اليهودي "موسى هيس" Moses Hess الذي كان يسارياً وصديقاً لمبتدع الاشتراكية "كارل ماركس"، فكان أول من اختلق فكرة "الجنس اليهودي"، في كتابه المسمى: "روما والقدس: المسألة القومية الأخيرة"، والذي صدر في عام 1862م، وكان بمثابة إعلان أو "مانيفستو" Manifesto قومي علماني. وفيه قال بأنه يجب على اليهود، وبخاصة في أوروبا الشرقية، العودة – كما زعم – إلى وطنهم الأصلي في الأرض المقدسة، مدعياً أنه لا استقرار لهم إلاّ فيه، لأنهم في صراع مع الأغيار، ولكونهم يشكلون جنساً مميزاً [44].

تلقفت الصهيونية هذا "المانيفسو" وعملت على نشر خرافة الشعب أو الجنس اليهودي. وقد نفى "ساند" هذه الخرافة، كما نفى ما أُشيع عن نفي اليهود من فلسطين، وعدها خرافة، تمسكت بها الصهيونية لتبرير استيلائها على فلسطين واستيطان أرضها، وطرد شعبها منها. وفي الوقت نفسه لفقت الصهيونية أكذوبة مفادها بأن اليهود شعب واحد عاش في المنافي منعزلاً عن غيره من الشعوب، وأنه تشتت وعبر بحاراً وقارات ووصل نهاية الأرض، ثم عاد مع ظهور الصهيونية بأعداد كبيرة إلى الوطن اليتيم[45].

يواصل "ساند" طروحاته قائلاً: إن محاولة اختراع شعب يهودي، دفعت مؤرخي الحركة الصهيونية إلى كتابة تاريخ يصف اليهود بأنهم شعب تشكل منذ بدايات التاريخ، وأن البراعم الأولى للقومية اليهودية تفتحت في ضوء الشعاع

القوي الذي جاء من أسطورة مملكة داود[46].

ينفي "ساند" هذه الأسطورة قائلاً بأن فكرة الشعب اليهودي لم تظهر إلاّ في القرن التاسع عشر، وذلك حينما تأثر عدد من مثقفي ألمانيا، بالحركة القومية الألمانية التي ألهبت حماسة الجماهير آنذاك، واختلقوا أكذوبة الشعب اليهودي. وتبنى المؤرخون اليهود هذه الأكذوبة، وألّفوا كتباً حول تاريخ ما يُسمّى بالشعب اليهودي الذي كانت له مملكة في الماضي، ولكن (بسبب الاضطهاد) تحول إلى شعب ضائع، ثم نجح أخيراً في العودة إلى وطنه[47].

أراد المؤرخون اليهود إيهام القوميين الأوروبيين الذين بنوا أيديولوجياتهم القومية على تواريخ شعوبهم، بأن لليهود تاريخ، لا يقل عن تواريخ الشعوب الأوروبية، إن لم يكن يتفوق عليهم من حيث السبق الزمني، مما يؤهلهم وبتفوق ليكونوا شعباً مميزاً مختلفاً عن سائر الشعوب الأخرى.

يضيف "ساند" قائلاً بأنه استهجن حينما اكتشف بأن تاريخ اليهود، وتاريخ الديانة اليهودية المكتوب في القرنين الأخيرين، غير صحيح، ويتناقض بالكامل مع ما ورد في الكتب اليهودية والمسيحية القديمة[48].

يؤكد "ساند" بأن لا علاقة لليهود الذين يعيشون في فلسطين اليوم، وجاءوا إليها من أقطار مختلفة من العالم، باليهود الذين سكنوا فلسطين في العهود القديمة التي سبقت ظهور المسيحية، وإنما هم ينحدرون من جماعات مختلفة الأصول والأعراق، اعتنقت الديانة اليهودية. فاليهود لم ينتشروا، وإنما الديانة اليهودية انتشرت. لقد كانت الديانة اليهودية تبشيرية[49].

يلتقي "ساند" في هذا الطرح مع علماء الأجناس والمؤرخين الموضوعين الذين سبقوه، وذكرنا بعضهم مثل "ربلي" و"آرثر كوستلر" الذي أكد بأن يهود أوروبا لا صلة لهم بيهود الشرق، وأنهم ليسوا من نسل إسرائيل، وإنما هم من الشعوب القوقازية التي اعتنقت الديانة اليهودية.

وهو يلتقي مع عالم الآثار "كيث وايتلام" Keith Whitelam في القول بأن اليهود قد اختلقوا لهم تاريخاً على حساب الشعب الفلسطيني، وذلك بطمس التاريخ القديم لهذا الشعب. وقد أورد ذلك في كتابه المسمى "اختلاق إسرائيل القديمة" الذي سيرد ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

كان من نتائج ثورة الغضب على الدكتور "ساند" وكتابه التي اشتعلت في إسرائيل، وبخاصة في الأوساط الأكاديمية والسياسية، قيام جريدة "هاآرتس" بشطب المقابلة التي أجرتها معه، ولم يكن قد مضى على نشرها سوى أسبوعين فقط. وفي الوقت نفسه تعرض "ساند" إلى هجوم شديد من اليهود، يذكرنا بالهجوم الذي تعرض له "كوستلر" الذي سبق أن نفى أسطورة الشعب اليهودي، في كتابه سابق الذكر. وكذلك تعرض المؤرخ الإسرائيلي المعروف "إيلان بابيه" Ilan Pappe لهجوم ومضايقات كثيرة بسبب كتبه الموضوعية عن تاريخ فلسطين، وبخاصة كتابه "التطهير العرقي في فلسطين"، الذي أثبت فيه قيام إسرائيل بتطهير عرقي ضد عرب فلسطين حين قيامها عام 1948[50]. وهذه المضايقات أجبرته على مغادرة إسرائيل – كما سمعت.

ربما كان من حسن حظ هؤلاء اليهود المؤرخين الموضوعين، أن لا أحد

يستطيع الطعن في يهوديتهم، وهذا ما حماهم من تهمة "اللاسامية"، أي معاداة اليهود، التي يوجهها اليهود الصهاينة لكل من يحاول إنكار مذابحهم أو التهوين من شأنها، ويطالبون بمحاكمتهم، كما حدث مع المفكر الفرنسي "روجيه جارودي" مؤلف كتاب "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" الذي سنتعرض له فيما بعد في هذا الكتاب. وكما حدث للمؤرخ البريطاني "ديفيد ايرفنج David Irving الذي اتهم بإنكار مذابح اليهود في ألمانيا إبان حكم هتلر في أربعينيات القرن الماضي، وحكم عليه، بسبب هذه التهمة، بالسجن في النمسا.

وأخيراً فإنه رغم تقريظنا لكتاب "شلومو ساند"، وإعجابنا بجرأته في طرح أفكاره وآرائه، وقدرته على مواجهة الذين تصدوا له وعارضوه، وتقديرنا لأسلوبه العلمي الرصين، وسعة اطلاعه على كثير من المراجع والمصادر الهامة، إلاّ أننا نختلف معه في بعض ما جاء في كتابه، ولكن نحن هنا لسنا في معرض نقد الكتاب لأن المقام لا يتسع لذلك، ويحتاج إلى مساحة أكبر، ونكتفي بالقول هنا بأن "شلومو ساند" ينكر عروبة فلسطين في العصور القديمة، ويرى بأن التعريب حدث منذ الفتح الإسلامي، أي في القرن السابع الميلادي، وهو كسائر المؤرخين الإسرائيليين لا يؤيد عروبة الكنعانيين، سكان فلسطين في العصور القديمة.

إنه يتبنى طروحات مؤرخين وكتاب وساسة يهود وصهاينة مفادها أن غالبية الفلسطينيين الحاليين كانوا يهوداً، تنصّر بعضهم، وتحوّل كثيرون منهم إلى الإسلام، بعد الفتح الإسلامي، إنهم من سلالة إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين يؤمن بيهوديتهم. وهو يستند في هذا على ما قاله المؤرخ الإسرائيلي المعروف "إبراهام بولاك" Abraham Polak، مؤسس دائرة تاريخ الشرق الأوسط وإفريقية بجامعة

تل أبيب. ولم يكن "بولاك" وحده من قال ذلك، فقد سبقه "إسرائيل بلكند" Israel Belkind الذي كان من أوائل الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين عام 1882. وفي عام 1918 أكد هذا الطرح كل من الزعيمين الصهيونيين "ديفيد بن غوريون" David Ben- Gurion – أول رئيس وزراء في إسرائيل حين قيامها في عام 1948 – وإسحق بن زفي Itzhak Ben-zvi – ثاني رئيس لدولة إسرائيل بعد حاييم وآيزمن – في كتابيهما المسمى: "أرض إسرائيل في الماضي والحاضر". وفيه قالا بأنه من الصعب التفريق بين الفلسطينيين واليهود من حيث الصفات والملامح وبخاصة الجسمية.

الخلاصة:

الخلاف لا زال قائماً حول أصل تسمية اليهود، وهل هم مجرد جماعات دينية تدين باليهودية؟ أم هم يشكلون عرقاً أو شعباً أو أمة يمتلكون من الصفات والسمات ما يميزهم عن غيرهم من الأمم والشعوب؟

من حيث التسمية، هناك من قال بأن اليهود نُسبوا إلى يهوذا، الابن الرابع، ليعقوب حفيد إبراهيم، عليهما السلام. بينما رأى آخرون بأنهم سُمّوا بذلك نسبة إلى إلههم "يهوه" الذي عبدوه، وجاء ذكره لأول مرة في الإصحاح الأول من سفر الخروج. وهناك من قال بأن التسمية تُنسب إلى المكان أو الموطن الذي كانوا فيه. فاليهود من يهودة، وهي كلمة مشتقة من "يهد" المماثلة للعربية "وهد" ويعني الانخفاض، وأن اليهود كانوا يسكنون منطقة وهدة – أي منخفضة – في شبه الجزيرة العربية. وقد فندنا هذه الآراء واستبعدناها.

والرأي الراجح لدينا أن اليهود من الهداية، فقد كانوا متهدين في عهد موسى

عليه السلام. فكلمة يهود من "الهَوْد" بمعنى التوبة، ومصداقاً لذلك قوله سبحانه وتعالى في الآية 156 من سورة الأعراف: "وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ".

وقلنا أنه لم تكن هناك ديانة اسمها اليهودية قبل موسى عليه السلام، وأن اليهودية انتشرت مثل المسيحية والإسلام، فاعتنقها أُناس من أمم وشعوب وأجناس مختلفة. ولذلك فإن اليهود جماعات دينية، لا يشكلون جنساً أو شعباً قائماً بذاته. وهذا ينفي زعمهم بأن جدهم الأعلى إبراهيم عليه السلام، ويدحض مقولة القرابة بينهم وبين العرب. وقد دعمنا آراءنا بمقتطفات من مراجع موثوقة صنفها علماء كبار يتمتعون بمصداقية علمية كبيرة.

المراجع

1. الكتاب المقدس – كتاب الحياة، ط3، ص38.
2. صابر طعيمة، "التاريخ اليهودي العام"، الجزء الأول، دار الجيل، ط1، بيروت، 1975، ص33-34.
3. سفر الخروج، الإصحاح الثالث/ 15.
4. أحمد سوسة، "العرب واليهود في التاريخ" العربي للإعلان والنشر والطباعة، ط6، دمشق، دون تاريخ، ص63.
5. المرجع نفسه، ص359.
6. كمال الصليبي، "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985، ص155-156.
7. المرجع نفسه، ص156.
8. المرجع نفسه، ص156 (الهامش).
9. المرجع نفسه ص12.
10. المرجع نفسه ص13-14.
11. المرجع نفسه ص31-33.
12. المرجع نفسه، ص33.
13. تطلق كلمة السنهدرين على المجمع اليهودي المقدس.

14. شفيق الخليل "السنهدرين الثاني: التوراة لم تأت من الجزيرة العربية" القبس العدد 5622، الخميس 7/ 1/ 1988، الحلقة الثانية.

15. المرجع نفسه.

16. أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" الجزء الثاني، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص86.

17. أبو الفتح محمد بن عبد الرحيم بن أبي بكر الشهرستاني، "الملل والنحل"، المجلد الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت 1975، ص210.

18. جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، الجزء السادس، دار العلم للملايين، بيروت، ص511.

19. إسرائيل ولفنسون، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1927، ص14.

20. جواد علي، مرجع سابق.

21. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص597-598.

22. إسرائيل ولفنسون، مرجع سابق، ص26.

23. عبدالله جبريل مقداد "شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام"، دار عمار، عمان – الأردن، 1999، ص298.

24. إسرائيل ولفنسون، مرجع سابق، ص35-39.

25. المرجع نفسه.

26. جواد علي، مرجع سابق، ص537.
27. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، "تاريخ الطبري...تاريخ الأمم والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، بيروت، بدون تاريخ، ص105-111.
28. إسرائيل ولفنسون، مرجع سابق، ص40.
29. ابن هشام، ج1، ص34.
30. عبد العزيز الخياط، "اليهود وخرافاتهم حول أنبيائهم والقدس" الجزء الأول، الطبعة الرابعة، دار المتقدمة للنشر والتوزيع، عمان، 2004، ص82-83.
31. المرجع نفسه.
32. زكي علي الغول، "بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين"، قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 2001.
33. Koestler, A. "The Thirteenth Tribe, The Khazar Empire and It's Heritage", Random House, Inc. New York, 1976, pp. 13-17.
34. المرجع نفسه، ص182.
35. المرجع نفسه ص199.
36. المرجع نفسه ص15-17.
37. المرجع نفسه ص13-15.
38. المرجع نفسه ص15.
39. المرجع نفسه ص16.
40. المرجع نفسه ص187.
41. Sand,s. "The Invention of The Jewish People", verso, London,

2009, pp. 45-54.

42. المرجع نفسه، ص64.

43. المرجع نفسه، ص72.

44. المرجع نفسه، ص79.

45. المرجع نفسه، ص182–189.

46. المرجع نفسه، ص75.

47. المرجع نفسه.

48. المرجع نفسه، ص65–85.

49. المرجع نفسه، ص182–189.

50. Pappe, I, The Ethnic Cleansing of Paestine, oneworld Publications Limited, oxford, 2006.

51. Sand's. op.cit. pp. 184-189.

الفصل الثاني

إسرائيل والإسرائيليون

- هل إسرائيل هو يعقوب كما تدعي التوراة؟
- وهل ذلك من الإسرائيليات التي تسربت إلى الفكر الإسلامي؟
- من إسرائيل؟ ومن الإسرائيليون؟
- مزاعم العهد القديم أو كتاب اليهود المقدس تدحضها المكتشفات الآركيولوجية الحديثة وتخطئها.

الفصل الثاني

إسرائيل والإسرائيليون

مثلما ثار الجدل ونشب الخلاف حول حقيقة اليهود، ومن هم؟ والادعاء بأنهم جنس مميز أو شعب موحد، وقد أثبتنا فيما سبق عدم صحة ذلك، فإن النقاش لا يزال قائماً حول حقيقة إسرائيل، ومن أين جاءت هذه التسمية؟ ومن الإسرائيليون؟ وما أصلهم؟ ومن أين جاءوا؟.

من يطلع على كتابات اليهود، وبخاصة الصهاينة منهم، يرى أنهم يتعمدون الخلط بين هذه التسميات أو المفاهيم، فيزعمون أن كل يهودي هو في الوقت نفسه إسرائيلي، وقد انطلى هذا الزعم على كثير من الناس، ومنهم العرب. وأعترف أنني كنت من الذين صدقوا ذلك، قبل أن أتمكن من الاطلاع على بحوث ومؤلفات تنفي هذا الادعاء، وتفرق بين اليهودية ديناً سماوياً مثل سائر الأديان، وبين الإسرائيلية، التي يعتقد اليهود، أنها عرق أوشعب له مقومات العرق والشعب.

قد يخفى على البعض أن الخلط بين اليهودية والإسرائيلية متعمد من الصهاينة، هدفه إضفاء الشرعية على إقامة إسرائيل التي أسسها يهود أوروبيون لا يمتون بصلة إلى يهود الشرق الأوسط من البلاد العربية، وفي الوقت نفسه إعطاؤهم الحق في زعمهم بأنهم قاموا بأحياء وإعادة بناء دولة إسرائيل القديمة، التي يقولون إنها كانت قائمة قبل نحو ثلاثة آلاف سنة.

سنبين في هذا الفصل حقيقة إسرائيل، ومن أين جاءت هذه التسمية؟ ومن الإسرائيليون الذين ينتسبون إليها؟ وسنعتمد في ذلك على ما توافر لنا من بحوث ودراسات وكتب دينية وغير دينية.

إسرائيل في القرآن الكريم:

ورد ذكر إسرائيل في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة، ولذلك فقد كان إسرائيل وبنوه أكثر الأقوام والشعوب ذكراً في كتاب الله. وقد اشتملت كثير من هذه الآيات التي ورد فيها ذكر إسرائيل على تذكير بني إسرائيل بأمور كثيرة خالفوها وعصوا الله فاستحقوا غضبه وعذابه وعقابه.

لم يبين لنا القرآن مَنْ إسرائيل هذا الذي ينتسب إليه الإسرائيليون؟ ونحن لا نتوقع من القرآن أن يكون كتاباً في الأنساب، أو في علم الشعوب والأقوام، ولا في التاريخ، فهو كتاب هداية صيغ بأسلوب بلاغي معجز.

يقول علماء التفسير المسلمون بأن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. ومن المعلوم أن اسم يعقوب ورد في القرآن ست عشرة مرة، وفي عدد من السور، ولم يقرنها بإسرائيل. وفي الوقت نفسه فإن ورود ذكر إسرائيل في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة – كما قلنا – فإنها لم تقترن باسم يعقوب.

يبدو أن علماء التفسير المسلمين اعتمدوا على اليهود، وبخاصة الذين أسلموا منهم، في القول بأن يعقوب هو إسرائيل. ومن المعلوم أن كثيراً مما ورد في كتب اليهود، وبخاصة العهد القديم والتلمود، تسرب إلى كتب التفسير والتاريخ الإسلامي، وهذا ما يطلق عليه بالإسرائيليات والتي سنبحثها بعد قليل.

حول تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل، جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين من الكتاب المقدّس ما يلي[1]:

"فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه، فانخلع حُقُّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك. فقال يعقوب: فقال لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت".

ويتكرر تغيير الاسم مع قليل من الاختلاف في الإصحاح الخامس والثلاثين، حيث جاء فيه ما يلي[2]:

"وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدّان أرام وباركه. وقال له الله اسمك يعقوب. لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل. فدعا اسمه إسرائيل".

إن هذه النصوص التوراتية تدعو إلى الشك والريبة، إذ لا نجد ما يدل على أن هناك حكمة تبرر تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل، وليس هناك ما يستدعي استبدال اسم باسم، فالشخص قد يغير اسمه لأسباب ودوافع تتطلبها ظروفه وأوضاعه وأحواله، أو أنه يريد التبرؤ من اسمه القديم لأسباب يُقدِّرها هو. ويبدو أن تغيير الأسماء شائعة في التوراة، فإبراهيم عليه السلام كان اسمه "أبرام" وسارة كان اسمها "ساراي"[3].

ربما يعرف كثيرون بأن العهد القديم لا يمكننا الاعتماد عليه مصدراً تاريخيّاً

موثوقاً. وقد طعن في صدقيته علماء بارزون مختصون، وسنبين ذلك في مكانه المناسب من هذا الكتاب. وكان القرآن الكريم أول من طعن في صدقية الكتاب المقدس اليهودي، فالله سبحانه وتعالى يقول: "فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ" البقرة: 79.

الإسرائيليات:

سبق أن قلنا بأن كلمة الإسرائيليات تعني ما تسرب أو ما نُقل من كتب اليهود، وبخاصة التوراة والتلمود، وكذلك كل ما نُقل عن رجالهم من تفسير لأحداث التاريخ، وما أدخلوه من أقوال وتفسيرات للكثير من آيات القرآن الكريم. وهو موضوع واسع بحث فيه كثير من الكتّاب والعلماء والباحثين، كان من بينهم الدكتور أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام، والدكتور عبد العزيز الخياط في كتابه "اليهود وخرافاتهم حول أنبيائهم والقدس"، والذي يذكر فيه عدداً من الذين قالوا بالإسرائيليات وأدخلوها في تفسير القرآن الكريم، وانطلت بعد ذلك على كثير من المفسرين، وكُتّاب التاريخ الإسلامي. ويقول: أنه كان من أشهرهم مقاتل بن سليمان، ومحمد بن مروان السُّدي الصغير، ومحمد بن السائب أبو صالح الكلبي، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وغيلان بن فروة الكلبي، وعبدالله بن سبأ[4].

يذكر العلاّمة الدكتور أحمد أمين بأن من أهم مصادر الإسرائيليات كان: "عبدالله بن سلام"، وهو يهودي من اليمن، أسلم وكان يتميز بثقافته اليهودية الواسعة، وقد نقل عنه المسلمون كثيراً مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها، ونقل عنه الحديث أبو هريرة، وأنس بن مالك. وينسب إليه الطبري في تاريخه كثيراً من

الأقوال في المسائل التاريخية والدينية. وهو يمثل لنا ناحية خاصة، دخل منها على المسلمين بعض أقوال التوراة وما إليها، ولصق بعضها بتفسير القرآن وبالقصص الديني.

أما في مجال القصص الديني، فقد كان "كعب الأحبار" أو "كعب بن نافع" وهو يهودي من اليمن أيضاً، ومن أكثر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين. وقد أسلم كعب في خلافه أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما، وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة، ثم إلى الشام. وقد أخذ عنه اثنان هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس، وهذا يعلل ما في تفسيره من إسرائيليات، وأبو هريرة، الذي يروي كثيراً من أحاديث الرسول. ولم يؤثر عن كعب أنه ألف، كما أثر عن وهب ابن منبه، ولكن كل تعاليمه على ما وصل إلينا، كانت شفوية، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها[5].

ومما يدل على كراهية "كعب الأحبار" للإسلام والمسلمين، ما ذكره الطبري حيث قال[6]: خرج عمر بن الخطاب يوماً يطوف في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة، غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانياً، فقال: يا أمير المؤمنين، أعدني (أي أعني وانصرني) على المغيرة بن شعبة، فإن عليّ خراجاً كثيراً، قال: وكم خراجك؟ قال: درهما في كل يوم، قال: وأيشنِ صناعتك؟، قال: نجار، نقاش، حداد، قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردتُ أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحاً، قال: لئن سلمتُ لأعملنَّ لك رحاً يتحدث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لقد توعدني العبد آنفاً! قال: ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام،

قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة، قال عمر: الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد صفتك وحِلْيَتك، وأنه قد فنى أجلك – قال: وعمر لا يُحسُّ وجعاً ولا ألماً – فلما كان من الغد جاءه كعب، فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان، قال: ثم جاءه من غدِ الغد، فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها. قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكّل بالصفوف رجالاً، فإذا استوت جاء هو فكبّر. قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات، إحداهن تحت سُرّته، وهي التي قتلته".

ولما دخل كعب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ينزف دماً نظر عمر إلى كعب وأنشد يقول[7]:

فأَوعَدَني كعب ثلاثاً أَعُدُّها ولا شك أن القول ما قال لي كعبُ

وما بي حذارُ الموت إني لميّتٌ ولكن حَذارُ الذّنب يتبعه الذنب

ويعلق أحمد أمين على هذه القصة قائلاً[8]: "وهذه القصة – إن صحت – دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها في هذه الصيغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلافه فيما ينقل. ويقول أحمد أمين أيضاً بأنه: "جاء في الطبقات لابن سعد حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبدالله بن عبد القيس جالس على كتب وبينهما سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ.

هذا ولقد لوحظ أن بعض الثقات من الباحثين كابن قتيبة والنووي، لا يرويان كثيراً عن كعب، وابن الطبري ينقل عنه قليلاً، ولكن غيرهم كالثعالبي

والكسائي ينقل عنه كثيراً في قصص الأنبياء، كقصة يوسف والوليد بن الريّان وأشباه ذلك".

وتشتمل كتب التفسير على كثير من الإسرائيليات مثل قصة خلق العالم، وخلق الإنسان. وقد تناول هذا الموضوع بشكل موسع الباحث "علي نصوح الطاهر" في كتابه "قصة خلاف الملأ الأعلى على خلق الإنسان"[9]. وفيه يسرد قصص الخلق كما وردت في التوراة والأناجيل، وتسربها إلى الفكر الإسلامي.

إن موضوع الإسرائيليات واسع لا يتسع المقام هنا لبحثه ومناقشته، ولكننا نكتفي بذكر مثلين، وردا في كتب التفسير، أولهما: قوله سبحانه وتعالى مخاطباً بني إسرائيل: "وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَـةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا" البقرة: 58. ويقول الإمام: "الشوكاني" في تفسيره المسمى "زبدة التفسير من فتح القدير" والذي اختصره محمد سليمان عبدالله الأشقر، وطبعته وزارة الأوقاف الإسلامية بالكويت، بأن المقصود بالقرية هي بيت المقدس. ولا أعلم كيف جاء بهذا، وعلى أي شيء اعتمد في تفسيره بأن القرية هي بيت المقدس؟ والمؤكد أن ذلك من الإسرائيليات.

أمّا المثال الثاني: فعن داود عليه السلام، وقوله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ

تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ" ص: 20-25.

يقول الدكتور الخياط في التفسير الإسرائيلي، والذي جاء في بعض تفاسير القرآن كالألوسي وتفسير أبي السعود، ما يلي[10]:

"هذه آيات نزلت في سيدنا داود عليه السلام، النبي المرسل المعصوم، ولكن التفسير المنحرف يقول: إن داود رأى حمامة من الفضة تطير، وكانت شيطاناً تمثل في صورة حمامة فتبعها حتى وصل إلى السطح، فنظر إلى امرأة جميلة تستحم فأعجبته وأُغرم بها، وأتى بها واضطجع معها، وكانت امرأة قائده "أُوريا" فأرسله إلى الحرب ليموت وجعله يتقدم الجيش فقُتل، وحملت من داود سفاحاً ثم تزوجها، ومنها كان ابنه "سليمان". وقد رُوِيَتْ هذه القصة بروايات مختلفة في كتب التفسير المتعددة، أخفها أن داود خطب امرأة كان قد خطبها قائده "أوريا"، فخطب على خطبة أخيه. والقصة من أساسها مرفوضة فلا يليق بنبي معصوم أن يفعل ذلك، ولا تقبل من إنسان عادي أن يعتدي على امرأة غيره بالزنا فكيف بنبي، وهل يصحُّ من الله أن يثيب داود النبي المعصوم بعد توبته عن الزنا بأن له زلفى وحسن مآب؟، وكيف يقبل الناس منه الدعوة إلى ترك الزنا وهو لم يستطع أن يكبح جماح شهوته

وعنده تسع وتسعون امرأة، كما تقول الخرافة الإسرائيلية؟. ومن العجيب أن الرواية تقول فيما روي عن يونس بن حبَّان أن داود عليه السلام بكى أربعين ليلة حتى نبت العشب حوله من دموعه، أو أنه نبت من دموعه البقل، أو أنه لم يشرب ماءً إلا وثلثاه من دموعه.

والصحيح أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعلم داود كيفية الفصل في الخصومات بين الناس، فأرسل له ملكين فتسورا عليه المحراب (مكان تعبده) وعرض أحدهما قضية واضحة: أخوه عنده تسع وتسعون نعجة فطمع في نعجة له واحدة، واشتد في طلبها وهو لا يريد أن يعطيها له، سواءً أكان بيعاً أو منحة، فابتدأ داود فحكم بظلم أخيه له من غير أن يسمع كلام الخصم الثاني، والواجب للقاضي أن يسمع كلام الخصمين، كما قال عمر بن عبد العزيز: "لو جاءك خصم يدعي على آخر أنه فقأ عينه فلا تحكم له حتى ترى الخصم فربما فقأ له عينيه الاثنتين. وأدرك داود أنه أخطأ بتسرعه في الحكم فخرَّ راكعاً وأناب، فغفر الله ذلك وعلمه الحكم وفصل الخطاب".

وفي السياق نفسه نشر الأكاديمي الأردني "يوسف ربايعة" مقالاً بجريدة الدستور الأردنية بتاريخ 29/ 5/ 2009 عنوانه: "بعض تفاسير القرآن تعيد إنتاج الرواية التوراتية" قال فيه: "والغريب في الأمر أن أغلب تفاسير القرآن، لم تأخذ برواية القرآن، لكنها أعادت إنتاج الرواية التوراتية وتفسيراتها، فكأن هذه التفسيرات ليست للقرآن بل هي للتوراة، لتطابقها شكلاً ومضموناً، وتناقضها مع النص القرآني شكلاً ومضموناً، والأدلة على ذلك كثيرة تحتاج إلى دراسات مستفيضة، ولكنني أورد مثالاً عليها على سبيل الإشارة وليس الحصر، فقد وردت

قصة داود عليه السلام، وقضية تسرعه في الحكم عند أغلب المفسرين، مطابقة لتفاسير التوراة، ولا علاقة لها بالنص القرآني".

أخذ "ربايعة على الإمام القرطبي، صاحب كتاب "الجامع لأحكام القرآن"، وهو من أهم كتب التفسير تمشيه مع الرواية التوراتية، حينما فسّر النعجة بالمرأة، معتمداً في ذلك على الزمخشري. وقد وقع في الخطأ نفسه "الطبري" الذي هو شيخ المفسرين، فقد قال في تفسير الآية: "إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ" ص: 23، بأن هذا مَثَلٌ ضربه الخصم المتسورون على داود في محرابه، وذلك أن داود كانت له فيما قبل تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتل امرأةً واحدة.

وأخيراً فإننا نتساءل: أما آن الأوان لنخلص كتب التفسير والتاريخ الإسلامي من هذه الإسرائيليات؟ إني أدعو علماء التفسير والمؤرخين أن يقوموا بهذا الدور فهو من صميم مسؤولياتهم. وللأسف فإن من يطلع على الموسوعة الفلسطينية يجد فيها الكثير من الإسرائيليات، وحينما عهد إليّ بتشكيل لجنة علمية لمراجعة الموسوعة في عام 2002، استعنت بكثير من الباحثين، وقمنا بتنقية الموسوعة من الإسرائيليات، وأضفنا إليها الكثير من الإضافات، ولكن وللأسف لم تنشر الموسوعة في طبعتها المنقحة والمزيدة لعدم توافر المال اللازم للطباعة.

من إسرائيل ومن الإسرائيليون؟

قلنا فيما سبق بأن التوراة ذكرت بأن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. وأخذ عنهم ذلك مفسرو القرآن الكريم من المسلمين، وقمنا

بمناقشة هذه المسألة التي عددناها من الإسرائيليات.

لسنا وحدنا الذين شككوا في أن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، فهناك عدد من العلماء والباحثين المختصين الذين شككوا في ذلك قبلنا، وقالوا بأن التوراة تحتوي على كثير من الأساطير وطعنوا في مصداقيتها، وهذا ما سنبحثه في مكانه المناسب من هذا الكتاب. ولكننا الآن سنتناول مسألة إسرائيل، وهل هو يعقوب عليه السلام؟ وما أصل التسمية؟

ينكر الدكتور كمال الصليبي صحة النصوص الواردة في سفر التكوين التي سبق ذكرُها والقائلة: بأن إسرائيل اسم يعني يجاهد مع الله أو الله يجاهد، ويعتقد أن ذلك ما هو إلاّ تفسير ميثولوجي من نسج الخيال، وإنما ينسب الاسم إلى مكان خارج فلسطين، وبالتحديد في شبه الجزيرة العربية. وفي هذا يقول(11):

"إن كون الاسم يسرءل مركباً من (يسره) و(ءل) هو أمر مؤكد، ومع ذلك فإن (يسره) هنا ليست المضارع من الفعل العبري (سره) بمعنى جاهد، ناضل، قاتل، بل هي اسم قديم من الفعل نفسه، بمعنى الكلمة العربية (سرو) أو (سري)، و(السرو) هو ما ارتفع من الوادي وانحدر من غلظ الجبل، و(السراة) من (سري) أعلى كل شيء. ويتضح من ذلك أن الجذر من الاسم كما هو مشهود بالعربية يفيد معنى العلو والارتفاع والشموخ".

يخلص الدكتور كمال الصليبي بأن كلمة "إسرائيل" كان اسماً جغرافياً لمكان انتسب إليه سكان وتسموا بالإسرائيليين. ويحدد هذا المكان بقوله أنه في جنوب غرب الجزيرة العربية. ويحاول إثبات صحة فرضيته هذه بذكر أسماء منها "اليَسْر"

في منطقة محايل، واليَسْرى في منطقة الطائف، يَسْرة بجوار أبها، وغيرها من الأسماء والمواقع الموجودة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.

أمّا الدكتور "أحمد نسيم سوسة"، فقال: بأن المقصود بإسرائيل مكان في فلسطين[12]: "وقد أظهرت الاكتشافات الأخيرة أن كلمة إسرائيل كانت اسماً لموضع في فلسطين، وهي تسمية كنعانية، وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل موسى".

إذاً كان الاختلاف بين الدكتور الصليبي والدكتور سوسة انحصر في المكان، فالصليبي يحدده في جزيرة العرب، بينما "سوسة" يرى أنه بفلسطين، وأن التسمية كنعانية وليست عبرية كما اعتقد الصليبي.

فيما يتعلق بمعنى التسمية فإن الموسوعة الفلسطينية ترى بأن كلمة "إسرائيل" كنعانية مؤلفة من مقطعين هما: "إسر"، ومعناها عبد أو جندي، و"إيل" وتعني الإله "إيل"[13]. وإيل كما قال "محمد أديب العامري[14]: كان إلهاً أكْبَرَ، بل كان أبا الآلهة عند الكنعانيين. وكان "بعل" ابنه. وقد اقتبس العبرانيون عبادة هذا الإله "إيل" وذُكر أنهم جعلوا يهوه ابناً له.

يستنتج الباحث "شفيق الخليل" من الآية القرآنية: "كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ" آل عمران، 93، بأن: إسرائيل هو شخص من أولياء الله الصالحين، ومن الرسل الذين بعثهم الله سبحانه

وتعالى لهذه الفئة الضالة من المخلوقات وقد أسماهم الله جل شأنه ببني إسرائيل نسبة إلى ذلك الرجل الصالح الرسول. لقد كان إسرائيل من أولئك الرسل الذين لم ترد قصصهم في القرآن الكريم بالتفصيل"[15].

ويرى "الخليل" بأن موسى عليه السلام المولود بمصر والذي تربى في بيت الفرعون "أمنحوتب" الذي تسمى بـ "أخناتون"، كان من نسل "نوح عليه السلام"، معتمداً على قوله تعالى: "وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا" الإسراء: 3،2. ويقول بأن الذين خرجوا مع موسى هرباً من بطش الفرعون هم قومه – كما وصفهم الله – وأنه لا يصح تسميتهم ببني إسرائيل، وهم جماعات غير متجانسة، وكان أغلبهم من بقايا الهكسوس الذين غزوا مصر في مرحلة سابقة، وأن بني إسرائيل كانوا قلة أو طائفة واحدة من هذه الجماعات لا يتجاوز عددهم السبعين[16].

ينفي شفيق الخليل قصة إبراهيم عليه السلام، كما وردت في التوراة، وتغيير اسم حفيده يعقوب عليه السلام إلى إسرائيل، ويرى بأنها ملفقة ويقول[17]:

"لم يرد أي نص في القرآن الكريم فيما يتعلق بذكر يعقوب أو أية إشارة إلى أن يعقوب هو إسرائيل. إن كل ما جاء في القرآن فيما يتعلق بذكر يعقوب وإبراهيم إنما جاء بنفس تسمياتهم، ولم ترد فيه أية ازدواجية لأي اسم من أسماء أنبياء الله الصالحين. لماذا يغير الله سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء وهو الذي أوحى بها لذويهم

في الأصل؟. فإذا صدّقنا هذه القصة الملفقة نكون بذلك قد أوقفنا عقولنا عن التفكير، وجمدنا طاقاتنا الفكرية، بل يصبح إيماننا بالله سبحانه وتعالى في موضع شك، إذ أننا بذلك نكون قد اعترفنا ضمناً بأن الله المنزه عن كل خطأ، وهو العليم الخبير، وهو الذي خلق كل شيء بقدر، والذي أوجد من العدم، وهو الذي يبين لنا السنن، وعلمنا بأننا لن نجد لسننه تبديلاً، أقول أننا بتصديقنا ذلك، نعترف ضمناً بأن الله قد اقترف خطأً عند ولادة يعقوب عليه السلام، فعاد بعد ذلك، وبعد مرور قرن كامل ليعد الخطأ، فأطلق عليه "إسرائيل"، إذ جاء في التوراة بأن الرب الإله تجلى ليعقوب بين الأعشاب، وقال له: لم يعد اسمك يعقوب، ويصبح من اليوم إسرائيل. وحاشا لله أن يخطئ، فيعقوب هو يعقوب بن إسحق، وكان صدّيقاً نبياً، وإسرائيل هو شخص آخر غير يعقوب. وقد جاء القرآن الكريم باسم يعقوب في جميع ما يتعلق بذكره، ولم يذكر القرآن أية كلمة توحي من قريب أو من بعيد بأن يعقوب هو إسرائيل، إلاّ أنه من المؤسف أن نجد الأمة الإسلامية وقد سارت على ما جاء في الإسرائيليات وفي التوراة فأخذت بهذه عنها دون التدقيق في هذه المسألة".

فيما يتعلق بقوم موسى عليه السلام وخروجهم من مصر، يبدو أن شفيق الخليل اعتمد – من دون أن يذكر – على الدكتور أحمد سوسة، الذي اعتمد بدوره على المؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون مؤلف كتاب اليهود في تاريخ الحضارات الأولى. وفيه يقول[18]:

"ولحق ببني إسرائيل عدد من المصريين الساخطين ومن الأسارى ومن العبيد المتمردين. ولما جاوز بنو إسرائيل بحر القُلْزم (الأحمر) بَدَوْا عشيرة أي جماعة مصرّة

على الظهور بأنهم من نسل رجل واحد، وإن كانت فاتحةً صفوفها بالحقيقة لجميع الفُرَّار المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها ومعبوداتها الأهلية".

يبدو أن قول "غوستاف لوبون" هذا منطقي، لأنه من غير المعقول أن يكون عدد الإسرائيليين الذين هربوا من مصر مع موسى عليه السلام قد بلغ نحو: "ستمائة ألف (600,000) ماشٍ من الرجال عدا الأولاد"، كما جاء في التوراة[19]. ويشكك في هذا الرقم عالما الآثار اليهوديان "إسرائيل فنكلشتاين" و"نيل آشر سلبرمان" ويقولان: بأن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً[20]، فليس من المعقول أن يكون عدد الإسرائيليين في الفترة الممتدة من عصر يوسف بن يعقوب عليهما السلام إلى عهد موسى عليه السلام، وهي مدة زمنية تقدرها التوراة بنحو 430 سنة قد وصل إلى هذا الحجم الكبير.

وما يدعونا إلى التشكيك في عدد بني إسرائيل الفارين من مصر، أن كثيراً منهم امتزج بالشعب المصري، وذاب فيه، إذ يؤكد الدكتور أحمد سوسة، ذلك ويقول[21]: "ومما ساعد على ذوبان ذرية يوسف عليه السلام وأخوته بالشعب المصري كلياً هو الحادث الثاني، ونعني به اعتناق أخناتون فرعون مصر (1375–1358 ق.م)، بعد عهد يوسف وعهد الهكسوس، دين التوحيد وفرض هذا الدين على الشعب المصري...والأرجح أن أخناتون أخذ بديانة التوحيد متأثراً بعهد الهكسوس وعهد يوسف ويعقوب (عليهما السلام) مما أدى إلى اندماج ذرية إسرائيل بالمصريين بعد أن أخذ عدد كبير من المصريين بدين التوحيد، إذ لم يبق ما يفرق بينهم وبين المصريين الذين اعتنقوا ديانة التوحيد، لأن الدين كان أقوى رابطة بين الأقوام في تلك الأزمان، وبه يتميز الناس بعضهم عن بعض".

ومن المعلوم بأن انقلاباً حدث في مصر، بعد ذلك، على أخناتون، وقُتل فيه، وارتد المصريون عن ديانة التوحيد، وعادوا إلى آلهتهم القديمة مثل الإله "رع".

ينفي بعض الباحثين ما جاء في التوراة بأن نسب موسى عليه السلام يعود إلى لاوي الابن الثالث ليعقوب عليه السلام. فعالم النفس المشهور سيمون فرويد، وهو يهودي قال في كتابه "موسى والتوحيد" الذي اعتمد عليه أحمد سوسة بأن(22): موسى كان قائداً مصرياً في الجيش المصري ولم يكن من اللاويين كما جاء في التوراة.

يتابع أحمد سوسة تأكيده على نفي انتساب قوم موسى عليه السلام إلى يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم، عليهم السلام قائلاً(23): "وصفوة القول أن عصر إبراهيم الخليل لم يكن له أي ارتباط بقوم موسى الذين سمتهم التوراة ببني إسرائيل للغرض الذي شرحناه، وقد ظهروا بعد سبعمائة عام من دور إبراهيم الخليل، فهو عصر قائم بذاته، ولا علاقة له بمن سموا ببني إسرائيل في عهد موسى، لا في الثقافة ولا في اللغة، ولا في العرق. فدور إبراهيم الخليل عليه السلام مرتبط كما نبهنا إليه القرآن الكريم ببيت الله العتيق، أي بالجزيرة العربية التي هو منها وإليها يعود، وهي وطن آبائه وأجداده الأصلي قبل هجرتهم إلى وادي الرافدين، فدوره يرتبط بتاريخ العرب مباشرة، وهو العصر العربي القديم المعاصر للقبائل العربية التي هو منها، والتي سميت بالعرب البائدة فيما بعد لانقراضها. والدليل على أن عهد إبراهيم الخليل ويعقوب عليهما السلام عهد مستقل لا صلة له بعهد موسى واليهود وأن الآثاريين ميّزوه عن الأدوار التالية، إذ أطلقوا عليه اسم عصر الآباء الجوالين The Wandering of the Patriatchs".

يدعم أحمد سوسة أقواله هذه بالمؤرخ العالمي المشهور جيمس هنري بريستد المختص في التاريخ القديم، معتمداً على كتابه تاريخ مصر، وفي الصفحتين 142، 143 من الترجمة العربية، إذ يقول بريستد بأن أبناء يعقوب كانوا على أصح الاحتمالات عرباً تابعين لإمبراطورية الهكسوس[24].

إن هذه الأقوال والآراء لا تنفي أن موسى نفسه، كان من ذرية إبراهيم عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: "وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ" الأنعام: 84، ولكن غالبية القوم الذين خرجوا معه لا ينتسبون إلى هذه الذرية.

وهي أيضاً لا تنفي أن الله كلف موسى لأن يبلغ فرعون، كي يرسل معه بني إسرائيل الذين كانوا في مصر مستضعفين: "وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ" الأعراف: 104-105.

إلاّ أن هذه الآراء تخالف ما جاء في التوراة التي ذكرت بأن عدد الذين خرجوا مع موسى كان 600,000، وهو عدد مبالغ فيه كثيراً، وأن هؤلاء الخارجين لم يكونوا جميعاً من الإسرائيليين، فقد كان معهم كثير من المصريين الهاربين من بطش فرعون. وبعضهم كان لا يزال متعلقاً بالديانة الفرعونية آنذاك التي تقدس العجل "أبيس" بدليل قيام السامري بصنع العجل من الحلي بعد غياب موسى للقاء ربه. وكلمة السامري تعني الغريب.

نختتم هذا الفصل أخيراً بما ورد في كتاب The Bible: Unearthed لمؤلفيه اليهوديين الذين سبق وذكرناهما، وهما: إسرائيل فنكلشتاين ونيل سلبرمان، والأول أستاذ الآثار بجامعة تل أبيب، والثاني يعمل مديراً للتفسير التاريخي بمركز إينام Ename للآثار العامة والتراث في بلجيكا. وقد صدر كتابهما عام 2002م.

يجيب المؤلفان عن سؤال طرحاه: من هم الإسرائيليون؟ ويقولان ما يلي[25]:

"في ستينيّات وسبعينيّات القرن الماضي ظهرت نظرية عن أصل الإسرائيليين، وكان أول من وضعها جورج مندنهال G. Mendenhall، وهو عالم متخصص في الكتاب المقدس اليهودي، (العهد القديم). وقد طوّر هذه النظرية فيما بعد، نورمان جتوالد N. Gottwald، وهو مؤرخ توراتي ومتخصص في علم الاجتماع.

ملخص هذه النظرية: بأن الإسرائيليين الأوائل لا علاقة لهم بيعقوب عليه السلام، ولم يكونوا جماعات مرتحلة تسللت إلى أرض كنعان (فلسطين)، وإنما كانوا فلاحين ثائرين هربوا من المدن الكنعانية، ولجأوا إلى المناطق الجبلية الخالية من السكان. وقد استند هذان العالمان - مندنهال وجتوالد - في صياغة هذه النظرية على شواهد وإثباتات حصلا عليها في الوثائق المصرية (الفرعونية)، وبالأخص سجلات تل العمارنة الشهيرة، مفادها: أن الكنعانيين في العصر البرونزي المتأخر كانوا يشكلون مجتمعاً طبقياً – أي على هيئة طبقات ذات منازل ومستويات مختلفة، مما أدى إلى وجود توتر بين هذه الطبقات لعدم وجود عدالة بين المستويات المختلفة، وتباين في الأوضاع الاقتصادية. فالطبقة العليا، أو النخبة هي التي سيطرت على الأرض والثروة والتجارة، بينما كان الفلاحون في القرى، محرومين من الثروة ومن

الحقوق، وبتدهور الأوضاع، وزيادة الأحوال سوءاً في أواخر العصر البرونزي المتأخر في المجتمع الكنعاني عانى الناس من الضرائب الباهظة، ومن سوء المعاملة من ملاك الأراضي، ومن مضايقات السلطات المحلية، ومن السلطات المصرية المهيمنة على أرض كنعان آنذاك، فأصبح الوضع لا يطاق.

وبناء على هذه الأوضاع المتردية، في المجتمع الكنعاني، فإن النظرية تقول: بأن كثيراً من الناس المقهورين، والذين شعروا بالظلم، ولم يطيقوا تحمله، تركوا أوطانهم، وغادروا ديارهم، وبحثوا عن مناطق أخرى، وبخاصة المناطق الجبلية الخالية من السكان، حيث استطاعوا تأسيس مجتمع أكثر عدالة وأقل طبقية، وأخف شدة. وبعملهم هذا أصبحوا إسرائيليين وبعضهم فضل العيش على حافة المجتمع الكنعاني يعيشون على النهب والسلب، ويسببون المشكلات للسلطات الحاكمة، وأصبح يطلق على بعضهم لقب أبيرو أو عبيرو Apiru.

وسنبحث في أمر هؤلاء العبيرو في الفصل التالي والخاص بالعبرانيين.

هذه النظرية – إذن – تعتقد بأن الإسرائيليين، هم كنعانيون، ولا علاقة لهم بيعقوب الذي تدعي التوراة أنه هو إسرائيل، كما سبق القول. وإذا كانت النظرية قد وضحت لنا أصل الإسرائيليين، إلاّ أنها لم تبين لنا من أين جاءت تسمية الإسرائيليين؟، وهل هذه التسمية جاءت من المجموعات الصغيرة من الناس الذين جاءوا من مصر واستقروا في الأراضي المرتفعة التي التجأ إليها – كما قلنا – المظلومون؟.

وتقول النظرية: إن هؤلاء المظلومين الساخطين الفارين من المجتمع الكنعاني

الطبقي، قد يكونون تأثروا بأفكار تلك المجموعات البشرية القليلة القادمة من مصر، وبخاصة من حيث الدين وإيمانهم بالوحدانية، مثلهم في هذا مثل الذين تأثروا بثورة الوحدانية في عهد الفرعون أخناتون في القرن الرابع عشر ق.م. وهذه المجموعة الجديدة ربما كوّنت النواة، التي تشكّل حولها المستوطنون الجدد في المرتفعات. ولذلك فإن نشأة الإسرائيليين الأوائل كان على شكل ثورة اجتماعية، قام بها المحرومون ضد سادتهم الإقطاعيين. وقد زاد قوتهم أولئك القادمون الذين حملوا رؤية أيديولوجية جديدة[26].

لقد وُجِّهتْ انتقادات كثيرة لهذه النظرية لعدم وجود إثباتات آركيولوجية (آثارية) تؤيدها، كما أن كثيراً من الشواهد تبدو متناقضة معها، ومع ذلك تظل النظرية لها قيمتها. وقد تُظْهر المكتشفات الأركيولوجية في المستقبل صحَّتها، فالتاريخ دائماً في حاجة إلى المراجعة، كلما ظهرت إثباتات جديدة.

وعلى الرغم من عدم تبني إسرائيل فنكلشتاين ونيل سلبرمان للنظرية، فإنهما يدحضان رواية العهد القديم ويكذبانه وهي التي تقول: بأن بني إسرائيل غزوا فلسطين ودخلوها بقيادة يشوع تلميذ موسى وخليفته في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ويقولان: إن المسوحات الآركيولوجية، دلت على أنه حدث في ذلك القرن تحولات اجتماعية جذرية في المناطق المرتفعة من أرض كنعان وليس هناك ما يدل على حدوث غزو عنيف – كما جاء في سفر يشوع، ولا حتى تسلل مجموعة إثنية محدودة، وإنما الذي بدا أن ثورة في نمط الحياة قد حدثت في المناطق المرتفعة المخلخلة سكانياً، أي قليلة السكان في الماضي، في المنطقة المسماة يهودا في الجنوب، وحتى تلال السامرة في الشمال، وبعيداً عن المدن الكنعانية التي كانت تمر في مراحل

الانحطاط والتفكك[27].

ويستطرد المؤلفان القول بأن الإسرائيليين الأوائل ظهروا حوالي عام 1200 ق.م رعاةً وزراعاً في المناطق التلالية من أرض كنعان، وكانت ثقافتهم بسيطة، ويعيشون حياة الكفاف.

يتساءل المؤلفان: ولكن من أين جاء الإسرائيليون الأوائل؟ ويجيبان بالقول: إنه على عكس ما جاء في العهد القديم، فإن ظهور إسرائيل المبكرة كان نتيجة انهيار الثقافة الكنعانية، وليس سببها، ذلك أن معظم الإسرائيليين لم يأتوا من خارج أرض كنعان، ولكنهم انبثقوا منها. لم يكن هناك خروج كبير من مصر، ولم يكن هناك فتح أو غزو بالعنف، كما جاء في العهد القديم. وإن غالبية الذين تكونت منهم إسرائيل المبكرة كانوا سكاناً محليين، أي من أرض كنعان ذاتها، إنهم ذات الناس الذين كانوا في الأراضي المرتفعة في عصري البرونز والحديد. وإنه لمن سخرية السخريات irony of ironies القول بأن الإسرائيليين الأوائل كانوا في حقيقة أمرهم كنعانيين أصلاء[28].

إن ما قاله هذان المؤلفان يؤيد جانباً من نظرية "مندنهال" و"جتوالد" سابقة الذكر، إلا أنّهما يعتقدان بوجود إسرائيليين ينتسبون إلى إسرائيل الذي هو في الأصل يعقوب، كما تقول التوراة، ولكنهما يخالفان التوراة في أشياء كثيرة، منها تاريخ الخروج من مصر، وأن هذا الخروج لم يكن كبيراً، وما كان على شكل غزو واحتلال بالعنف والقوة.

وعلى الرغم من هذا التشكك في حقيقة كل من اليهود والإسرائيليين الذي

يبديه علماء توراتيون وآركيولوجيون، نجد أشخاصاً منا يصرّون على الإيمان بأن إسرائيل هو يعقوب، ويخلطون بين: يهودي وإسرائيلي، ويعتقدون أنهما مسميان لشيء واحد، أو وجهان لعملة واحدة. فحينما نَشَرْتُ مقالات، تناولت هذا الموضوع، في إحدى الصحف الأردنية، نشر أحد الكُتّاب بعنوان: إسرائيل المعاصرة في القرآن الكريم اتهمني فيه بالخلط والإساءة للدين، قال فيه:

"هيج الخاطر إلى كتابة هذا المقال بعد طول انقطاع عن الكتابة ما ظهر في الأشهر الأخيرة من مقالات في الصحافة الأردنية اليومية والأسبوعية حول المسألة الإسرائيلية. وقد كان في بعض المقالات خلط كبير وإساءة للدين من حيث ظن أصحابها أنهم يدافعون عن مقدسات الأمة.

ولا شك بإخلاص هذا البعض وحسن نواياه. ولكن الإخلاص لا يجيز لنا مجانبة الحقيقة ولا اتهام الآخرين بما ليس فيهم حقاً إنهم أعداؤنا وإنهم ظالمون. ولكننا أمة عظيمة كانت دائماً إلى جانب الحق. وليس يضيرها أو يضيّع حقها أن يكون لأعدائها بعض الخصائص الحميدة...وكذلك هي دولة إسرائيل التي تضم في جنباتها أبناء يعقوب بن إسحق تقوم الآن على أرض فلسطين لحكمة أرادها الله. ولكن حتى إن كان فيها بعض خير يكفي لبقائها مدة من الزمن، لا بد أن تنتهي كما تشير سورة الإسراء التي وعدت بقيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين".

وقد واصل الكاتب مقاله الذي يتبنى فيه الطروحات اليهودية قائلاً: "وبقي سؤال يثيره منذ عقود مفكرون وعلماء عرب كبار وهو: هل اليهود المحتلون لفلسطين حالياً هم بنو إسرائيل؟ ولهذا السؤال أسبابه النفسية التي قد نتعرض لها

لاحقاً. ولكن الجواب المباشر واعتماداً على القرآن الكريم: نعم، إن غالبية اليهود الموجودين على أرض فلسطين الآن هم من بني إسرائيل، مثلما أن معظم الإسرائيليين الذين دخلوا فلسطين من بعد وتحت قيادة يوشع بن نون كانوا إسرائيليين ومعهم بعض المصريين الذين آمنوا بموسى مثل السامري صاحب العجل".

إذا كان هذا الكاتب قد اتهمني بالخلط، فإنه أولى بهذا الاتهام، لأنه خلط بين مفهومين أو مسميين مختلفين وهما: يهودي وإسرائيلي. وقد ناقشنا ذلك فيما سبق، واستشهدنا بباحثين وعلماء، منهم يهود، أكّدوا بأن اليهود الأوروبيين الذين أسسوا دولة إسرائيل، ويشكلون اليوم معظم سكانها، ويمسكون بزمام السلطة والحكم فيها، لا علاقة لهم بإسرائيل الذي هو يعقوب، كما جاء في التوراة الحالية، المشكوك في رواياتها أصلاً كما سبق القول، فهل يريد هذا الكاتب أن يكون في قوله هذا أكثر من اليهود في يهوديتهم؟. وهو يقول: إنه اعتمد في ذلك على القرآن الكريم وهذا غير صحيح لأن القرآن لم يقل بأن إسرائيل هو يعقوب. وقد تناولنا هذه النقطة سابقاً. ولو قال إنه اعتمد على كتب التفسير لما أخطأ، وقد ذكرنا بأن كثيراً من الإسرائيليات دخلت في كتب التفسير وفي الفكر والتاريخ الإسلامي.

لذلك فإننا نكرر ما قلناه بضرورة تنقية كتب التفسير، والفكر، والتاريخ الإسلامي، وحتى تاريخنا القديم من الإسرائيليات التي لا تزال تعشعش في عقول الكثيرين منا. وهذه مهمة المؤرخين وعلماء الدين المتنورين الذين ندعوهم للقيام بواجباتهم ومسؤولياتهم، مثلما قام بها، من قبل، مؤرخو الكتاب المقدس اليهودي المحدثون، وعلماء الآثار والتاريخ القديم في الغرب. ومنهم كيت وايتلام Keith

Whitelam الذي وجه لوماً للمؤرخين العرب، لأنهم لم يحرروا تاريخهم القديم من الروايات الإسرائيلية، وأشاد بالمؤرخين الهنود الذين حرروا تاريخهم من الأكاذيب والأغلاط، حينما خضعت بلادهم للاستعمار البريطاني(29).

الخلاصة:

لا شك في أن الآراء متضاربة ومتعارضة فيما يتعلق بحقيقة إسرائيل. ويمكننا تلخيصها وإجمالها فيما يلي:

1. هناك من يؤخذ بصحة رواية التوراة التي مفادها أن اسم يعقوب قد تغير وأصبح اسمه إسرائيل. ومن الذين أيدوا ذلك مؤرخون اعتمدوا على التوراة مصدراً تاريخياً موثوقاً، وكذلك مفسرو القرآن الكريم الذين تأثروا بالإسرائيليات.

2. على عكس هؤلاء فإن هناك من يطعن في ذلك، ويرى بأن إسرائيل ليس يعقوب عليه السلام، وإنما هو رجل صالح، أو نبي من أنبياء الله الكثيرين الذين أرسلهم الله لهداية البشر. وأنا أميل إلى هذا الرأي، ولا أملك الدليل لترجيحه، إلا القول بأن القرآن الكريم لا يربط بين يعقوب وإسرائيل رغم ورودهما في كثير من الآيات. كما أن الآركيولوجين يشككون في صدقية التوراة تاريخياً ويقولون: بأنها مليئة بالأساطير. وسنناقش هذه النقطة في مكانها المناسب من الكتاب.

3. هناك من يعتقد بأن الإسرائيليين الأوائل هم من الكنعانيين المظلومين والمقهورين الذين نزحوا عن ديارهم هرباً من بطش السلطة الحاكمة والتجأوا إلى الأراضي الجبلية الخالية من السكان تقريباً. وأن قسماً منهم شكّل عصابات تهاجم السلطة، وتقطع الطرق، وتعيش على النهب والسلب.

وأصحاب هذا الرأي ينفون ما جاء في التوراة بأن بني إسرائيل خرجوا من مصر على شكل حملة عسكرية، واحتلوا أرض كنعان بالقوة، وفرضوا سلطانهم بالتدريج على جميع الأراضي.

وعلى أية حال فإن النقاش وتباين الآراء، واختلاف الاجتهادات، أصبحت تشكل موضوعاً جدلياً وخلافياً سيظل مفتوحاً إلى أن تظهر حقائق علمية وآركيولوجية ذات مصداقية كبيرة. ويبدو أن هذا الجدل، والنقاش، وتباين الآراء، كان نتيجة الطعن في مصداقية العهد القديم، أو ما يسمى بالكتاب المقدس اليهودي The Jewish Bible، وبخاصة من علماء بارزين تخصصوا في هذا الكتاب وهم الذين يطلق عليهم The Biblical Historions. وسنتناول هذا الموضوع في الفصل الخامس من الكتاب. وفي الوقت نفسه أثبت عدد من العلماء الآركيولوجيين (الآثاريين)، ومن بينهم يهود، أن الحفريات التي قاموا بها تتعارض مع الروايات، والأحداث التاريخية الواردة في التوراة والعهد القديم الذي يشمل التوراة والأسفار الأخرى.

المراجع

1. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الثاني والثلاثون، 23–29.
2. المرجع نفسه، الإصحاح الخامس والثلاثون، 9–15.
3. المرجع نفسه، الإصحاح السابع عشر، 5–24.
4. عبد العزيز الخياط، مرجع سابق، ص23–45.
5. أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، الطبقة الحادية عشرة، بيروت، 1975، ص160–161.
6. الطبري، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص190–192.
7. المرجع نفسه، ص192، 193.
8. أحمد أمين، مرجع سابق، ص161.
9. علي نصوح الطاهر، قصة خلاف الملأ الأعلى على خلق الإنسان، مراجعة عبد العزيز الخياط ومحمود عواد، الدار المقدسية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، 2005.
10. عبد العزيز الخياط، مرجع سابق، ص39–41.
11. كمال الصليبي، مرجع سابق، ص195.
12. أحمد نسيم سوسة، مرجع سابق، ص65.

13. الموسوعة الفلسطينية، الجزء الأول، ص238.

14. محمد أديب العامري، عروبة فلسطين في التاريخ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1972، ص79.

15. شفيق الخليل، مرجع سابق، القبس العدد 5636، الخميس 21/ 1/ 1988، الحلقة الرابعة.

16. المرجع نفسه.

17. المرجع نفسه، القبس العدد 5643، الخميس 28/ 1/ 1988، الحلقة الخامسة.

18. غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، تعريب عادل زعيتر، مطبعة حجازي، من دون تاريخ ولا ناشر، ص33.

19. الكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح الثاني عشر، 27–29.

20. Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman, The Bible, unearthed, Simon and Schuster, New york 2001, p.62.

21. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص459.

22. المرجع نفسه، ص460–461.

23. المرجع نفسه.

24. المرجع نفسه، ص462.

25. Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman. op.cit. pp. 104-107.

26. المرجع نفسه، ص104.

27. المرجع نفسه، ص107.

28. المرجع نفسه، ص108.

29. كيت وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ القديم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر/ أيلول 1999، ص33.

الفصل الثالث

العرب واليهود وخرافة القرابة

- ما كان إبراهيم يهودياً ولا إسرائيلياً.
- من إبراهيم؟ وإلى من ينتسب؟
- العرب واليهود لا يجمعهم جد واحد.

الفصل الثالث

العرب واليهود وخرافة القرابة

قلنا فيما سبق إن اليهودية لم تكن ديانة خاصة – كما يزعم اليهود – وإنما ديانة اعتنقتها أقوام وأمم شتى في أقطار العالم المختلفة، وقلنا أيضاً إن إسحق بن إبراهيم، عليهما السلام، لم يكن يهودياً، حتى يصبح جد اليهود، كما يعتقد الذين اعتمدوا على التوراة، مصدراً تاريخياً موثوقاً.

بما أن إسماعيل عليه السلام، هو الأخ الأكبر لإسحق، وأن إسماعيل هو جد العرب المستعربة[*]، فقد ظن كثيرون بأن العرب واليهود أبناء عمومة، وهذا خطأ ما زال شائعاً بين الكثيرين منا، الذين اعتقدوا بأن إسحق هو جد اليهود، فاليهودية ليست جنساً أو عِرقاً أو شعباً أو أمة كالعرب، وإنما هي ديانة انتشرت في العالم، ولم تكن موجودة قبل موسى عليه السلام، وأن إسحق عليه السلام لم يكن يهودياً، وبين إسحق وموسى نحو سبعمائة عام كما سبق أن ذكرنا.

قلنا فيما مضى أن قبائل عربية اعتنقت الديانة اليهودية، وأن اليمن في عهد

---

[*] يقسم المؤرخون العرب إلى قسمين: عاربة ومستعربة. والعاربة هم الأقحاح من نسل يعرب بن قحطان باليمن، والمستعربة هم الذين تعربوا وأصبحوا عرباً، مثل إسماعيل عليه السلام، الجد الأعلى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. فقد تزوج إسماعيل من قبيلة جرهم، وهي من العرب العاربة. وعلى أية حال فهناك من يُشكّك في هذا التقسيم، وهو موضوع شائك لا مجال لبحثه هنا.

ملكها "ذي نواس" تحولت إلى اليهودية، ولكن ليس معنى هذا أن كل اليهود اليوم عرباً. فالمسيحية والإسلام ديانتان ظهرتا – كما ظهرت اليهودية – في البلاد العربية، وانتشرتا في شتى أنحاء العالم، ولذلك لا يجوز أن نقول بأن كل عربي مسيحي، وليس كل مسيحي عربي، كما أنه ليس كل عربي مسلم، ولا كل مسلم عربي. وبناء عليه فإنه من الخطأ القول بأن العرب واليهود يجمعهم جد واحد أو أصل مشترك، اللهم إلاّ اليهود الذين تناسلوا من قبائل عربية اعتنقت اليهودية. أمّا الأقوام والأمم والشعوب التي تهودت في آسيا، كالهند مثلاً، وفي إفريقية، كإثيوبيا مثلاً، وفي أوروبا بأقطارها المختلفة، فلا قرابة بينهم وبين العرب على الإطلاق.

من إبراهيم؟

أما فيما يتعلق بالإسرائيليين، وهو كما قلنا سابقاً مصطلح ربما يكون إثنياً إذا ثبت أنهم ينسبون إلى جد واحد هو إسرائيل، وقد بحثنا هذا الموضوع، وعرضنا آراء علماء وباحثين شككوا في أن يكون إسرائيل هو يعقوب، وهناك من أكّد بأن الإسرائيليين لا يمتون بصلة إلى يعقوب عليه السلام، كما تدعي التوراة.

قد يكون من المناسب هنا أن نبحث في أصل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم اليهود بأنه جدهم الأعلى. وكان اسمه في التوراة "أبرام". وفي الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين، تقول التوراة بأن الله غيّر اسمه ليصبح إبراهيم[1].

"ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً. فاجعل عهدي بيني وبينك وأُكثِّرك كثيراً جداً. فسقط أبرام على وجهه. وتكلم الله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا

لجمهور من الأمم. **فلا يُدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم**" .

وفي الوقت نفسه، تذكر التوراة[2]:

"وقال الله لإبراهيم، ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي، بل اسمها سارة" .

إذا كان لنا من تعليق على ذلك، فنتساءل عن الحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى من تغيير هذين الاسمين، وبخاصة بعد أن بلغ إبراهيم وزوجته سناً كبيراً جداً، لا يُعقل أن يحدث فيه تغيير للأسماء إن كانت هناك ضرورة لذلك. وإذا كانت هناك حكمة أو هدف من هذا التغيير فلماذا لم تذكرها التوراة؟

إن القرآن – وهو كتاب مقدس – لم يرد فيه ذكر شخص اسمه أبرام، ولم يقل لنا بأن إبراهيم كان اسمه قبل ذلك أبرام، وكذلك الأناجيل الأربعة لم تذكر أبرام وإنما ذكرت إبراهيم، ففي ذكر نسب المسيح عليه السلام، ورد في إنجيل متى أن المسيح يعود نسبه إلى إبراهيم عليه السلام[3].

إبراهيم في التوراة:

تقول التوراة بأن سام بن نوح عليه السلام، هو الجد الأعلى لإبراهيم عليه السلام، وأن – إبراهيم – خرج مع والده تارح وابن أخيه لوط بن هاران وزوجته ساراي من أور الكلدانية إلى أرض كنعان، فأتوا حاران وأقاموا هناك، ومات والده في حاران. وذهب أبرام ومن معه بأمر الرب إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة، وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض وظهر

الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض[4].

وتقول التوراة أيضاً أن سام بن نوح كان له خمسة أبناء أحدهم آرام جد الآراميين، ومنهم أرْفكشاد وهو جد عابر الذي تحدر منه العبرانيون وإليه ينتسب إبراهيم، وكان لعابر ابنان هما: فالج ويقطان الذي تحدرت منه قبائل اليمن، ومنها شبا – أي سبأ – وحضر موت[5].

يتضح من قول التوراة بأن جميع هذه القبائل عبرانية، على اعتبار أنها تحدرت من الجد عابر، وهذا ما سنناقشه حين الكلام عن العبرانيين.

هل كان إبراهيم عربياً؟

إن الذين زعموا بانتساب اليهود إلى إبراهيم عليه السلام، اعتمدوا على التوراة مصدراً وحيداً، ولم نجد في كتب التاريخ التي اطلعنا عليها ما يشفي غليلنا عن نسب إبراهيم وأصله، وحتى القرآن الكريم لم يبين لنا ذلك، ونحن لا نتوقع من القرآن أن يكون كتاباً في التاريخ أو الأنساب. لقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في ثلاث وسبعين آية في القرآن من دون أن تبين نسبه وأصله، منها ست آيات فقط ذكرت تردده على البيت الحرام بمكة المكرمة بعد أن أسكن في واديها من نسله، وهو إسماعيل عليه السلام، منها قوله: "رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ" إبراهيم: 37.

إن هذا التردد الدائم، وهذه الزيارات المتكررة للبيت الحرام وللأهل في مكة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن إبراهيم كان يقيم في تلك الفترة غير بعيد عن

مكة وفي شبه الجزيرة العربية، وليس في أرض كنعان كما زعمت التوراة. صحيح أن إبراهيم دُفن في مدينة حبرون وهي الخليل الواقعة في أرض كنعان (فلسطين)، وهذا يدل على أن إبراهيم هاجر إلى فلسطين كما هاجر عرب قبله وبعده خارجين من شبه الجزيرة العربية ومتجهين إلى العراق وبلاد الشام، وهي الهجرات التي تحدث عنها المؤرخون في كتبهم، وكان ذلك قبل الإسلام بآلاف السنين.

نحن نرجح ما توصل إليه الباحث أحمد سوسة: بأن إبراهيم كان من العرب البائدة(6) التي وردت أسماؤها في كتب التاريخ، كتاريخ "ابن خلدون"، وهم: عاد وثمود وطسم وجديس وأُميم، وعُبيل، وعبد ضَخْم جُرهم وحضرموت وحَضورا والسلْفات(7).

لقد ورد ذكر بعض قبائل العرب البائدة في القرآن الكريم، مثل عاد والرس وثمود التي أبادها الله بوسائل نسميها اليوم كوارث طبيعية، منها الزلازل والبراكين والفيضانات والرياح والأعاصير. ويذكر القرآن الكريم كيف أباد الله قوم عاد الذين أرسل إليهم نبيه هود فلم يصدقوه: "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ" الحاقة: 6-8. أمّا قوم ثمود فأهلكهم الله بالصاعقة: "وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ" الذاريات: 43-44.

لا قرابة عرقية بين العرب واليهود:

قلنا فيما سبق أن باحثين ومؤرخين شككوا في رواية التوراة التي تقول بأن إسرائيل هو يعقوب، وقالوا بأن الذين خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام، لم يكونوا كلهم من بني إسرائيل، ولا صلة عرقية تربطهم بالأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام، وإنما كان فيهم عدد كبير من المصريين الذين آمنوا بموسى، ومن بينهم السحرة الذين صدقوا موسى بعد أن ألقى عصاه فلقفت ثعابينهم الموهومة. ويصف القرآن الكريم ذلك بقوله: "فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ" الأعراف: 119–122.

وبناء عليه فإنه ليست هناك صلة عرقية تربط العرب واليهود، كما يظن البعض، وكما يعتقد الذين ما زالوا يستقون معلوماتهم من التوراة.

يقول القرآن الكريم: بأن الله أمر موسى عليه السلام بأن يدخل وقومه الأرض المقدسة: "يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ" المائدة: 21، وهي أرض غريبة عليهم لم يطأوها من قبل، وليس لهم بها أية علاقة، فقد قالوا لموسى: "قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ" المائدة: 22.

لم يقل القرآن الكريم أن الأرض المقدسة هي أرض كنعان (فلسطين) كما تدعي التوراة، كما لم يحدد القرآن موقعها الجغرافي، فالقرآن ليس كتاباً في الجغرافية،

وهو يورد القصص للعبرة والعظة، ليتعظ الناس ويؤمنوا بالله الواحد الأحد، وبنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم. ولقد أخطأ بعض مفسري القرآن الذين تأثروا بالإسرائيليات حينما قالوا: بأن الأرض المقدسة هي فلسطين، وفي تفسيرهم قوله تعالى: " وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ" البقرة: 58، أقول أخطأوا لأنهم قالوا بأن المقصود بالقرية بيت المقدس بفلسطين، من دون أن يعتمدوا على سند علمي، وإنما اعتمدوا على التوراة، ولذلك نَعُدَّ هذا من الإسرائيليات.

نظراً لعدم تحديد الأرض المقدسة جغرافياً وموقعها الحقيقي على اليابسة، فقد اختلف الباحثون حول مكانها. وقد سبق أن ذكرنا بأن الدكتور كمال الصليبي قال بأن اليهود لم يقيموا كيانهم في فلسطين، وإنما أقاموه في شبه الجزيرة العربية، وعلى مقربة من اليمن.

أمّا الدكتور عبد العزيز الخياط فيرى غير ذلك، ويعتقد بأن موسى عليه السلام توجه من مدينة طيبة (مدينة الأقصر حالياً في صعيد مصر) إلى البحر الأحمر هرباً من فرعون مصر آنذاك "منفتاح بن رعمسيس الثاني" الذي كان مقره مصر العليا، أي الصعيد، ولما رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة التي اختلف المؤرخون في تحديد موقعها الجغرافي – كما قلنا – ظلوا أربعين عاماً في التيه، فمات في هذه الفترة موسى وأخوه هارون(8).

ويقول الدكتور عبد العزيز الخياط أيضاً بأن الأماكن الوارد ذكرها في القرآن

في عهد سليمان، مثل وادي النمل وسبأ وعين القطر وأصحاب الأخدود في اليمن وليست في فلسطين، وأن قصة سليمان مع بلقيس – كما سبق ذكره – تؤكد على وجود سليمان في اليمن وليس في فلسطين، لأن المسافة بين اليمن وفلسطين بعيدة جداً[9]. فهدهد سليمان – كما جاء في القرآن والذي هدده بالعذاب لغيابه أو بذبحه، ورد ما نصه: "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ" النمل: 22.

خلاصة القول أن اليهود استخدموا التوراة وكتبهم المقدسة التي كتبها حاخاماتهم لإثبات مزاعمهم بالادعاء بأن لهم حقاً تاريخياً ودينياً في فلسطين، وهذا ما نفاه ودحضه بعض مؤرخي التوراة الغربيين أمثال البروفيسور كيت وايتلام في كتابه المشهور الذي سبقت الإشارة إليه وعنوانه: اختلاق إسرائيل القديمة...إسكات التاريخ الفلسطيني. وبناء عليه سنخصص فصلاً خاصاً في الكتاب لذكر ما قيل من تزوير في كتب اليهود المقدسة، وما تحويه من أساطير وخرافات. وسنكتفي هنا باقتباس ما كتبه الدكتور أحمد سوسة حول بعض أهداف كتبة التوراة الذين أرجعوا نسب اليهود إلى إبراهيم عليه السلام، فهو يقول[10]:

"ومن الواضح أن أهم ما كان يهدف إليه كَتَبَةُ التوراة عندما أخذوا بتدوينها بعد عهد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف وثلاثمائة عام، وبعد عهد موسى بسبعمائة عام، هو إرجاع نسب بقايا الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة النبي موسى – ومُدونو التوراة هم أنفسهم من بقايا هذه الجماعة – إلى إبراهيم الخليل بغية إرجاع أصلها المجهول إلى أقدس العروق من الأجناس البشرية، ثم تثبيت عقيدة الأرض

الموعودة الوهمية على لسان إبراهيم وموسى وهما بريئان منها. واندفاعاً وراء تحقيق هذا الهدف ربط مدونو التوراة هذه الجماعة مباشرة بإبراهيم الخليل وبحفيده يعقوب (إسرائيل)[*] لكي ترفع من مكانتها بين البشر، وتجعل منها الشعب المختار، وذلك من غير أن تتطرق إلى الفاصل الذي يفصل بين جماعة موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبين جماعة إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب في القرن التاسع عشر والسابع عشر قبل الميلاد على التوالي، وهو الفاصل الذي يمتد سبعمائة عام بين عهد إبراهيم وعهد جماعة موسى".

الخلاصة:

يزعم اليهود بأن إبراهيم عليه السلام، جدّهم الأعلى. ومن ابنه إسحق وحفيده يعقوب عليهما السلام تناسلوا. وقد أشاعوا ذلك في العالم، معتمدين في هذا على توراتهم المحرفة التي – للأسف – اتخذها المؤرخون مصدراً موثوقاً. وقد انطلى ذلك علينا – نحن العرب والمسلمين – وصدّقنا بأننا واليهود، أبناء عمومة، لأن إسماعيل عليه السلام، جد العرب المستعربة، الأخ الأكبر لإسحق عليه السلام.

إن اليهودية ديانة لم تكن معروفة قبل موسى عليه السلام، وأن المدة الزمنية بينهما تبلغ نحو سبعمائة عام. ولذلك لم يكن إبراهيم وإسحق ويعقوب، عليهم السلام، يهوداً: "وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ

---

[*] يعتقد أحمد سوسة أن يعقوب هو إسرائيل، ولذلك وضعنا إسرائيل بين قوسين حتى لا يظن القارئ أننا نتفق معه على ذلك.

ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" البقرة: 132. وقوله سبحانه وتعالى: "مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ" آل عمران: 67 آية.

هذا من الناحية الدينية، أمّا من حيث العرق والأصل، فالراجح لدينا أن إبراهيم، عليه السلام، كان من العرب البائدة، مثل طسم وجديس وعاد وثمود. وكان موطنه شبه الجزيرة العربية، غير بعيد عن مكة المكرمة، التي كانت – كما جاء في القرآن – بوادٍ غير ذي زرع، وفيها أبقى ولده إسماعيل وأمه هاجر، وكان يزورهما، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، ومنها رؤيته في المنام أنه يذبحه، والتي تدل على قرب المسافة بين الأب وابنه. أمّا هجرة إبراهيم إلى مدينة "حبرون" الكنعانية بفلسطين، والتي اسمها اليوم "الخليل" فقد تمت في وقت لاحق.

المراجع

1. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر، 1–8.

2. المرجع نفسه، 15–17.

3. إنجيل متى، الإصحاح الأول، 1–16.

4. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاحين الحادي عشر والثاني عشر.

5. المرجع نفسه، سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

6. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص69.

7. تاريخ ابن خلدون، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 2006، ص24.

8. عبد العزيز الخياط، مرجع سابق، ص76–81.

9. المرجع نفسه.

10. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص454.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

العبرانيون

- العبرانيون ليسوا يهوداً كما أشاع اليهود.
- عبور نهر الفرات، أسطورة.
- مَنْ العبرانيون؟ ومن أين جاءت التسمية.
- كان اليهود القدماء يتكلمون اللغة الآرامية.
- السامية كذبة اختلقها مؤرخ صهيوني استوحى فكرتها من التوراة.

الفصل الرابع

العبرانيون

يتعمد اليهود دائماً، وكعادتهم، خلط المفاهيم والمصطلحات والمسميات التي يدعون أنها تخصهم وحدهم دون سواهم. وقد ذكرنا سابقاً خلطهم بين مسميين هما: يهودي وإسرائيلي، ويزعمون بأنهما مسميان لشيء واحد، أشبه بوجهي العملة الواحدة. وقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع ودحضنا فيه مزاعم اليهود وادعاءاتهم وبطلانها.

وهم يضيفون إلى مسمياتهم إسماً آخر، وهو عِبْري أو عِبْراني ويصرون قائلين: بأنهم عبرانيون. وعلى هذا الأساس سموا لغتهم اللغة العبرية، على نحو ما نسمي لغتنا، اللغة العربية.

وللأسف فقد انطلت هذه الفرية أو الكذبة على العالم، بما فيه نحن، وذكرت الكتب والمراجع والمعاجم الأجنبية مثل قاموس أكسفورد، وقاموس وبستر Webster الشهيرين تفسر كلمة Hebrew بمعنى: إسرائيلي، يهودي، اللغة العبرية لليهود. ونحن بدورنا نقلنا ذلك عنهم من دون تدقيق أو تمحيص.

ربما يكون من الأهمية بمكان أن نناقش في هذا الفصل كلمة عِبْري أو عِبْراني ونحللها ونتعرف أصلها، ومتى استخدمت لأول مرة. وهل هي اسم لشخص؟

تحدّرت منه وتناسلت جماعة أو شعب سُموا العبرانيين، كما تزعم التوراة، وكما يريد اليهود تثبيت ذلك في عقول الناس. أم أنَّ الكلمة ليست اسماً، وإنما هي صفة أُطلقت على جماعة أو جماعات، أو قوم أو أقوام، بسبب تحركاتهم وعدم استقرارهم في مكان، أو قيامهم بأعمال خاصة ومناشط محددة؟.

ولقد ثار جدل كثير – ولا يزال – حول كلمة عبري أو عبراني ودلالاتها واستخداماتها، وعلى من أُطلقت.

من اطلاعنا على الإصحاح العاشر من سفر التكوين، وهو أول سفر من أسفار التوراة الخمسة، نستنتج أن كلمة عبري أو عبراني أُطلقت، لأول مرة، على إبراهيم الذي كان اسمه آنذاك أبرام، كما ذكرنا ذلك في الفصل السابق. وقلنا بأن التسمية منسوبة – كما جاء في السفر نفسه – إلى جده الأعلى عابر من سلالة نوح. كما وردت كلمة عبراني في الترجمة العربية للتوراة سبع عشرة مرة.

لقد ظهرت إشكالات كثيرة من تلك النصوص التوراتية الخاصة بكلمة عبراني، ولا تزال موضع بحث ودراسات عديدة، وبخاصة بحوث ومؤلفات: مؤرخي العهد القديم، أو الكتاب المقدس اليهودي.

وقد يكون من المفيد، قبل البحث عن عابر وحقيقة الانتساب إليه، أن نوضح مصطلح السامية المنسوبة إلى سام بن نوح جد عابر، لنتعرف ما تسببه هذه التسميات أو المصطلحات من مشكلات كثيرة، وما تحققه من أهداف تخدم اليهود. وللأسف أصبحنا نحن اليوم من ضحايا هذه المصطلحات. فاليهود احتكروا هذه التسمية المختلقة، وصاروا يطلقون كلمة "لا سامية" على كل من يعارض اليهود،

ويهاجم الصهيونية، وينتقد جرائم إسرائيل في فلسطين والبلاد العربية.

كان النمساوي "أوجست لودفيج شلوتر" أول من ابتدع كلمة السامية في عام 1781م، مستخدماً مصطلح الأقوام السامية، مدعياً أنها جماعات تحدرت – كما جاء في التوراة – من سام بن نوح. وقد أطلق على لغاتهم تسمية اللغات السامية.

وقد اعترض بعض الباحثين على ذلك، وقالوا بأنها تسمية غير حقيقية، وأن الأصح استخدام مصطلح أقوام شبه الجزيرة العربية، وذلك تجنباً وابتعاداً عن الأعراق والأنساب المشكوك فيها، وتلافياً للعنصرية البغيضة. وقالوا إنَّ الأهم هو إبراز بيئة شبه الجزيرة العربية التي طبعت الأقوام التي عاشت فيها بطابع خاص ومميز.

ونحن نضيف إلى ذلك قائلين بأن ما ورد في التوراة عن تسلسل الخلق من آدم إلى نوح، ومن نوح حتى إبراهيم ونسله من بعده، ويعقوب وما نَسَلَ عنه من ذرية...الخ مشكوك فيه، لعدة أسباب منها: أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل كتبه السماوية كتباً في التاريخ والأنساب والجغرافية، فهي كتب هداية قبل كل شيء، وإذا تعرضت هذه الكتب لِسِيَرْ الأمم الغابرة، فهي على شكل إشارات هدفها العظة والعبرة وأخذ الدروس، وتحذير الناس من غضب الله إذا لم يعملوا بما أوصاهم به، ويجتنبوا عما نهاهم عنه، ولم يسمعوا كلام رسله وأنبيائه.

كما أن الأسباب الأخرى التي تجعلنا نشكك في شجرة الأنساب المذكورة في التوراة، أن التوراة، وبناء على دراسات وبحوث قام بها علماء مختصون، سنأتي على ذكرهم فيما بعد، لم تُكتب في عهد موسى، كما يدعي اليهود، وإنما كُتبت في السبى البابلي، أي بعد وفاة موسى بنحو سبعمائة عام، كما سبق أن قلنا، فما بالك

بتسلسل البشر بعد آدم؟ إن هذا أمرٌ من الصعب قبوله وتصديقه.

وأخيراً نتساءل: بأي حق يحتكر اليهود السامية، ويوهمون العالم بأنهم هم وحدهم من نسل سام بن نوح؟. ولماذا سكت كتّاب ومثقفون غربيون يؤمنون بما جاء في التوراة على ذلك؟ فالسامية، وبناء على نصوص التوراة، وفي الإصحاح العاشر من سفر التكوين سابق الذكر، تنطبق على نسل سام وحفيده عابر الذي تحدرت منهم أقوام منها: سبأ وحضرموت، وهي عربية. وفي سلطنة عُمان أسماء لمواقع تحمل أسماءً تاريخية مثل بلدة "عبري" إلى الشرق من مدينة نزوى في وسط البلاد.

وفي الوقت نفسه تنطبق هذه التسمية السامية، كما جاء في النصوص التوراتية على إبراهيم وذريته وهم: إسماعيل من زوجته هاجر، وهو الجد الأعلى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأبنائه الستة من زوجته الكنعانية قطورة المذكورة أسماؤهم في التوراة (الإصحاح 25 من سفر التكوين).

بعد هذا العرض السريع نعود إلى استكمال تسمية العبرانيين وأصلها ودلالاتها. وقد يكون من المفيد أن نعرض آراء بعض مشاهير الباحثين في هذا الموضوع، ونبين ملخص ما توصلوا إليه من نتائج.

رأي كمال الصليبي:

للدكتور كمال الصليبي، في كتابه التوراة جاءت من جزيرة العرب سابق الذكر، والذي أثار جدلاً شديداً وتعليقات وردوداً كثيرة، آراء مميزة عن غيره من العلماء والباحثين، فهو يعتمد على اللغة في تفسيره لكلمة عبري. ويبدأ تحرياته

بالسؤال: من العبرانيون؟ وكيف لنا أن نعرف شيئاً عنهم؟. وبعد هذا التساؤل يجيب قائلاً[1]: "ليست لدينا في الأمر إلا وسيلة واحدة، وهي التحليل اللغوي للاسم عبر، الذي منه اسم ألْـ عِبْريم، أي العبرانيين. والرأي السائد هو أن عبر، بالعبرية، يقابله بالعربية الجذر الفعلي عَبَرَ بمعنى قطع، أي انتقل من جهة إلى أخرى، ولعل هذا صحيح..."

وعلى أساس لغوي يحاول الدكتور الصليبي توحيد كلمات متشابهة تشترك في الدلالة منها، كلمة خافيرو المذكورة في نصوص مسمارية. وكلمة خابيرو التي وردت في رسائل تل العمارنة، وكلمة عفر المذكورة في النصوص المصرية وعفرم الواردة في نصوص أوغاريت، وهو يشكك في تفسير بعض العلماء لكلمة عبري فيقول[2]: "من العلماء من رأى بأن هذه الأسماء وكذلك اسم عبريم بالعبرية، كانت تُطلق في القدم ليس على شعب معين، أو على جماعة إثنية معينة، بل على طبقة اجتماعية منبوذة من قُطَّاع الطرق والمرتزقة والباعة المتجولين الذين يعيشون خارج إطار القانون ولا يخضعون لأية سلطة..."

وكعادته فهو يُرجع جميع التسميات الواردة في التوراة إلى أماكن ومواقع في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ليثبت بها نظريته التي تقول: إن التوراة جاءت من شبه الجزيرة العربية، وليست من فلسطين، وهي نظرية أثارت جدلاً كثيراً ووجهت إليه بسببها إتهامات عدة لا مجال هنا للخوض فيها.

ولكن لا بأس من معرفة ما توصل إليه الدكتور الصليبي حول تفسير كلمة عبري. وفي هذا يقول[3]: "ولفظة عبر نفسها منها عبري قد تدل على هذا الأمر إذا

قرئت بالغين، وليس بالعين، كما سبق ذلك أن الغبر بالعربية هو جمع الغبرة وهي الأرض الكثيرة الشجر والنبت. ومما يزيد في الترجيح بأن اسم عبر التوراتي قد يكون غبر بالغين، ومنه اسم العبرانيين بمعنى أهل الغبر أو أهل الأحراش، هو أن سفر الخروج يتحدث في ستة مقاطع عن إله العبرانيين (3: 18، 5: 3، 7: 16، 9: 1، 13، 10: 3)، باعتباره أن هذا الإله هو يهوه إله إسرائيل بالذات، وهناك اليوم في مرتفعات عسير قرية تسمى آل الغبران".

من التحليل اللغوي يستخلص الدكتور الصليبي بأن أبرام العبراني جاء من هذا المكان في الجزيرة العربية ونُسب إليه.

نحن من جانبنا نستبعد ذلك قائلين، بأن ذلك تأويل لا تحتمله اللغة، ولا يقبله المنطق، وإذا كان هو يستند على التوراة في الأسماء والمسميات، ولكنه يختلف في الأماكن التي أقام اليهود عليها ملكهم أو كيانهم السياسي، فإننا نختلف معه في أصل التسميات وفي المكان أيضاً.

رأي الدكتور أحمد سوسة:

للدكتور أحمد سوسة رأي مختلف أورده في كتابه سابق الذكر، "العرب واليهود في التاريخ"، وهو يعتقد أن الكلمة صفة التنقل والترحل وعدم الاستقرار في مكان واحد، أي بمعنى البدو الرحل، وإليك ما قاله[4]:

"عبري أو عبراني مصطلح كان يطلق في نحو الألف الثانية ق.م، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة، حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن

الصحراء وابن البادية بوجه عام. وبهذا المعنى وردت كلمة الأبري والهبيري والخبيرو والعبيرو في المصادر المسمارية والفرعونية، ولم يكن للإسرائيليين والموسويين واليهود أي وجود. لذلك فإن نعت إبراهيم الخليل بـ العبراني كما ورد في التوراة، إنما أُريد به معنى العبريين "الغبيرو"، وهم القبائل البدوية العربية، ومنها القبائل الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل نفسه، وبهذا المعنى وردت كلمة عبري وعبيرو في الكتابات القديمة التي اكتشفت مؤخراً، وهي تعود إلى ما قبل وجود الإسرائيليين واليهود بعدة قرون".

يستطرد أحمد سوسة قائلاً[5]:

"لذلك يجب التمييز بين العبري من جهة، وبين الإسرائيلي أو الموسوي أو اليهودي من جهة أخرى في بحث تاريخ فلسطين القديم. ودليلنا على ذلك أن مصطلح عبري أو عبراني لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً، وإنما ورد ذكر الإسرائيليين وقوم موسى ويهود. ويتضح من ذلك أن عصر إبراهيم الخليل هذا هو عصر عربي قائم بذاته ليست له أية صلة بعصر اليهود. وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الناحية بقوله: "يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ" آل عمران: 65 وقوله: "مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ" آل عمران: 67. أمّا كلمة عبري للدلالة على اليهود، فقد استعملها الحاخامون بهذا المعنى في وقت متأخر في فلسطين".

آراء أخرى:

تناول عالما الآثار الإسرائيليان إسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سلبرمان هذه المسألة فقالا ما نصه[6]:

"تَذْكُرُ السجلات المصرية الفرعونية التي تحدثت عن أرض كنعان، بأنه كانت هناك مجموعتان من الدخلاء أو الغرباء اختاروا العيش على هامش المجتمع المدني الكنعاني، وكلاهما حظي بالأهمية في مسألة البحث عن الإسرائيليين الأوائل.

– المجموعة الأولى وهم العبيرو أو الأبيرو Apiru، وهم جماعة جاء وصفها في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، (وكذلك في نصوص أخرى للعهد البرونزي)، بطريقة غير محببة. وقد عاش أفراد هذه المجموعة خارج الحياة العامة للمجتمع الكنعاني. وقد خرجوا من أوطانهم بسبب الحرب أو هرباً من الضرائب الباهظة، ويوصفون أحياناً بالخارجين على القانون أو قُطّاع الطرق، وأحياناً بجنودٍ مرتزقة، وفي حالة واحدة، قيل: إنهم كانوا بمصر نفسها عمالاً مؤجرين عملوا في مشاريع إنشائية حكومية، وعاشوا على حافة أو هامش المجتمع المدني، ولم يكن أحد في السلطة يرغب فيهم.

وقد اقترح العلماء في الماضي أن كلمة عبيرو بأشكالها المختلفة: هابيرو Habiru وApiru، ترتبط ارتباطاً لغوياً مباشراً بكلمة إبري Ibri أو Hebrew، ولذلك فإن Apiru في المصادر المصرية كانوا هم الإسرائيليون الأوائل. ولكن نحن نعلم اليوم بأن هذا الارتباط ليس سهلاً، فانتشار استخدام المصطلح عبر قرون كثيرة، وفي عموم الشرق الأوسط يدل على أنه كان له معنى اجتماعي اقتصادي

Socio economic meaning أكثر مما يدل على مجموعة إثنية محددة. ومن الممكن أن ظاهرة العبيرو قد أُعيد ذكرها في القرون المتأخرة، وهكذا دخلت في القصص التوراتي.

– أمّا المجموعة الثانية، فكان يُطلق عليهم شوسو Shoso، وكانوا بدواً ورعاة، يعيشون في الأساس على أطراف الأقاليم الحدودية في الأردن وأرض كنعان. وكانوا يقومون بأعمال تضايق السلطات المصرية كالنهب والسلب...الخ. فهل هذه المجموعة الغريبة إسرائيلية اتخذت اسماً مختلفاً؟ " .

يتضح مما سبق أن كلمة العبرانيين لا تدل على أنها اسم لجماعة عرقية أو إثنية متجانسة، كما نفهمه من النص التوراتي المذكور، وإنما هي صفة لمجموعة غير متجانسة من الناس، كانت تقوم بأعمال غير مرغوب فيها، وفي الوقت نفسه، غير مستقرة في مكان ثابت.

ومن الآراء الأخرى التي اطلعنا عليها في بعض كتب التاريخ، ونحن في المدارس، أن العبرانيين سُمّوا بذلك لأن إبراهيم عليه السلام، ومن معه غادروا مدينة أور الكلدانية في العراق وعبروا نهر الفرات متجهين غرباً نحو فلسطين مروراً بأرض حرّان فسموا بالعبرانيين. وهذا القول غير مقبول عقلياً ومنطقياً، لأن هناك الكثير من الجماعات والأقوام والأفراد الذين عبروا نهر الفرات قبل إبراهيم وبعده، فلماذا لم يُطلق عليهم هذا اللقب؟. ولماذا اختص إبراهيم وجماعته به من دون غيرهم؟ إن هذا ادعاء أو زعم يهودي يستخدمونه لإلحاق نسبهم بإبراهيم، وإعطاء أنفسهم صفة مميزة، وإيهام العالم بأن العبرانيين هم أصل اليهود، وأن إبراهيم نفسه كان يهودياً.

الخلاصة:

إن الرأي الراجح عندي ما قاله الدكتور أحمد سوسة والذي لا يختلف كثيراً عما قاله العالمان الآثاريان الإسرائيليان فنكلشتاين وسلبرمان. وقد توصلت إلى هذا الرأي قبل اطلاعي على هذه الآراء، وذلك في خمسينيات القرن الماضي، فقد كان بعض سكان شبه الجزيرة العربية يستخدم كلمة عِبْري بمعنى مسافر أو الراكب في السيارة، أو الشخص غير المستقر. ففي الكويت – على سبيل المثال – كان الكويتيون آنذاك يقولون: "العِبْرية في أبو عرام". أي أن الركاب في الحافلة أو الباص. وفي المعاجم العربية فإن عبراني تعني قاطع الطريق.

إذن: نخلص من هذا كله بأن كلمة العبرانيين ليست اسماً لعرق أو جماعة إثنية متجانسة من الناس، وإنما هي: صفة لجماعات وأقوام وقبائل وشعوب غير مستقرة، كانت تتجول وتتنقل في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب، لأسباب منها اقتصادية، كاحتراف مهنة الرعي التي تتطلب الترحل للبحث عن مواطن الكلأ والأعشاب والمياه، فتغادر المكان بعد نفاد موارده، والانتقال إلى مكان غيره تتوافر فيه وسائل الحياة. وهذا ما نسميه بحياة البادية.

إن الإسرائيليين واليهود في بدء حياتهم عاشوا حياة التنقل والترحال، فهم كغيرهم من الجماعات الأخرى يصح أن نطلق عليهم صفة العبرانيين، وفي قصة يوسف عليه السلام جاء على لسان يوسف قوله: "وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ" يوسف: 100.

أمّا عن اللغة العبرية التي يزعم اليهود بأنها لغتهم وحدهم ويحتكرونها لهم من دون سواهم، فإني أرجح ما قاله الدكتور كمال الصليبي في هذه المسألة، فهو من المتمكنين فيها، ومن أبرز المختصين في التاريخ القديم لبلاد الشام، ومن الدارسين والمحققين في التوراة وسائر أسفار العهد القديم والجديد. يقول كمال الصليبي ما نصه(7):

"واللغة التي عُرفت بكونها اللغة العبرية أو العبرانية لم تكن – بالتأكيد – لغة بني إسرائيل والعبرانيين وحدهم. وفي أيّامها كانت هذه اللغة واسعة الانتشار، لا في غرب شبه الجزيرة العربية فحسب، بل أيضاً في أماكن أخرى، ومنها فلسطين وما يليها شمالاً من غرب الشام.

وقد كانت اللغة العبرية، كما لوحظ سابقاً، تُعرف بـ سفت كنعن، أي بـ لغة كنعان، ومنها لغة التوراة وغيرها من اللهجات الكنعانية القديمة، ومنها الأُوغاريتية والفينيقية".

ما قاله كمال الصليبي يكاد ينسجم، وربما يتفق مع ما قاله أحمد سوسة في مسألة اللغة العبرانية. فقد قال(8):

"علماً بأن الموسويين (يقصد اليهود) صاروا يتكلمون بالكنعانية التي اقتبسوها من الكنعانيين بعد نزوحهم إلى كنعان، ثم أخذوا يتكلمون بالآرامية أسوة ببقية الأقوام في فلسطين بعد انتشار اللغة الآرامية في جميع الشرق الأدنى، ومع ذلك فإنه لا توجد أية لغة خاصة باليهود، وأن ما يسمى بالعبرية بمعنى اليهودية هي لهجة متأخرة من الآرامية (العربية الأصل)، شأنها في ذلك شأن جميع اللهجات الأخرى التي تكوّنت في وقت لاحق من اللغة الأم الأصلية".

المراجع

1. كمال الصليبي، مرجع سابق، ص236.

2. المرجع نفسه، ص237.

3. المرجع نفسه، ص238.

4. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص64.

5. المرجع نفسه، ص64–65.

6. Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman, op.cit, p.152-153.

7. كمال الصليبي، مرجع سابق، 244.

8. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص73.

الفَصْلُ الخَامِسُ

كتب اليهود الدينية المتداولة حالياً: أساطير أم حقائق؟

- الخلط بين التوراة والعهد القديم
- التوراة تعني الشريعة وتشمل الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم.
- يطلق على العهد القديم: كتاب اليهود المقدس.
- التلمود يحتوي على تعاليم ومواعظ عنصرية لحاخامات اليهود.
- الأساطير والخرافات في التلمود وأسفار العهد القديم.
- لقد حول اليهود الديانة اليهودية إلى سياسة تمييز عنصري كريهة.

الفصل الخامس

كتب اليهود الدينية المتداولة حالياً: أساطير أم حقائق؟

ماهية هذه الكتب ومسمياتها:

يخلط كثير من الباحثين في مسميات كتب اليهود الدينية، وهي: التوراة والعهد القديم The old Testament أو الكتاب المقدس اليهودي The Hebrew or The Jewish Bible والتلمود Talmud. ولذلك نرى أنه من الضروري توضيح حقيقة كل مسمى من هذه المسميات وما بينها من تمايز واختلاف.

الكتاب المقدس، هي الترجمة العربية لما يسمى في اللغة الإنجليزية The Holly Bible. وكلمة Bible كما جاء في قاموسي أكسفورد ووبستر الشهيرين مشتقة من الكلمة الإغريقية اليونانية القديمة biblia وتعني مجموعة كتابات. والكتاب المقدس مؤلف من كتابات كثيرة أو كتب books، أي أسفار ومفردها سِفْر. فالعهد القديم يحتوي على تسع وثلاثين سِفْراً.

وهناك من يرى بأن كلمة Bible مشتقة من Biblos أو Byblos وهي مدينة قديمة في لبنان، واسمها اليوم "جبيل"، وتقع شمال بيروت، واشتهرت في الماضي بنوع من النبات تُستخدم أوراقه للكتابة، مثل نبات البردي بمصر الفرعونية Papyrus. وقيل بأن الكتاب المقدس اليهودي كُتب في البداية على هذا الورق، فسمي Bible.

ولا شك في أن هذين التفسيرين لهما وجاهتهما، مما قد يصعب ترجيح أحدهما على الآخر، ولكنني أميل إلى التفسير الأول، لأن الكتاب المقدس يحتوي على كتابات كثيرة، وأنه لم يكن وحده الذي كتب على هذا النوع من الورق الذي كان يستورد من مدينة "بيبلوس" اللبنانية، فقد استخدم هذا الورق في الكثير من الكتابات، ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى احتكار الكتاب المقدس لهذه التسمية، وينفرد بها عن سائر الكتابات أوالكتب الأخرى.

من الآراء التي سمعتها من بعض الأصدقاء عن أصل كلمة Bible، مفادها أن الكلمة منسوبة إلى مدينة بابل في العراق، لأن اليهود كتبوا كتابهم المقدس فيها، في أثناء فترة السبي البابلي. وهذا الرأي أشك فيه، وأستبعده على الرغم من أنني لا أستبعد ما ذكره كثير من الباحثين المختصين بالكتاب المقدس، بأن اليهود دونوا معظم الأسفار في تلك الفترة، ذلك أنني لم أجد مرجعاً موثوقاً يدعم هذا الرأي.

يتألف الكتاب المقدس من قسمين رئيسين: العهد القديم The Old Testament، وتعني: الميثاق. ويعتقد علماء اللاهوت بأنه سمي بذلك لكونه عهداً أو ميثاقاً بين الله والإنسان. والعهد القديم – كما قلنا – كتاب اليهود المقدس.

يُطلق على القسم الثاني من الكتاب المقدس (العهد الجديد) The New Testament، وهو كتاب النصارى المقدس، ويحتوي على الأناجيل الأربعة المعترف بها من الكنائس المسيحية وهي: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة. ويشمل العهد الجديد أيضاً: أعمال الرسل ومجموعة من الرسائل المختلفة ورؤيا يوحنا اللاهوتي.

وبما أن هذا الفصل يتناول كتب اليهود المقدسة، فإن العهد الجديد يكون خارج نطاق الدراسة والبحث.

العهد القديم:

يقول إسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سلبرمان اللذان سبق ذكرهما بأن العهد القديم هو[1]: "تجميع متنوع يشمل الأسطورة legend، والقانون والشعر، والنبوءة، والفلسفة، والتاريخ، دُوّن كُلياً – وتقريباً – بالعبرية مع مقاطع قليلة كتبت بلهجات سامية متنوعة تُسمى: الأرامية، والتي أصبحت اللغة المشتركة في الشرق الأوسط بعد عام 600 ق.م".

أمّا الدكتور أحمد سوسة فينفي وجود لغة عبرية أو يهودية في عهد موسى عليه السلام الذي تُنسب إليه الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم. وهو يقول ما نصه[2]: "وليس لدينا أي دليل على أنه كانت في البلاد (يقصد فلسطين) في هذين العصرين (يقصد عصر موسى وعصر السبي البابلي) غير ثقافة الكنعانيين القديمة في فلسطين، لأن العبرية تكونت في وقت لاحق عندما بدأ الكهنة يدونون التوراة باللهجة المعروفة بأرامية التوراة، وهي مقتبسة من الأرامية، وذلك بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد".

يحتوي العهد القديم – كما قلنا – على تسعة وثلاثين سفراً، وقد صُنفت هذه الأسفار بحسب موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام هي:

1. **التوراة:** وتعني الشريعة أو الناموس، وتشتمل على الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، وتثنية الاشتراع أو

التثنية. ويعتقد اليهود بأن هذه الأسفار كتبت في عهد موسى عليه السلام، إلا أن كثيراً من الباحثين والمتخصصين في الكتاب المقدس وعلماء الآثار يشكون في ذلك، ويرون أنها كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام، ومنهم من يعتقد أنها دونت – كغيرها من الأسفار الأخرى – أو أُعيد تدوينها في فترة السبي البابلي، ويدللون على ذلك بما ورد فيها من أمور حدثت بعد وفاة موسى عليه السلام.

من الذين شككوا في كتابة التوراة في عهد موسى عليه السلام كل من إسرائيل فنكلشتين ونيل آشر سلبرمان اللذان، استشهدا بكتابات المؤرخ التوراتي الشهير توماس ثومبسون Thomas Thompson، وزميله جون فان سيترز، John Van Seters[3].

يؤكد الدكتور كمال الصليبي على أن التوراة المتداولة حالياً حُرّفت وبُدّلت، ويذكر عدداً من أشكال هذا التحريف الذي قام به أحبار اليهود، وهم المعروفون بالمصوريتيين (أي أهل التقليد). وهو يقول[4]: "وقد استمر المصوريتيون في عملهم هذا حتى القرن العاشر. وبالفعل، فقد قام هؤلاء بتحريف النصوص التوراتية". وهو على الرغم من أنه مسيحي يستشهد بالقرآن الذي كان أول من أشار إلى هذا التحريف: "مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ" النساء: 46.

تتناول التوراة المتداولة حالياً خلق الكون، وقصة الإسرائيليين منذ خَلْق العالم، مروراً بالطوفان، وعصر الآباء (إبراهيم وإسحق ويعقوب)، ثم الخروج من مصر، والتيه في الصحراء، والألواح التي أعطيت إلى موسى عليه السلام في سيناء،

وهي الشريعة أو القانون. وتنتهي التوراة بوداع موسى عليه السلام للإسرائيليين.

2. **الأنبياء**: وهم مجموعتان: الأنبياء المتقدمون، والأنبياء المتأخرون. وتضم المجموعة الأولى الأسفار: يشوع، والقضاة، وصموئيل الأول، وصموئيل الثاني، والملوك الأول، والملوك الثاني. وتروي هذه المجموعة قصة بني إسرائيل منذ عبورهم نهر الأردن ودخولهم أرض كنعان (فلسطين). ثم تروي فترات صعود وركود مملكتي إسرائيل، وحتى هزيمة الأشوريين لهم ونفيهم، ثم غزو البابليين لبلادهم وتدمير مملكتهم، وسبيهم إلى بابل في العراق.

أما المجموعة الثانية والتي تضم الأنبياء المتأخرين، فتشمل خمسة عشر نبياً وهم: أشعيا، وإرميا وحزقيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.

وتحتوي هذه المجموعة على تعاليم هؤلاء الأنبياء ومواعظهم وإرشاداتهم، وفي الوقت نفسه تذكر إدانتهم وشجبهم للإسرائيليين الذين انحرفوا عن تعاليم الدين، وخالفوا أوامر الله ونواهيه.

3. **الكتابات**: وهي مجموعة تضم مواعظ وأشعاراً وصلوات وأناشيد وحِكَمْ وأمثال يُعَبِّرُ كثير منها عن ذكريات الإسرائيليين وأمجادهم في فترات الابتهاج والفرح والسعادة وكذلك إبان الأزمات، وتشمل أيضاً العبادة والتفكير الشخصي.

وهذه الكتابات نتاج عملية مستمرة من الكتابة والتأليف، قيل أنها استغرقت مئات السنين، بدأت منذ العهد الفارسي والعصر الهليني (اليوناني القديم).

يتضح مما سبق أن التوراة هي جزء من العهد القديم، وليست كله، كما

يعتقد كثيرون، فهي تشمل الخمسة أسفار الأولى من العهد القديم الـذي يحتـوي – كما قلنا – على تسعة وثلاثين سفراً. وبناء عليه من الخطأ الـشائع الـذي وقـع فيـه المترجمون الذين ترجموا The Biblical Historians على أنهم المؤرخون التوراتيـون ذلك أن الترجمة الصحيحة هي مؤرخو الكتاب المقدس. إلاّ أن هناك من يُصرّ علـى استخدام كلمة التوراة على العهد القديم بجميع أسفاره، مـن منطلـق تـسمية الكـل بالجزء ولأن هذا الجزء – التوراة – كان البداية والأساس. إلاّ أنني لا أميل إلى هـذا الرأي، وأفضل تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية تجنباً للخلط والالتباس.

الأساطير والخرافات في العهد القديم:

ربما كان من المفيد أن نوضح معنى كلمـة أسـطورة legend، لأن هنـاك مـن يخلط بين الأسطورة والخرافة myth، ويعتقد أنهما شيءٌ واحدٌ، وهذا خطـأ شـائع. وقد تبين ذلك في أثناء نقاشي وحواري مع كثير من الناس، ومنهم باحثون وكتـاب ومثقفون، أو من خلال اطلاعي على عدد من الكتب والبحوث العلمية.

الأسطورة، وجمعها أساطير، وقد ورد ذكرهـا في القـرآن الكـريم: "حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ" الأنعـام: 25. ويقول القرطبي في الجامع لأحكام القرآن بأن أسـاطير الأولـين هـي القـصص التي تتناول أحداث القرون الماضـية، ومـا سـطره الأولـون في الكتـب. وكمـا قـال الجوهري أنها الأباطيل والتُرهات[5].

الأسطورة في الأدب تعبر عن حادثة حدثت في الماضـي أو شخـصية تاريخيـة

جرى عليها الكثير من التحريف، والتشويه، وأضيفت إليها إضافات غير حقيقية، وتخيلات وتصورات أفقدتها كثيراً من أصلها، وأبعدتها عن المنطق والواقع، فبدت للناس وكأنها خرافة، ولكنها – كما قلنا – ليست خرافة ما دام لها بعض من الأصول الحقيقية.

أما الخرافة فشيء مختلق وغير حقيقي، ووهم وخيال فاسد. وهي من الفعل خَرِفَ، بمعنى فَسَد العقل بسبب الكبر أو الهرم، ولذلك يقال إنسان خَرِفْ، بمعنى اختل عقله أو فسد.

من يطلع على العهد القديم، وبشهادة مؤرخي العهد القديم في الغرب، يَجِدْه حاوياً لكثير من الأساطير التي لا يتسع المجال هنا لذكرها. ومن شاء الاطلاع عليها فليرجع إلى كتب هؤلاء المؤرخين أمثال كينث وايتلام، وتوماس تومبسون اللذين سبق ذكرهما، أو يطلع على خرافات يهودية للأستاذ أحمد الشقيري[6].

إن من يطلع على التوراة، قد يتولد عنده الشك في أن الأنبياء الكرام بدءاً بإبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب وانتهاء بموسى عليهم السلام والمذكورين في التوراة هم أنفسهم الذين ذكرهم القرآن الكريم. لقد تكرر اسم إبراهيم في القرآن الكريم 69 مرة، وكانت صورته في جميع الآيات التي ورد فيها اسمه كما يقول أحمد الشقيري: "رائعة وجميلة وقد بلغت أرقى درجات الكمال الإنساني، وصفاء التوحيد، وسمو القيم الروحية الرفيعة[7].

وإليك نماذج من هذه الآيات: "إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ" آل عمران: 33 و: "إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ

أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ" هـود: 75 و: "إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا" النحـل: 120 و: "وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا" مـــــريم: 41 "وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا" النساء: 125.

أما صورة إبراهيم في التوراة فمختلفة ويمكنك أن ترى فيها المساوئ والمثالب من خلال ما حدث له حينما رحل عن أرضه بعد أن حل القحط وأصاب أهلها الجوعُ، وتوجه إلى مصر، وكانت زوجته ساراي، أي سارة، ترافقه وهي امرأة جميلة خاف إبراهيم على نفسه من أن يقتله المصريون بسببها، وطلب إليها أن تكذب وتقول لهم بأنها شقيقته حتى يسلم من القتل، وكي يحصل على الخير إن أخذها الفرعون. تقول التوراة[8]: "وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون إنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك".

وهذا ما حدث كما قالت التوراة في السفر نفسه[9]: "فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذتْ المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجِمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني أنها امرأتك. لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي، والآن هي ذا امرأتك. خذها واذهب".

يعلق أحمد الشقيري على ذلك قائلاً[10]: "وهكذا فإن التوراة تقذف بزوجة إبراهيم، بستنا سارة كما يسميها المسلمون، إلى أحضان فرعون في فراشه، ليعود بها إبراهيم مُشيعاً خارج الديار، مجللاً بالاثم والعار..ويقينا فإن أبرام هذا هو جد اليهود حقاً، وحاشا لله أن يكون جد المسلمين..فالقصة إثم وعار في حق الأنبياء، إثم أن يتزوج الرجل أخته، وعار أن يبيع عرضه بالجمال والعبيد والحمير".

أما لوط عليه السلام فقد ورد ذكره في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة ووصفه الله بقوله: "وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا" الأنبياء: 74 و "وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ" الصافات: 133. ولكن التوراة تتهمه بأنه ارتكب جريمة الزنا في بنتيه، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر[11]: "وقالت البكر للصغيرة أبونا شاخ وليس لنا في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مؤاب، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، والصغيرة ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم". ونحن نقول حاشا لله أن يرتكب نبي الله لوط وبناته هذه الجريمة النكراء.

وتذكر التوراة – الإصحاح السادس والعشرون – بأن ما حدث لإبراهيم

حينما اصطحب زوجته سارة إلى مصر تكرر مع ابنه إسحق قرب الحدود المصرية في مكان يقال له جرار، إلى الجنوب الشرقي من غزة، حيث كان يحكمها ملك فلسطيني اسمه "أبيمالك" بينما يباركه الله في القرآن ويصفه بالصلاح والاستقامة.

أما يعقوب فتصوره التوراة – الإصحاح السابع والعشرون – بالمتآمر على أخيه الكبير عيسو ليفوز ببركة والده إسحق ويتفق مع والدته "رفقه" على تضليل الوالد الضرير بعد أن بلغ به الكبر عتيا. وفي مقابل ذلك يصفه القرآن الكريم أنه كان من عباد الله الصالحين.

وتنهي التوراة حياة موسى حياة حزينة وتتهمه وأخاه هارون بخيانة الله فقد جاء في سفر التثنية(12): "وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكي تموت...اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نِبُّو الذي في أرض مؤاب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أعطيها لبني إسرائيل ملكاً. ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه. لأنكما ختنماني في وسط بني إسرائيل...فإنك تنظر الأرض..ولكنك لا تدخل الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل".

وهكذا كانت نهاية موسى، أنه حُرِم من الدخول إلى أرض كنعان مغضوباً عليه من الله، خائناً لله هو وأخوه..وحاشا لله أن يتصف هذان النبيان بهذه الصفات، وهما اللذان أجَلَّهُما وقدَّرهما واحترمهما وكلفهما الله برسالة سامية: "ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ" المؤمنون: 45.

أما النبي داود الذي آتاه الله الزبور، وسخر له الجبال والطير، وجعله خليفة

في الأرض "يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ" ص: 26 فإن التوراة تزعم بأنه خطف امرأة رجل من زوجها. ففي سفر صموئيل الثاني(13) وفي الإصحاح الحادي عشر، تتهم التوراة النبي داود بالتلصص على عورات النساء والزنى فتقول: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت المُلْك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً فأرسل داود وسأل عن المرأة، فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة".

وكانت هذه المرأة زوجة القائد أُوريا الحثي. فأراد داود التخلص منه فأرسله للقتال ليموت ويخلو له الجو ويتزوج امرأته، وهذا ما حدث كما جاء في السفر نفسه.

ومن مقارنة الصور الجميلة والمشرقة والمشرِّفة للأنبياء سابقي الذكر في القرآن الكريم، بصورهم البائسة والكريهة في التوراة، نتأكد بأن هؤلاء الأنبياء أبرياء من اليهود ولا يمتون إليهم بصلة، وإننا نحن الذين نؤمن بجميع الكتب والرسل أولى بهم من اليهود الذين أساءوا لهم: "إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ" آل عمران: 68.

إن من يقرأ العهد القديم، يرى اختلاط التاريخ بالأساطير والخرافات، مما يجعل القارئ يشك في كونه كتاباً مقدساً من عند الله. ولذلك فإن علماء وباحثين قالوا: بأن حاخامات يهود – كان عزرا من أبرزهم – دونوا هذه الأسفار في فترة

السبي البابلي، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بنحو 700 عاماً. فلقد اشتمل العهد القديم على كثير من الخرافات التي يأباها العقل، وينكرها المنطق، ويدحضها العلم.

ربما كان أحمد الشقيري هو الباحث الوحيد الذي جمع هذه الخرافات في كتاب سبق ذكره، وعنوانه خرافات يهودية، ولكنه خلط بين الأسطورة والخرافة، ولم يميز بينهما، وأطلق عليهما خرافة.

ومن الأمثلة على هذه الخرافات ما جاء في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين بأن يعقوب رأى حلماً[14]: "وإذا سُلَّمُ مَنصوبة على الأرض ورأسها يمُس السماء. وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهوذا الرب واقف عليها، فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك، وإله إسحق، الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض..."

ومن الخرافات أيضاً مصارعة يعقوب للرب التي وردت تفاصيلها في الإصحاح الثاني والثلاثين والإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين. وخرافة تجفيف النهر ليتمكن الإسرائيليون من عبوره، كما جاء في الإصحاح الخامس من سفر يشوع. وفي الإصحاح العاشر من السفر نفسه يزعم اليهود أن الله أدام الشمس وأوقف القمر حتى يتمكن يشوع من القضاء على أعدائه[15]: "فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب صوت إنسان. لأن الرب حارب عن إسرائيل".

ومن الخرافات التي وردت في العهد القديم الانتصارات الباهرة التي تحققت لليهود على أعدائهم حين غزوهم لأرض كنعان، والبطولات الوهمية التي قاموا

بهـا، وقـد شـكك في ذلـك علمـاء وبـاحثون. ويـذكر إسـرائيل فنكلـشتاين ونيـل سلبرمان[16]: بأن علماء ألمان عدوا سفر يشوع خليط من الأساطير وقصص البطولة وخرافات محلية مصدرها مناطق مختلفة من البلاد، وجُمعت في عدة قـرون. فَعالِمـا العهد القديم، ألبرخت آلت Albrecht Alt ومارتن نوث Martin Noth قالا: بـأن قصصاً كثيرة وردت في سفر يشوع ليست أكثر من تقاليد سببية.

ومن الخرافات التي وردت في سفر الخروج الزعم بأن عدد الذين خرجوا من مصر بلغ ستمائة ألف شخص، وهذا ما يدحضه كلٌّ من فنكلشتاين وسلبرمان كما سبق ذكره[17]. وهما يشككان في ما تزعمه التوراة من غزو إسرائيلي لأرض كنعان، ويتساءلان[18]: "هل بإمكان جماعات ترتـدي أسمـالاً باليـة مـسافرة ومعهـا نـسوة وأطفال وشيوخ خرجوا بعد أن تـاهوا في الـصحراء عقـوداً، القيـام بغـزو فعّـال؟. وكيف يستطيع هذا الحشد الغوغـائي غـير المـنظم التغلـب علـى القـلاع الكنعانيـة المحصنة جيداً واقتحامها، وإلحاق الهزيمة بجيوش الكنعـانيين المـدربين تـدريباً جيـداً، والذين كانوا يستخدمون العربات؟. وهل حقاً حدث بالفعل فتح كنعان؟. هل هذه (القصة) هي القصة البطولية Saga المركزية للكتاب المقـدس اليهـودي – والتـاريخ اللاحق لإسرائيل – هل هي تاريخ أم خرافة؟"

وهما يثبتان في الفصل المعنون فـتح كنعـان مـن كتابهمـا المـذكور[19]: "بـأن الحفريات والبحوث الأركيولوجية تدحض قصص العهد القديم فيما يتعلق بخروج الإسرائيليين من مصر وغزوهم لأرض كنعان والفترة الزمنية التي حدث فيهـا هـذا الغزو".

يُعَدُّ المفكر الفرنسي المعروف روجيه جـارودي Roger Garaudi مـن الـذين اهتموا بدراسة وجمع وتحليل الخرافات والأساطير اليهودية، وطبعها في كتـاب أثـار جدلاً كبيراً، وأغضب اليهود الذين اتهموه باللاسامية، ورفعوا عليـه قـضية طـالبوا فيها بمحاكمته ومعاقبته. وقامت جريدة الدستور الأردنية بترجمـة الكتـاب إلى اللغـة العربية ونشره[20].

ومن الخرافات والأساطير التي يوردهـا جـارودي في كتابـه أسـطورة "أرض الميعاد" وأسطورة "الشعب المختار". وهو يعتمد في ذلـك علـى بحـوث وكتابـات ومؤلفات قام بها متخصصون في الآثار والتاريخ القديم والتوراة.

يذكر كيت وايتلام في كتابه "اختلاق إسرائيل القديمة" سـابق الـذكر، عـدداً من خرافات وأساطير العهد القديم، ويستشهد بمـا ورد في كتابـات متخصـصين في تاريخ العهد القديم، مثل فيليب ديفز Philip Davies الذي ينقل عنه قوله[21]: "إن إسرائيل القديمة المذكورة في الدراسات التوراتية هي من اختراع عقول العلماء، وأن هذا الاعتقاد مبني على فهم خاطئ للتراث التوراتي، بل إنه بعيد عن الحقيقة التاريخية".

ويرى وايتلام أن التاريخ القديم، وكمـا ورد في القـسم الأكـبر مـن التـوراة العبرية، لا يعدو أن يكون قصة خيالية، وهو بمنزلة اختلاق للتاريخ[22].

هناك كثير من علماء الكتـاب المقـدس ومؤرخـو العهـد القـديم أو الكتـاب المقدس اليهودي، ينكرون وجود إسرائيل القديمة كما ترويها أسفار العهـد القـديم، ويعدونها خيالاً وخرافة أو أسطورة، وينقل وايتلام عن العـالم هيـوز J. Hughes – في كتابه المسمى: أسرار الأزمنة: الخرافة والتاريخ في التاريخ التوراتي – فيقـول[23]:

"وهكذا يستنتج هيوز في دراسته الحديثة حول التسلسل الزمني التوراتي، أن التسلسل الزمني في سفري القضاة وصموئيل هو خيال محض اخترعه اليهود في المنفى (يقصد السبي البابلي) لكي يمدونا بمشروع تاريخ عمره ألف سنة يغطي تاريخ وجود إسرائيل في أرض كنعان. وهكذا، لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية لتزويدنا بتسلسل تاريخ إسرائيل".

هذه الأساطير والخرافات...ما أهدافها ومقاصدها؟

قد يتساءل كثيرون، ما القصد من حشو العهد القديم بهذا الكم الكبير من الأساطير والخرافات؟. هل هناك أهداف يسعى إليها اليهود من الافتراء على التاريخ وتشويهه بمزجه بالأساطير والخرافات؟، والادعاء بأنه تاريخ موثوق، انطلى على كثير من مؤرخي تاريخ فلسطين القديم، وكان العرب ولا زالوا، من ضحايا هذه الأكاذيب، بدليل أن كتبنا التاريخية لا تزال تستمد معلوماتها من مصادر ومراجع توراتية، ولا أدري متى نتحرر منها، ونقوم بتنقية تاريخنا منها، وإعادة كتابته مستعينين بالحفريات الحديثة التي قام بها علماء آثار تحرروا من المؤثرات التوراتية، وخالفوا الذين من قبلهم أمثال وليام أولبرايت Albright (1889–1971)، والذين اعتمدوا التوراة مصدراً موثوقاً لتاريخ فلسطين القديم؟. لقد تخصص هؤلاء في علم الآثار، ونظراً لإيمانهم المطلق بأسفار العهد القديم، فقد كانوا يحملون باليد المعول الذي به يحفرون الأرض، والأسفار في اليد الأخرى، ليثبتوا صدق التوراة، وليس التأكد من مصداقيتها.

نعود إلى استفساراتنا عن المقاصد والأهداف من حشو العهد القديم بهذا

الكم الكبير من الأساطير والخرافات. من الواضح أن الهدف من هذه الخرافات والأساطير، وإلباسها لبوساً دينياً، وإضفاء صفات القداسة عليها، لتصبح جزءاً مهماً أو محوراً مركزياً من محاور المعتقدات الدينية، طمس عروبة فلسطين، أرضاً وسكاناً وتاريخاً وحضارة، ومحو تاريخها القديم، واستلاب تاريخها اللاحق، واختلاق تاريخ قديم ليحل محل التاريخ العربي القديم لفلسطين ويسكته إلى الأبد. إنها إذن مؤامرة كشفها عدد من علماء الكتاب المقدس، وعلماء الآثار، وبخاصة كيث وايتلام الذي استشهدنا بكتابه. وعنوان هذا الكتاب يكشف هذه المؤامرة وعنوانه كما ذكرنا سابقاً "اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني".

يقول وايتلام في معرض حديثه عن المؤامرة على الفلسطينيين وتاريخهم(24):

"فبمجرد إشارة كل هذه الدراسات (الدراسات التوراتية) إلى المنطقة الجغرافية على أنها فلسطين، مع عدم الإشارة مطلقاً إلى السكان على أنهم فلسطينيون، إنما هو إنكار وإسكات للتاريخ الفلسطيني. أن ما يُقدم إلينا دوماً هو وصف الأرض ذاتها، أمّا سكانها فمجهولون أو غير موجودين. يبدأ تاريخ فلسطين عملياً بالنسبة لهؤلاء الكُتّاب – فقط – عند بدء تاريخ إسرائيل، وعندما تصبح فلسطين في وفاق وانسجام تامين مع إسرائيل.....وعلى هذا فإن الدراسات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم. ولهذا مقابل سياسي معاصر متمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض، وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ، أو تجريده من هذا التاريخ. وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعباً غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود. إنه تفسير قُدّم على أنه بحث علمي موضوعي، وهو يحمل وراءه ثقل المؤسسات الفكرية الغربية،

وهي أسيرة الفهم الشائع للحاضر الذي جعلت فيه دولة إسرائيل المعاصرة الأرض الفارغة والقاحلة تُثمر".

لا شك أن هذه الأساطير والخرافات والأكاذيب العديدة في أسفار العهد القديم كان هدفها التأسيس لمؤامرة احتلال فلسطين، وطرد الفلسطينيين من ديارهم، والإدعاء بأن فلسطين بلا شعب، تنتظر اليهود الذين هم – كما زعموا – بلا أرض ليستوطنوها. وكان الشعار الذي صاغه أحد الصهاينة وهو "إسرائيل زنجويل" ورفعوه: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ونجحوا في استخدامه وتسويقه سياسياً في أوروبا وأمريكا وبلدان أخرى في مختلف القارات.

لقد كان الصهاينة يعلمون حقيقة هذا الشعار الكاذب، وكانوا يدركون بأن فلسطين مأهولة بسكانها الفلسطينيين منذ آلاف السنين، ولم تكن في يوم من الأيام فارغة، وبلا شعب، وأن اليهود الذين جاءوا إليها من مختلف أنحاء العالم، وبخاصة من الأقطار الأوروبية، لا علاقة لهم بفلسطين، ولم تكن لهم بها أية صلة، إنهم ينتمون إلى الأقطار التي جاءوا منها، وإن اعتناقهم الديانة اليهودية لا تجردهم من جنسيتهم الأصلية، ولا تعطيهم الحق في غزو بلد واحتلاله وطرد سكانه وإقامة كيان لهم على حسابهم. يبدو أن هؤلاء اليهود عملوا بمقولة: "غوبلز" Goebbels وزير الإعلام والدعاية في حكومة ألمانيا النازية في عهد هتلر، ومفادها: اكذب ثم اكذب حتى تصدق نفسك. ومن أمثلة هذا الكذب الذي كان الصهاينة من ضحاياه، تصريح في حزيران/ يونيو 1969 لرئيسة وزراء إسرائيل "جولدا مائير" لصحيفة صندي تايمز البريطانية Sunday Times، قالت فيه حينما سئلت عن الفلسطينيين: ليس هناك شعب فلسطيني، إن المسألة ليست إننا جئنا وألقينا بهم

خارج البلاد، إنهم لا يوجدون أصلاً. فرد عليها آنذاك أحمد الشقيري، في خطاب بليغ ومدوٍ هز أركان هيئة الأمم المتحدة، وهو يشير إلى جولدا مائير: هذه السيدة المحترمة التي ولدت في روسيا وتزوجت في أميركا وعاشت في بولندا ثم استقرت في بلدي، قد جاءت إليكم من تل أبيب لكي تفسر لكم لماذا وكيف وبأي حق يحتل الغريب أرض صاحب الحق، وكيف وبأي حق يطرد اليهود العرب من بلادهم...قولوا أيها السادة لهذه السيدة المحترمة أن الشعب الفلسطيني موجود، ولن تذيبه قوة في الوجود، وأن عليها أن تعود إلى أمريكا أو بولندا أو روسيا، حيث بعض أهلها، وأن تترك أهلي يعودون، لأنهم سيعودون إلى وطنهم ذات يوم أحراراً.

التلمود:

ربما كان التلمود Talmud من أكثر الكتب الدينية التي ما زال الجدل يدور حول أصله وحقيقته ومفهومه وأهميته لليهود، إذ يرى كثيرون بأن التلمود يحظى عند اليهود، بأهمية تفوق أهمية التوراة وأسفار العهد القديم. وقد تعددت الروايات التي قيلت عن التلمود.

لدي كتابان مهمان حاول فيهما مؤلفاهما كشف حقيقة التلمود، الأول نشر باللغة الإنجليزية في عام 1892، أما الثاني فصدر في عام 1996، وتُرجم إلى اللغة العربية. مؤلف الكتاب الأول رجل دين مسيحي معروف وعنوان الكتاب: The Talmnd Unmasked "التلمود بلا قناع"[25]، أمّا الكتاب الثاني فمؤلفه، رجل علماني إسرائيلي محسوب على اليسار، وعنوانه: "الديانة اليهودية وتاريخ اليهود:

وطأة 3000 عام". وقدم له المفكر الفلسطيني المعروف الدكتور إدوارد سعيد. وقد اعتمدت على هذين الكتابين، أكثر من غيرهما، في الكتابة عن التلمود.

التلمود، من حيث التسمية والمعنى، مشتقة من الكلمة اليهودية "لامد" Lamud وتعني التعليم أو الوعظ. ولذلك فإن التلمود هو الكتاب الذي يحتوي على المواعظ والتعاليم الخاصة بالديانة اليهودية، فهو إذن كتاب عقيدة اليهود الدينية. وهو في الوقت نفسه، يفسر المعارف والتعاليم الدينية اليهودية ويوضحها بحيث تصبح مفهومة لجميع اليهود، يستعينون بها ويطبقونها في عباداتهم، وفي تعاملهم مع بعضهم بعضاً، ومع غيرهم من الأمم والشعوب والأقوام.

ينسب الحاخامات اليهود، التلمود إلى موسى عليه السلام، ويقولون إنه هو مؤلفه الأول. ويعتقدون أنه جاء، إلى جانب القانون المكتوب، الذي تلقاه موسى من الله على جبل سيناء على شكل ألواح حجرية، ويدعى التوراة المكتوبة "توراة شبكتاب" Torah Schebiktab. تلقى موسى عليه السلام أيضاً تفسيرات لهذا القانون المكتوب وهذه التفسيرات يُطلق عليها "القانون الشفهي" oral law، والذي يطلق عليه "توراة شبيل بيه" Torah shebeal peh. وهم يقولون: إنّ ذلك كان سبب بقاء موسى عليه السلام مدة طويلة على الجبل، كي يتمكن الله من إعطائه القانون المكتوب في يوم واحد.

قيل بأن موسى نقل هذا القانون الشفهي إلى يشوع، الذي بدوره نقله إلى السبعين راشداً أو زعيماً. وهؤلاء أوْصلوه إلى الأنبياء، الذين منهم انتقل إلى الكنيس الأكبر اليهودي. وقيل بأنه – أي القانون الشفهي – نُقل تباعاً إلى

حاخامات محددين، إلى أن أصبح من غير الممكن أن يبقى شفهياً.

وبصرف النظر، عما قيل عن قصة التلمود، كما يرويها الحاخامات، فالمعروف أن مدارس كانت قائمة في فلسطين قبل المسيح، يُدرَّس فيها الأدب المقدس اليهودي. وإن تعليقات علماء اللاهوت أو الشريعة اليهودية دُونت على لوائح وقوائم كي تُعين الذاكرة. وحينما جُمعت هذه التعليقات مع بعضها بعضاً شكلت البداية للتلمود اليهودي.

وفي القرن الثاني بعد الميلاد أدرك الحاخام يهوذا، الذي سُمي بسبب ورعه في حياته قديساً وأميراً، بأن تعليم اليهود يتضاءل، بحيث ضاع قانونهم الشفهي، وأن اليهود تشتتوا، فكان أول من فكر في الطرق والوسائل التي بها يمكن استعادة قانونهم الشفهي. ولذلك جمع كل القوائم واللوائح ومنها جميعاً، عمل كتاباً أُطلق عليه سفر مِشْنا Sepher Mischnah، أي التثنية أو القانون الثانوي، وقسّمه إلى ستة أجزاء، وقسّم كل جزء إلى فصول عدة.

يُعد الـ "مشنا" أساس التلمود والقسم الرئيس منه. وهذا الكتاب – أي مشنا – مقبول من اليهود جميعهم في كل مكان، ومعترف به على أنه الدستور الموثوق للقانون. وقد شُرح وفُسر في الأكاديميات اليهودية في بابل العراقية وأكاديميات فلسطين في طبريا واللد.

وبتزايد التفسيرات بمرور الزمن دونت قرارات وخلافات علماء الشريعة اليهود، حول أل "مشنا". وقد شكلت هذه التدوينات أو الكتابات قسماً آخر من التلمود أُطلق عليه جمارا Gemarah. وهكذا أصبح التلمود يتألف من هذين

القسمين وهما: مشنا وجمارا، فمشنا مهمته في البداية كنوع من نص القانون، ويتبعه جمارا ومهمته تحليل الآراء المختلفة المؤدية إلى قرارات محددة.

قلنا: إنه ليس هناك خلاف بين اليهود على أل "مشنا"، ولكن الخلاف على "جمارا" بسبب تباين التفسيرات "أل مشنا" التي عملها الحاخام يهوذا سابق الذكر. فقد كان لليهود في فلسطين منهجُهم في التفسير، وهو يخالف يهود بابل، ولذلك ظهر نوعان من الْ "جمارا": جمارا القدس، وجمارا بابل. مؤلف جمارا القدس هو الحاخام جوكانان Jockanan الذي كان على رأس كنيس القدس لثمانين عاماً. وقد كتب تسعاً وثلاثين فصلاً من التعليقات على ألْ "مشنا". وقد أكملها في عام 230م.

أما "جمارا" البابلية فلم يجمعها شخص واحد، ولم تدون في وقت واحد. وقد بدأ الحاخام آشي Aschi في عام 327م العمل فيها، واستمر لستين عاماً، ثم تبعه الحاخام ماريمار Maremar في حوالي عام 427م وأكمل العمل الحاخام أبينا Abina في عام 500. ويتألف "جمارا" البابلية من ست وثلاثين فصلاً من التفسيرات.

وعلى أية حال فإن ال "مشنا" و"جمارا" القدس اتخذت اسم التلمود المقدسي بينما يطلق التلمود البابلي على ال مشنا وجمارا بابل. ويعد التلمود البابلي الأهم عند اليهود.

استمرت الإضافات على ال "جمارا" من جانب عدد من الحاخامات وعلماء الشريعة اليهود مثل الحاخام شيا Chaia والحاخام أُوشيا Uschaia، ثم ظهرت

إضافات كتبها "موسى بن ميمون" في الأندلس في القرن الثاني عشر، وأطلق عليها "تثنية التوراة"، أو إعادة الشريعة.

وفي القرن الرابع عشر ظهر كتاب الصفوف الذي وضعه يعقوب بن آشر في الأندلس، وفي القرن السادس عشر وضع "جوزيف كارو" كتاب الشولحان عاروخ.

يُقسم التلمود إلى ستة أقسام رئيسية هي:

1. زهاريم: ويختص بالبذور، ويتناول البذور والفواكه والأعشاب والأشجار: الاستخدام العام والمحلي للفواكه من بذور مختلفة...الخ.
2. مود Moed: يختص بالاحتفالات ويتناول الوقت الذي يبدأ به السبت والاحتفالات الأخرى، بداية ونهاية.
3. ناشيم Naschim: وهو خاص بالنساء، ويتناول الزواج والطلاق، والحقوق والواجبات، والعلاقات والمرض...ألخ.
4. نيزيكين Nezikin: ويختص بالأضرار، أي يتناول الأضرار التي يقاسي منها الإنسان والحيوان والغرامات والتعويضات.
5. كوداشيم Kodaschim: ويختص بالقداسة، ويتناول التضحيات والشعائر المقدسة.
6. الطهوراة Tohoroth: وتختص بالطهارة، ويتناول تطهير المراكب والملابس وأشياء أخرى.

هذه الأقسام الستة من التلمود تتوزع على كتب مؤلفة من فصول، لا أعتقد

أن المجال يسمح لنا هنا بتفصيلها. ولكن من أحب الاستزادة، فعليه أن يرجع إلى الكتاب الأول الذي سبق ذكره، ونشر باللغة الإنجليزية، وترجمته التلمود بلا قناع، وتفصيل بيانات نشره وطبعه في قائمة المراجع رقم 25.

نماذج من الخرافات في التلمود:

يحتوي التلمود على الكثير من الخرافات والأقوال غير المعقولة التي يأباها المنطق ولا يصدقها العقل، منها التركيز على كون اليهود شعب الله المختار، المساوي لرب العالمين، وأن الله منح اليهود الدنيا وما فيها. ويزعم التلمود أن الله لا عمل له في الليل إلا قراءة التلمود مع الملائكة، والإعلان عن ندمه ولومه لذاته عندما تغاضى عن هدم ما يدعون بأنه هيكل بيت المقدس[26].

وفي الحديث عن الأرواح يزعم التلمود أن روح اليهودي جزء من روح الله، وأن روح اليهودي الميت تشغل جسماً آخر، وأن اليهودي الذي يقتل يهودياً خطأً أو عن عمد تدخل روحه في حيوان أو نبات، ثم تذهب إلى الجحيم، وتعود لتدخل جسم حيوان آخر، وبعدها أحد الوثنيين، وبعد أن تتطهر بمرورها بكل تلك المراحل تعود إلى جسد أحد اليهود[27].

إن الجنة في نظر التلمود لليهود فقط، ودون سواهم، والنار مثوى من عداهم، من المسلمين الذين لا يغسلون إلا أيديهم وأرجلهم، ومن المسيحيين الذين لا يختتنون[28].

التلمود كتاب عنصري:

من الواضح أنه كان للتلمود التأثير الكبير والأهم في بروز ظاهرة التعصب

العنصري لدى اليهود، وبخاصة المتدينون منهم الذين يفضلون قراءته والإيمان به على التوراة، كما سبق القول.

فالتلمود يحتوي على كثير من فتاوي وآراء واجتهادات حاخامات اليهود تطفح بالتمييز العنصري، والتعصب الشديد لليهود، وتحقير غيرهم وازدرائهم وسبهم ولعنهم وإيذائهم وعدم تقديم العون والمساعدة لهم.

لا شك في أن نظرة التلمود لغير اليهود – الذين يسميهم غويم، بمعنى الأغيار– بلغت أعلى مراتب العنصرية، حتى إنها تفوقت على عنصرية سيادة العرق الآري على سائر البشر، وهي نظرية رفع لواءها هتلر في ألمانيا، في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وأُطلق عليها آنذاك النازية، وهي تسمية أطلقها أعداء هتلر على حزبه المسمى الحزب الاشتراكي الوطني Nazional Socialistiche Partie. وقد أخذت التسمية، أي النازية، من الأحرف الأربع الأولى لكلمة Nazional.

وعلى الرغم من اشتمال التلمود، المترجم إلى لغات مختلفة، على كثير من عبارات التمييز العنصري، فإنه يقال: إن التلمود المدون باللغة اليهودية به عبارات أشد خطورة وعنصرية، شطبت من النسخ المترجمة، كما قال إسرائيل شاحاك، خوفاً على حياة اليهود من المجتمعات الذين يعيشون فيها، وخشية من نقمة العالم عليهم[(29)].

يذكر إسرائيل شاحاك بأن عيسى بن ميمون الذي عاش في الأندلس العربية، كان من أبرز علماء الدين اليهودي، ومن أشهر فلاسفتهم، كان يحظى بتقدير يهود

العالم، ويعدونه من أكبر المشاركين في تدوين التلمود "ميشنا توراة"، ووضع كتاباً معروفاً عنوانه "دليل الحائرين"، ويُعد من أعظم المؤلفات في الفلسفة اليهودية المقروءة والمسموعة على نطاق واسع حتى يومنا هذا. وكان ابن ميمون بالإضافة إلى موقفه تجاه الأغيار عموماً، معادياً للسود أيضاً، إذ يقول في فصل أساسي من كتابه، الفصل 51 ما نصه[30]:

"بعض الأتراك (أي العنصر المغولي) والبدو في الشمال، والسود، والبدو في الجنوب، وأولئك الذين يشبهونهم في أقاليمنا، طبيعتهم كمثل طبيعة الحيوانات البكماء، وهم بحسب رأيي، ليسوا في مستوى البشر، ومستواهم بين أشياء الوجود، هو دون مستوى الإنسان، وأعلى من مستوى القرد، لأن لهم أكثر مما للقرد، صورة الإنسان والشبه له".

يطعن التلمود في المسيح والمسيحية، فيقول عن المسيح أنه كان يهودياً مرتداً كافراً، وتعاليمه كفر صريح، والمسيحيون كفرة مثله، وأن أمه حملت به سفاحاً من جندي يدعى بندارا. وقد تنبه أحبار اليهود الذين اجتمعوا عام 1631م في بولندا لخطورة هذا الموقف، وقاموا بحذف الكلمات والعبارات التي تهاجم المسيح وتركوا مكانها فراغاً واتفقوا على تلقينها مشافهة إلى تلاميذ المدارس الدينية فقط[31].

إلى جانب المزاعم الجنسية البذيئة ضد المسيح، يقول التلمود، بأن عقابه في الجحيم يقضي بإغراقه في غائط يغلي[32].

حتى الأموات لم يسلموا من التمييز العنصري في التلمود، الذي يأمر كل يهودي، أن يتلو كلما مر بالقرب من المقابر، تلاوة مباركة، إذا كانت المقابر يهودية،

وإطلاق اللعنة على أمهات الموتى، إذا كانت المقابر غير يهودية[33].

ومن مظاهر التمييز العنصري في التلمود حظر أخذ الفائدة من اليهودي، ولكن وبحسب أكثر المراجع التلمودية، فإن الواجب الديني يفرض تقاضي فائدة عالية، إلى أقصى حد ممكن، على قرض يُعطى لغير اليهودي[34].

يشجع التلمود على قتل الأغيار: فقد درج الحاخام شمعون على القول: أفضل الأغيار اقتله، أفضل الأفاعي إسحق نخاعها[35].

يدعو التلمود إلى عدم مساعدة الأغيار الذين يسقطون في بئر والامتناع عن مد يد العون لهم[36]. ويفتي ابن ميمون بأن على اليهودي عدم مساعدة غير اليهودي إذا شوهد يسقط في البحر، لأنه مكتوب[37]: "وأنت لن تقف ضد دماء قرينك، ولكن الأغيار ليسوا أقرانك. وينبغي للطبيب اليهودي إلا يعالج مريضاً من الأغيار، إلا إذا كنت تخشى من عداوته، وتخاف من إيذائه". ومن المعلوم بأن ابن ميمون كان طبيباً لامعاً، وعمل بعد طرده من الأندلس طبيباً خاصاً لصلاح الدين الأيوبي.

حول عدم معالجة الأغيار يكرر ابن ميمون: الفارق بين القرين أي اليهودي، وبين الأغيار يستنتج قائلاً: وعليك أن تتعلم من ذلك بأنه ممنوع إبراء أحد الأغيار، حتى لقاء أجر[38].

وعلى المبدأ نفسه أفتى بعض الحاخامات الذين اعتمدوا على فتاوى ابن ميمون قائلين[39]: ومن المسموح تجربة عقار من العقاقير على الكافر إذا كان ذلك يفي بغرض ما.

يبيح التلمود الخداع في الأعمال التجارية والاحتيال على الأغبار وسرقتهم ونهبهم وسلبهم، بينما يحرمها على اليهود، ويهددهم بأقصى العقوبات[40].

نكتفي بهذه الأمثلة التي تثبت الكراهية والعداء لغير اليهود، وإلحاق الأذى بهم، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على تمييز عنصري بغيض، واضطهاد بشري كريه، لا تقبله جميع الأديان السماوية، ومنها الديانة اليهودية، التي بعث الله بها موسى عليه السلام، وكذلك تأباها الديانات الوضعية المعروفة، وجميعها تكرم الإنسان وتعلي من قدره وشأنه.

متى نحرر تاريخنا من الخرافات والأساطير اليهودية؟

مما يؤسف له أن كثيراً ما يُوظف التاريخ لتحقيق أهداف وغايات سياسية، ولذلك يرى كثيرون بأن كتابة التاريخ تُعد عملاً سياسياً. وبخاصة إذا اختار الكُتّاب نصوصاً منحازة، أو اعتمدوا على مراجع ومصادر دُوّنت لأغراض سياسية، كما هو الحال في الدراسات التوراتية التي ركزت – كما قلنا – على اختلاق كيان إسرائيلي قديم في فلسطين، على حساب الفلسطينيين الذين تجاهلت وجودهم، وشطبت تاريخهم القديم.

لقد أدرك الصهاينة أن استملاك الماضي هو جزء من سياسة الحاضر، وذلك باستثمار علمي الآثار والتاريخ وتوظيفهما سياسياً. وبهذا ندرك كيف أصبح علم الآثار والتاريخ التوراتي بالغي الأهمية منذ ظهور الحركة الصهيونية وقيام إسرائيل التي حاول مؤسسوها الارتكاز على مزاعم وأساطير وخرافات يهودية توراتية، لم يوليها المؤرخون العرب الاهتمام الكافي، والأدهى من ذلك أنهم راحوا ضحيتها،

واعتقدوا بصحتها. وللأسف لم يدركوا أن القصد من هذه المزاعم والأساطير إسكات التاريخ الفلسطيني وشطبه، كما سبق القول.

ولعل مما يحز في النفس ويؤلمها غياب تاريخ فلسطيني للماضي، أي، تاريخ مكتوب من منظور فلسطيني، كما قال، كنيث وايتلام. ويبدو أن كثيراً من المؤرخين – إن لم يكن كلهم – قد ركزوا على الفترة الحديثة، وهي التي بدأت بالصراع مع الصهيونية، لإثبات الهوية القومية، وللحصول على دولة فلسطينية. وكانت النتيجة كما قال وايتلام هو التنازل عن التاريخ القديم لمصلحة الغرب ودولة إسرائيل الحديثة.

– ربما كان الدكتور رشيد الخالدي، وهو مؤرخ معروف، وعمل – ولا يزال يعمل – في جامعات أميركية مشهورة، من الذين تنازلوا عن تاريخنا القديم في كتابه المنشور باللغة الإنجليزية وعنوانه الهوية الفلسطينية، صدر في عام 1997 من ضمن مطبوعات جامعة كولمبيا الشهيرة. وقد انتقدت الكتاب في مقال نشرته في جريدة الدستور الأردنية بتاريخ 17/ 7/ 2003، وعنوانه: لماذا التركيز على الهوية الفلسطينية الحديثة على حساب الهوية القديمة؟ وقلت فيه: من يقرأ الكتاب الموجه إلى القرّاء الأجانب لا يعرف شيئاً عن هوية فلسطين القديمة، ومن هو شعبها، وبهذا التجاهل ترك للإسرائيليين أن يسدوا هذا الفراغ على النحو الذي ذكرناه.

الدكتور الخالدي يهتم بتشكل الهوية الفلسطينية منذ أواخر العهد العثماني فقط، وكأنه قبل ذلك لم تكن هناك هوية فلسطينية، وإنما كانت الهوية يهودية، وأن الهوية الفلسطينية أشبه بالنبتة الشيطانية التي لا جذور لها، وأن الوعي والإحساس

بالوطن شيء حديث.

واستطردتُ في مقالي قائلاً: صحيح أنه ربما لم تكن هذه الهوية ظاهرة على السطح، فالهوية في العهد العثماني كانت إسلامية، لأن الانتماء كان للدولة العثمانية التي حكمت البلاد باسم الإسلام، ورفعت راية الخلافة الإسلامية وعدّتْ نفسها حامية للإسلام والمسلمين، ولكنّ ذلك لا يعني عدم وجود هوية وطنية فلسطينية في إطار هوية قومية عربية، إن هذه الهوية كانت في حالة كمون تنتظر عاملاً يفجرها ويخرجها من الباطن إلى الظاهر، وهذا ما حدث حينما رفع الأتراك شعار الطورانية وتعصبوا لأصولهم التركية، واضطهدوا العرب، وفرضوا عليهم سياسة التتريك، وإحلال اللغة التركية محل اللغة العربية في بلاد العرب، فثار العرب ورفعوا راية العروبة.

إذا أردنا للتاريخ الفلسطيني أن يظهر على حقيقته، ويصبح موضوعاً مستقلاً، فيجب علينا أن نحرره من الأسر التوراتي، وننقيه من الأساطير والخرافات التوراتية التي لا زال مؤرخونا يعدونها حقائق تاريخية. وليكن لنا قدوة في الهنود الذين تمكنوا من تحرير تاريخهم من سيطرة الدراسات والبحوث الاستعمارية إبان خضوع الهند للاستعمار البريطاني.

لقد كتبت عدة مقالات في الصحف أُطالب فيها المؤرخين العرب، وبخاصة الفلسطينيون بتحرير تاريخنا الفلسطيني من ربقة الدراسات التوراتية. ففي الخامس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2001 نشرتُ مقالاً في جريدة الدستور الأردنية بعنوان: إلى متى تظل التوراة مصدراً لتاريخنا القديم؟، قلت فيه: ينبغي لنا

تنقية كتبنا ومؤلفاتنا المتداولة بين أيدينا والمقررة بعضها على طلابنا في المدارس والمعاهد والجامعات من الإسرائيليات. وربما لا يخفى على أحد أن معظم مؤرخينا – إن لم يكن جميعهم – اعتمدوا في كتابة تاريخنا القديم على مراجع أجنبية اعتمدت على التوراة مصدراً أساسياً، ولذلك لا بد من إعادة كتابة التاريخ القديم بالاعتماد على البحوث الآركيولوجية الحديثة الموثوقة التي استندت على تنقيبات آثارية لمواقع في عدد من البلاد العربية مثل تل العمارنة بمصر، وشمرا وماري في سوريا، قام بها علماء ثقات، وكذلك البحوث الآركيولوجية التي قام بها علماء غربيون موضوعيون مثل تومبسون ووايتلام وتونكن وهيوز.

وفي الوقت نفسه طالبت بتحرير جغرافية فلسطين من الدراسات التوراتية، ففي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2001 نشرت في جريدة الدستور الأردنية مقالاً عنوانه: إلى متى تظل التوراة مصدراً لجغرافية فلسطين التاريخية؟ جاء فيه: وكما أدرك اليهود أهمية الزمان، أدركوا في الوقت نفسه أهمية المكان لاعتقادهم بأن تهويد فلسطين لا يتم إلا بالسيطرة على الزمان والمكان معاً، وفي آن واحد...فقد قاموا بتحريف أسماء معظم معالم أرض فلسطين، من قرى ومدن وجبال وأنهار وسهول ووديان، وزعموا أن أسماءها يهودية تثبت وجودهم القديم المختلق في فلسطين. فعلى سبيل المثال: أطلقوا على الجزء الأوسط من السهل الساحلي الفلسطيني سهل سارون، وعلى جبال الضفة الغربية: يهودا والسامرة، وزعموا أن بئر السبع، وبيسان، وبيت إيل، والقدس (أورشليم)...الخ أسماء يهودية، علماً بأن أصل هذه التسميات كنعانية. لقد تمكنوا من إقناع العالم بمزاعمهم، بينما نحن غائبون أو مغيبون.

لقد أقنع اليهود العالم، كما أقنعوا بعضنا للأسف – بهذه المزاعم عن طريق الكتب والنشرات والخرائط التي نشروها منذ القرن التاسع عشر، ولا زالوا يواظبون على نشرها. وكان صندوق اكتشاف فلسطين الذي أنشئ في 1865، في بريطانية وبرعاية الملكة إليزابيث يمول هذه الدراسات ويتولى طبعها وتوزيعها. وتمولها اليوم إسرائيل عبر مؤسساتها الرسمية والأهلية. ومن الأمثلة على ذلك نذكر أطلس الكتاب المقدس، وكتاب أرض التوراة: جغرافية تاريخية، وأطلس إسرائيل، وهو أطلس ضخم وفخم، اشترك في عمله عدد من المختصين اليهود في الجغرافية والتاريخ والاجتماع والسكان والاقتصاد والجيولوجيا والأرصاد...الخ. وفيه وضعوا الكثير من المعالم اليهودية ليثبتوا فيها يهودية فلسطين من قديم الزمان، وشطبوا كل المعالم العربية القديمة في فلسطين، وأظهروا العرب بمظهر الغزاة الطارئين الذين جاؤوا فلسطين إبان الفتح الإسلامي. لقد نجح اليهود في هذا بينما فشل العرب في عمل أطلس عربي موحد، وفشلت جميع المحاولات لإصدار هذا الأطلس، مثلما فشلت المشاريع العربية الموحدة.

لقد حرص اليهود على نشر كتبهم وأطالسهم بعدة لغات، وقاموا بتوزيعها على العالم، فأصبحت المراجع الوحيدة المعتمدة في المدارس والمعاهد الجامعات ومراكز البحوث العلمية.

لقد آلمني هذا السبات العربي والغياب الفلسطيني، وأنا لا أنكر أن بعض الباحثين العرب والفلسطينيين أجروا بحوثاً تاريخية وهي مهمة، على قلتها، إلا أنه لم تصدر أية بحوث جغرافية تتناول جغرافية فلسطين القديمة، بحيث تنصف العرب

وتعيد إليهم الاعتبار الذي سلبه منهم اليهود(*).

ومما آلمني أكثر، أنه عندما طلب إلي مراجعة الموسوعة الفلسطينية، وجدت اعتماد كثير من الكُتَّاب على الدراسات التوراتية، فعملت ما بوسعي لتحريرها وتنقيتها من هذه الدراسات مستعيناً بعدد من المؤرخين والجغرافيين المتخصصين في البلاد العربية. ولكن، وللأسف، فإن هذه الطبعة المصححة والمنقحة والمزيدة من الموسوعة الفلسطينية لم تصدر، بحجة عدم وجود المال اللازم لطبعها ونشرها، فضاعت أعمالنا سدى.

– نحن نلاحظ اليوم تركيز إسرائيل على سرقة الزمان والمكان الفلسطينيين بأبعادهما المختلفة، وإذا كانت البداية تمثلت في سرقة الماضي، فهي اليوم تركز على الحاضر ليصبح منسجماً مع الماضي المختلق. وتتمثل سرقة الحاضر بهدم المعالم العربية والإسلامية في فلسطين، أو تغيير معالمها في المدن والقرى والبلدات، وخلق واقعاً جديداً على الأرض، به تتمكن من تهويد كامل التراب الفلسطيني. حتى التراث الفلسطيني لم يسلم من السطو اليهودي، فقد بُذلت الجهود الحثيثة لإيهام العالم بأن هذا التراث، والمتمثل في بعض جوانبه ومظاهره في الملبس والمأكل، تراث يهودي. فمتى نفيق ونستيقظ؟!

(*) تجدر الإشارة إلى الجهود الطيبة التي قام بها نفر من الباحثين، نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور سلمان أبو ستة الذي أسس في لندن هيئة أرض فلسطين، حيث صدر عنها أطالس وخرائط قيمة تبين المعالم الجغرافية العربية لفلسطين. وننوه أيضاً بالكتاب القيم الذي أصدره الدكتور وليد الخالدي: "كي لا ننسى، قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شهدائها.

الخلاصة:

يُعد العهد القديم والتلمود أهم الكتب اليهودية المقدسة المتداولة حالياً. ويحتوي العهد القديم على تسعة وثلاثين سفراً، يُطلق على الخمسة الأولى منها التوراة، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية، ويُقال بأنها دُوِّنت في عصر موسى عليه السلام، ولكن هناك من يُشكك في ذلك، ويعتقد أنها كُتبت بعد وفاته بمدة طويلة.

يحتوي العهد القديم على كثير من الأساطير والخرافات، مما جعل العلماء والباحثين يطعنون في مصداقيتها التاريخية، وأنها تتعارض مع البحوث والدراسات والحفريات التي قام بها علماء مختصون، من بينهم يهود. وأن كثيراً من نصوص العهد القديم كانت تهدف إلى اختلاق دولة إسرائيل القديمة، على حساب التاريخ الفلسطيني القديم بإسكاته وشطبه نهائياً، وهذا – وللأسف – لم يتنبه له المؤرخون العرب الذين اعتمدوا في كتابة تاريخ فلسطين القديم على مراجع جعلت من العهد القديم مصدراً موثوقاً لهذا التاريخ.

وكثير من نصوص العهد القديم تسيء للأنبياء وتُحقِّرهم، وتلصق بهم تهماً مسيئة أو مخجلة، مما ينفي عنها صفة القداسة، ويجعلنا نطعن في نسبتها إلى الله الذي اختار رسله وأنبيائه وكرّمهم، ووصفهم بأنبل الصفات وأكرمها وأحسنها.

أمّا التلمود فيحظى عند اليهود بأهمية تفوق العهد القديم، ويحتوي على كثير من فتاوى وآراء واجتهادات حاخامات اليهود تطفح بالتميز العنصري والتعصب الشديد لليهود، وتحقير غيرهم، وسبّهم ولعنهم وإيذائهم.

ينسب الحاخامات اليهود التلمود إلى موسى عليه السلام، ويدعون أنه جاء إلى جانب القانون المكتوب، الذي تلقاه موسى على جبل سيناء. ويُعد أل "مِشْنا" أساس التلمود. أمّا أل "جمارا" فيحتوي على تحليل ما في الأول "مشنا" من آراء واجتهادات. ويُعد "التلمود البابلي" أهم من التلمود المقدسي.

إن من يطلع على التلمود المتداول حالياً، والذي يطفح بالتمييز العنصري، وسب غير اليهود "الأغيار" ولعنهم وشتمهم وتحقيرهم، وإلحاق الأذى والضرر بهم، لا يمكن أن يصدق بأن موسى عليه السلام له علاقة بهذا التلمود، إنه بريء منه، وبريء من اليهود الذين أساءوا إلى الديانة اليهودية في زمانه، وبريء من أعمالهم الإجرامية التي لا تقرها الأديان السماوية والوضعية.

المراجع

1. Finkelstein, Israel and Silberman, N.A, op. cit, p.5.

2. أحمد سوسة، مرجع سابق، ص73.

3. Finkelstein, Israel and Silberman, N.A, op. cit, p.36-37.

4. كمال الصليبي، مرجع سابق، ص15.

5. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مرجع سابق، ص261.

6. أحمد الشقيري، خرافات يهودية، بدون ناشر، الطبعة الأولى، كانون الأول/ ديسمبر 1981.

7. المرجع نفسه، ص19.

8. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر، 10–13.

9. المرجع نفسه، سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر، 14–20.

10. أحمد الشقيري، مرجع سابق، ص21.

11. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر، 30–37.

12. المرجع نفسه، سفر التثنية، الإصحاح الثاني والثلاثون، 48–52.

13. سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر، 3-26.

14. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الثامن والعشرون، 12–14.

15. الكتاب المقدس، سفر يشوع، الإصحاح العاشر، 14.

16. Finkelstein, op. cit, p.91.

17. المرجع نفسه، ص62.

18. المرجع نفسه، ص72–73.

19. المرجع نفسه، ص72–96.

20. روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة حياة الحويك عطية، وتقديم كامل الشريف، مطابع الدستور، عمان – الأردن، 1997م.

21. كيت وايتلام، مرجع سابق، ص28.

22. المرجع نفسه، ص59.

23. المرجع نفسه، ص67.

24. المرجع نفسه، ص92–93.

25. Pranaitis, I.B, The Talmud Unmasked: The Secret Rabbinical Teachings concerning Christions, st. Petersburg Printing office of the Imperial Academy of Sciences, 1892.

26. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول، ص573.

27. المرجع نفسه.

28. المرجع نفسه.

29. إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، وطأة 3000عام، ترجمة رضى سلمان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الخامسة 1999م، ص52.

30. المرجع نفسه، ص52–53.

31. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول، ص573.

32. إسرائيل شاحاك، مرجع سابق، ص46.

33. المرجع نفسه، ص51.

34. المرجع نفسه، ص79.

35. المرجع نفسه، ص133

36. المرجع نفسه.

37. المرجع نفسه، ص136.

38. المرجع نفسه، ص137.

39. المرجع نفسه.

40. المرجع نفسه، ص149، 150.

الفصل السادس

الصهيونية

- الصهيونية – ماهيتها وحقيقة تسميتها.
- الصهيونية – جذورها واهية.
- الصهيونية وارتباطها بالحركات الاستعمارية والأطماع الإمبريالية.
- صهاينة ومتصهينون.
- الصهيونية العدو الحقيقي لليهود.

الفصل السادس

الصهيونية: القومية المختلقة

الصهيونية موضوع واسع وكبير ومتعدد الجوانب ومتشعب الأبعاد، تناوله كثير من الباحثين، ونشروا كتباً وبحوثاً بحثوا فيها الصهيونية بشكل مفصل، وتتبعوا نشأتها وحللوا أبعادها، وبينوا أهدافها، وأظهروا ما لها وما عليها. وأعتقد بأن المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيري قد استوفى معظم جوانب الموضوع في عمله الرائع "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، فاستحق بهذا العمل الرائد أن يكون أفضل جهد عربي وأكمله، ولكن لا أدري لماذا لم يوثق الدكتور المسيري، وهو باحث أكاديمي مرموق سعدت بزمالته بجامعة الكويت، مادته العلمية؟. وللأسف لم يذكر أي مرجع اعتمد عليه في المجلدين الأول والثاني من موسوعته الموجزة. ومن المعلوم بأن عدم التقيد بالتوثيق وأصوله، يقلل من قيمة البحوث العلمية، بل يشكك في مدى صدقيتها.

على الصعيد العالمي، صدرت الكثير من المقالات والبحوث والدراسات عن الصهيونية، والتي ليس من السهل حصرها في هذا المقام، لكنه قد يكون من المفيد أن نشير إلى آخر ما صدر عن الصهيونية، كتاب باللغة الإنجليزية في ثلاثة أجزاء عنوانه: "الصهيونية: العدو الحقيقي لليهود"، صدر الجزء الأول منه في كانون الأول/ ديسمبر 2009، والثاني في شباط/ فبراير 2010، وسيصدر الثالث قريباً.

سنركز هنا على جوانب مهمة من جوانب الصهيونية، منها الادعاء بأن الصهيونية قومية اليهود في شتى أنحاء العالم. وهو ادعاء زائف ومختلق، حاول الصهاينة بموجبه إيهام العالم بأن اليهود ليسوا مجرد جماعات دينية تدين باليهودية، وإنما هم عرق أو شعب أو مجموعة إثنية متجانسة. وهذا ما نفيناه بالبراهين والأدلة في الفصل الثاني من الكتاب، واستشهدنا بما كتبه علماء وباحثون يهود وغير يهود، تدعم آراءنا وطروحاتنا.

وسنركز أيضاً على العلاقة الوثيقة والقوية بين الصهيونية والقوى العالمية الكبرى وأطماعها في منطقتنا العربية. وسنبين أنه على الرغم من تمكن الصهيونية من جذب اليهود إليها واستقطابهم، فإنها تشكل خطراً عليهم، كما أثبت كثير من كتاب وباحثين وعقلاء يهود، سنذكر أبرزهم.

قد يكون من المناسب أن نبدأ بإعطاء القارئ الكريم فكرة موجزة عن الصهيونية من حيث معناها ومغزاها، ونشأتها وتطورها، لتكون الخلفية التي نستعين بها على توضيح ما نطرحه من أفكار ووجهات نظر، وفي الوقت نفسه، قد تفيد الذين يحتاجون إلى تنشيط ذاكرتهم عن حقيقة الصهيونية.

أصل التسمية:

الصهيونية، مصطلح حديث، منسوب إلى مكان مرتفع – تل أو جبل – في القدس. ومن المعلوم بأن صهيون تسمية كنعانية، وليست يهودية – كما يظن بعضهم – والكنعانيون عرب، سكنوا فلسطين قبل أن يعرفها اليهود، ولذلك كانت فلسطين تسمى (أرض كنعان)، وأن بطناً من بطونهم، وهم اليبوسيون بنوا القدس، التي عُرفت أنذاك باسم "يبوس".

هذه حقائق معروفة للجميع، حتى أن قاموس "وبستر" الشهير، يقول: إن صهيون اسم لقلعة كنعانية، اتخذت بعد ذلك رمزاً للحركة الصهيونية. ومن المعروف بأن القلاع آنذاك كانت تقام على المرتفعات كالجبال والتلال.

وقد تكون من الأدلة على عروبة كلمة صهيون، وجود عائلات فلسطينية تحمل هذا الاسم وبخاصة في مدينتي القدس وغزة. وكان "راجي صهيون" من أبرز الإذاعيين في إذاعة القدس إبان الانتداب البريطاني.

يُقال بأن المفكر اليهودي "ناثان برنباوم" Nathan Birnbaum (1864–1937م) قد اشتق "الصهيونية" من كلمة "صهيون"، لتدل على اسم حركة هدفها تجميع اليهود في أرض فلسطين، ذلك أن لهذه الكلمة سحرها وجاذبيتها عند اليهود.

ظهورها كحركة:

لقد ظهرت الصهيونية حركة أيديولوجية لها مفهومها وأهدافُها ومقاصدُها في القرن التاسع عشر. وهو القرن الذي تميز بانتشار الأيديولوجيات القومية في أوروبا، والذي قامت على أساسها الدول الحديثة الأوروبية. وارتبط بهذه النشأة نشاط الاستعمار الأوروبي في العالم، وما رافق ذلك من نزاع وصراع وحروب بين الدول الكبرى الاستعمارية آنذاك.

وقد تأثر اليهود الأوروبيون آنذاك بالفكر القومي، وفكروا في اختلاق قومية لليهود مثل سائر الشعوب الأوروبية التي تمكنت من صياغة أيديولوجيات قومية استوحتها وصاغتها من النظرية القومية آنذاك، التي تشكلت من عناصر أساسية

ورئيسية لعل من أهمها: وحدة الأصول العنصرية أو العرقية. وقد صُرف النظر عنها فيما بعد، لما تحمله كلمة العنصرية من تمييز كريه، وحلت محلها وحدة الأصول الحضارية أو الثقافية – على الرغم من الفارق الكبير بين الحضارة والثقافة.

ومن العوامل الأخرى التي اعتُمد عليها في عملية تنظير الفكر القومي: اللغة الواحدة، والتاريخ والتراث المشترك، والروابط الإقليمية أو الجغرافية. وهي كلها عوامل اعتمدت على البعدين: الزماني والمكاني. وقد عُبّر عن البعد الزماني بالتاريخ، بينما تجسّد البعد المكاني في الأرض أو الوطن الذي استوطنته جماعة من البشر ونشأت وتربت على أديمه، وعاشت على ترابه، وتفاعلت معه عبر الزمن، مما أدى إلى تجانس هذه المجموعة البشرية، وانتمائها لهذا الوطن والاستفادة من موارده وإمكانياته، وتحملها مسؤولياته، كالدفاع عنه، ونشوء مصالح وقواسم مشتركة بين الأفراد. وكانت محصلة كل هذا في نهاية الأمر ما سُمي بالشعب.

وبتفاعل الشعب بالمكان، الذي أصبح وطنه وبيئته، بالزمان الذي عُني بتسجيل أحداثه وحوادثه، تشكل التراث الذي كان أساس الثقافة لهذا الشعب. ومن هذه الثقافة استمد الشعب هويته التي تميزه عن غيره من الأمم والشعوب الأخرى.

ونظراً لما للتاريخ من أهمية في صياغة الفكر القومي وتنظيره، فقد بذلت معظم الدول القومية الحديثة في أوروبا جهوداً كبيرة في سعيها لفهم ماضيها، معتمدة على روايات مذكورة في التاريخ، أو أقوال كانت تتناقلها الأجيال شِفاهة

قبل تدوينها، ثم تبنتها جهات رسمية لتؤكد بها مظاهر معينة من هويتها القومية، منكرة ما عداها من روايات تنقضها أو تنفيها.

واليهود الأوروبيون – كما هو معلوم – كانوا جزءاً من النسيج البشري الأوروبي، وهم، كما قلنا سابقاً – ينتمون إلى شعوب القارة الأوروبية، ولذلك كان من الطبيعي أن يتأثروا بالحركات القومية التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، كما ذكرنا.

وكان اليهود آنذاك يشعرون بالاضطهاد وكره الأوروبيين لهم. وهذا الكره ليس لأسباب عنصرية أو عِرْقية، لأنه ليس هناك عرقٌ أو جنسٌ يهودي، وإنما لأسباب دينية بحتة، فاليهود كانوا يتعاملون مع مواطنيهم ومع الشعوب الذين ينتمون إليها، كما تمليه عليهم كتبهم المقدسة، وبخاصة التلمود الذي يطلق مصطلح الأغيار على غير اليهود، ويطالب اليهودي بألا يعامل الأغيار كما يعامل من يدين بدينه. وقد ذكرنا في الفصل السابق أمثلة على ذلك منها: شتم المسيح وإهانته، والتعامل بالربا الفاحش مع الأغيار، مما أثار حفيظة الأوروبيين وكراهيتهم لليهود، عبّر عنها الأديب الإنجليزي الشهير "وليم شكسبير" في روايته المعروفة "تاجر البندقية".

وبدلاً من أن يُحمِّل اليهود أنفسهم مسؤولية كره الأوروبيين لهم، أخذوا يبحثون عن وسيلة للخلاص من هذا الكره، فاعتقدوا أن هذا الخلاص لن يتحقق إلاّ إذا تمكنوا من إقامة دولة لهم يحتمون بها وتدافع عنهم وعن مصالحهم. واعتقدوا أيضاً بأن إقامة الدولة يجب أن يستند إلى أسس قوية تعتمد على أيديولوجية،

فوجدوا ضالتهم في الفكر النظري القومي الأوروبي، ومنه استوحوا الصهيونية التي أرادوها أن تكون قومية اليهود. وكما قال "كيث وايتلام" تأييداً لما نقول في كتابه سابق الذكر[1]: "ولكن من المهم ألاّ يغرب عن أذهاننا أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت في سياق تكوين وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية نفسها، وقد انتقل ذلك إلى الشرق الأوسط، وبخاصة عند إنشاء دولة إسرائيل الحديثة وانتشار قوميات منافسة في المنطقة".

البحث عن جذور تاريخية للصهيونية:

يبدو أن الذين اختلقوا الصهيونية كانوا من الذكاء والدهاء، حينما حاولوا تجذير الفكر الصهيوني ليضرب بجذوره في أعماق التاريخ، كي ينفوا التهمة القائلة: بأن الصهيونية فكرة حديثة مُخْتلَقة، هدفها اختلاق هوية قومية لليهود بالارتكاز على عواطف دينية، قاموا بعَلْمَنتِها بعد أن أفرغوها من محتواها الديني، وزيفوها بمحتوى عَلْماني.

لقد زعموا بأن الصهيونية موجودة في التراث اليهودي. وهي تشير إلى جبل صهيوني في القدس، والذي يرمز إلى فلسطين – الأرض المقدسة، وهي – كما زعموا – مهوى أفئدة اليهود، وبخاصة في فترة السبي البابلي، فقد جاء في المزمور رقم 137 من العهد القديم ما نصه:

"على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون. على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا. لأن هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمةٍ، ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون.

كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة. إن نسيتك يا أُورشليم تنسى يميني، ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أُفضل أورشليم على أعظم فرحي".

لا شك في أن من أهداف البحث عن جذور قديمة للصهيونية اجتذاب أكبر عدد من اليهود، وبخاصة المتدينون الذين تدغدغ عواطفهم المشاعرُ الدينية، وتذكرهم بالسبي البابلي، وتوهمهم بأن القدس لهم، وفي الوقت نفسه، فإن الصهاينة يريدون إيهام العالم بأن اليهود ليسوا أقل شأناً من الأوروبيين الذين اعتمدوا على الأبعاد التاريخية حينما صاغوا أيديولوجياتهم القومية، وليثبتوا على أن هذه القومية اليهودية التي صاغوها، على تاريخ كاذب ومختلق، أعمق وأكثر بعداً في التاريخ من أي قومية أوروبية وغير أوروبية.

وتطبيقاً للمثل القائل: - من فمك أُدينك يا إسرائيل - فإننا ندحض الادعاء بحق اليهود في القدس وسائر فلسطين. فالتوراة التي يعتمد اليهود الصهاينة عليها في الادعاء بحقهم في القدس تعترف بعروبتها، وتقول بالحرف الواحد[2]: "وذهب الملك "داود" ورجاله إلى أورشليم، إلى اليبوسيين سكان الأرض".

وكما يتمسك الفلسطينيون بالقدس وفلسطين اليوم، فقد تمسك أجدادهم من قبل منذ آلاف السنين، وقد شهدت التوراة بذلك[3]: "وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقو بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم".

وفوق هذا وذاك تعترف التوراة أيضاً بأن اليهود لم تكن لهم علاقة بنشأة القدس، وكانوا عنها غرباء قبل أن يتمكن داود من غزوها. وتقول الرواية

التوراتية: إنه حين حاول بعض الإسرائيليين دخول أجزاء من أرض كنعان (فلسطين) بقيادة يشوع، كان رجل إسرائيلي وامرأته وغلامه مسافرين ذات يوم، فأدركهم الليل. وهنا تقول التوراة حرفياً[4]: "وفيما هم عند يبوس (القدس) والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين (القدس) هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا".

الصهيونية والاستعمار والمصالح المشتركة:

ذكرنا فيما سبق تزامن نشوء الدول الحديثة الأوروبية على أسس قومية، واتساع النشاط الاستعماري، وظهور الحركة الصهيونية. ولم يكن هذا التزامن من قبيل الصدفة، وإنما كان هناك ارتباط قوي بين نشأة هذه الدول، والنشاط الاستعماري، والحركة الصهيونية. وكانت المصالح المشتركة من أقوى عوامل الارتباط بينها جميعاً، إن لم تكن أقواها على الإطلاق. وكان كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة يقوم على استغلال بعضها بعضاً بما يخدم مصالحه، ويحقق أهدافه، وينفذ مخططاته. فكما اعتمدت الصهيونية على الاستعمار والقوى الأوروبية الكبرى في تحقيق حلمها بإقامة دولة لليهود في فلسطين، فإن هذه القوى حاولت استغلال اليهود، والاستفادة من الحركة الصهيونية، في تنفيذ مخططاتها الاستعمارية في المنطقة العربية. وفي الوقت نفسه قام التحالف فيما بين هذه الأطراف لمنع قيام وحدة عربية، وإجهاض كل حركة نهضوية عربية، وإثارة الفتن والصراعات والنزاعات في المنطقة مما يُشغل دول المنطقة في خصومات محلية، ويبعدها عن

التفكير في توحيد صفوفها، ويجعلها مضطرة للاستعانة بها ضد بعضها بعضاً، وتختلق لها عدواً من ذاتها، يصرفها عن أعدائها الحقيقيين من الخارج. وهذا ما حدث بعد قيام إسرائيل، ولا يزال يحدث حتى يومنا هذا.

حينما ظهرت الحركة الصهيونية، كانت الأقطار العربية – كلها تقريباً فيما عدا المغرب وقلب شبه الجزيرة العربية – خاضعة للإمبراطورية العثمانية أو التركية، التي كانت في أسوأ حالاتها، وأردأ أوضاعها، مما جعل الأوروبيين يطلقون عليها مصطلح "رجل أوروبا المريض"، الذي ينتظر الجميع وفاته لاقتسام تركته.

كان "نابليون بونابرت" أول زعيم أوروبي، في القرن التاسع عشر، يبدي تودده لليهود واستغلالهم لتحقيق مصالح فرنسا التي كانت على خلاف ونزاع مع بريطانيا. فحينما غزا نابليون مصر في عام 1898، وسار بعدها إلى فلسطين، وجه نداءً لليهود، دعاهم فيه إلى ما سمّاه بالعودة إلى أرض أجدادهم – كما زعم فلسطين – قائلاً بأن فرنسا على استعداد لمساعدتهم في تحقيق هذه العودة.

وكما هو معلوم فإن هذا الوعد لم يتحقق آنذاك لأن الحركة الصهيونية لم تكن قد تبلورت، ولم تتوافر لها الآليات والوسائل التي يمكن بها تحقيق نداء نابليون ودعوته لليهود.

ولا شك في أن الفضل يرجع إلى الزعيم اليهودي والصحافي النمساوي المعروف "ثيودور هرتزل" Theodor Herzl، (1860–1904) في بلورة الفكر الصهيوني وأدلجته – أي تنظيره – وإيجاد الأُطر والآليات والوسائل المناسبة لتنفيذه على أرض الواقع. وقد شرح ذلك ووضحه في كتابه الشهير "دولة اليهود".

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يتزامن تبلور الفكر الصهيوني وأدلجته مع المد الاستعماري الأوروبي في القرن التاسع عشر، وإنما ليؤكد على الترابط الوثيق بينهما، وعلى المصالح المشتركة، كما ذكرنا سابقاً. فقد كان هرتزل وزملاؤه في الحركة الصهيونية يحرصون على الاستفادة من القوى الكبرى ومشاريعها الاستعمارية في المنطقة العربية من أجل تحقيق أحلامهم بإقامة دولة لليهود في فلسطين. وكلنا يعلم أنه لولا دعم القوى الأوروبية الكبرى، وعلى رأسها بريطانيا، لما تمكنت الصهيونية من إقامة دولة إسرائيل. وفي الوقت نفسه وجدت القوى الكبرى في الحركة الصهيونية ما يمكنها من تحقيق غاياتها وأهدافها في المنطقة العربية، كما أسلفنا، ووجدت فيها الحل الأمثل لما كان يُسمى في أوروبا آنذاك بمصطلح "المسألة اليهودية"، والتي تفاقمت وتزايد خطرها بعد هجرة اليهود المكثفة من روسيا القيصرية نتيجة لما تعرضوا له من اضطهاد ومضايقات، وتوجههم إلى أقطار غرب أوروبا، وبخاصة بريطانيا، لازدهار أوضاعها واستقرار أحوالها آنذاك.

يذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري أن عقداً غير مكتوب، يسميه العقد الصامت، قد تم بين الصهيونية والقوى الاستعمارية. ويُعرَّف العقد الصامت: "بأنه الذي يُغيّر نفسه من خلال سلوك الأفراد والجماعات والمؤسسات. وبموجب هذا العقد[5]: "تتعهد الحركة الصهيونية بإخلاء أوروبا من يهودها – أو على الأقل الفائض البشري اليهودي – وتوطينهم في منطقة خارج هذا العالم الغربي – داخل دولة وظيفية – ويتحقق نتيجة ذلك عدة أهداف أهمها[6]: يؤسس المستوطنون، في موقعهم الجديد، قاعدة للاستعمار الغربي، وتتعهد الصهيونية بتحقيق مطالب الغرب ذات الطابع الاستراتيجي، ومنها الحفاظ على تفتت المنطقة العربية.

أمّا الأهداف الأخرى فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. يتم بذلك تخليص الغرب من اليهود الزائدين، باستيعابهم في الموقع الجديد، وتحويل فيض المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية، أي يهود اليديشية، إلى ذلك الموقع.

2. ستقوم الحركة الصهيونية بالسيطرة على الشباب اليهودي المهاجر وتسريب طاقته الثورية من خلال القنوات الصهيونية.

3. ستقوم الحركة اليهودية بحشد يهود العالم وراء المشروع الصهيوني الغربي بحيث يصبحون عملاء ووكلاء للغرب أينما كانوا.

4. ستقوم الحركة الصهيونية بتجنيد يهود الغرب الأثرياء لدعم هذا المشروع الغربي من دون أن تطالبهم بالهجرة.

5. وعن طريق نقل اليهود، ستقضي الصهيونية على معاداة اليهود في الغرب، والتي يطلق عليها مصطلح "اللاسامية".

وفي مقابل ذلك يقوم الغرب برعاية هذا المشروع الصهيوني ودعمه، كما يساعد الحركة الصهيونية في الهيمنة على يهود الغرب، الذين يشكلون غالبية يهود العالم.

لقد بدأ تنفيذ هذا العقد الصامت على أرض الواقع، عندما دعمت القوى الأوروبية الكبرى هجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين، تمهيداً لإنشاء كيان لهم فيها. وقد بدأ التفكير في إقامة هذا الكيان بعد قيام محمد علي باشا بتحديث مصر،

واحتلال بلاد الشام التي تُعد المجال الحيوي لمصر، والركن الأساسي الذي من دونه لا تتم الوحدة العربية. وقد شعرت القوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، بالانزعاج الشديد من احتلال الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا بلاد الشام ودخول الأراضي التركية، وخشيت من تمكن محمد علي مسك زمام السلطة في تركيا وبعث حياة جديدة في جسد رجل أوروبا المريض (تركيا)، فيقضي على الأطماع الغربية في أملاك الإمبراطورية التركية. وفي الوقت نفسه فإن نهضة مصر واتساع نفوذها في المنطقة سيؤدي إلى وحدة الأراضي العربية، وهذا ما لا تقبل به القوى الأوروبية الكبرى التي تنتظر وفاة رجل أوروبا المريض لتتقاسم هذه الأراضي فيما بينها، وهذا ما حدث فيما بعد بموجب اتفاقية "سايكس – بيكو" في عام 1916م.

وبناءً عليه جردت القوى الأوروبية الكبرى حملة بحرية بقيادة القائد البريطاني "كودرنجتن"، اشترك فيها إلى جانب بريطانيا، روسيا وألمانيا ثم انضمت فرنسا، وضربت الجيش المصري عند بيروت وأجبرته على الانسحاب إلى داخل الأراضي المصرية، وفرضت على محمد علي باشا شروط اتفاقية لندن المذلة في عام 1840. وتتالت الأحداث التي لا مجال لسردها هنا، بإجهاض مشروع محمد علي النهضوي، وحل الجيش المصري، ثم احتلال مصر في عام 1882 والقضاء على ثورة عرابي باشا ونفيه إلى سيرلانكا، وبُدئ بوضع قواعد كيان عازل في فلسطين، يعزل مصر ويفصلها عن محيطها العربي، ويمنع أية محاولة لقيام وحدة عربية. ولا شك في أن

صدور وعد بلفور في 2/ 11/ 1917 كان بمثابة القاعدة والأساس الذي قام عليه هذا الكيان، وهو إسرائيل...وبقية القصة معروفة للجميع.

الصهيونية قومية مختلقة:

فلنا بأن "ثيودور هرتزل" هو الذي بلور الحركة الصهيونية وأدلجها، وطورها من مجرد رؤية أو فكرة إلى مشروع عملي وبرنامج فعلي قابل للتنفيذ، ووضع آليات هذا البرنامج ووسائل تنفيذه في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، وهو "دولة اليهود".

كان من أهم الوسائل التي اعتقد "هرتزل" بأنها ضرورية وأساسية لقيام دولة اليهود، الاستعانة بالقوى الكبرى وعلى رأسها بريطانيا لدعم المشروع الصهيوني، والضغط على يهود أوروبا، وإرهابهم وإشعارهم بعدم الأمان في أوطانهم الأوروبية، وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين، ودعم هذه الهجرة وتمويلها، وامتلاك الأراضي في فلسطين، وطرد السكان العرب في فلسطين بعدة وسائل منها؛ وضعهم في ظروف اجتماعية وأمنية واقتصادية وسياسية صعبة تضطرهم إلى الرحيل.

لقد كان من أهم عوامل تطوير الحركة الصهيونية وأدلجتها، تحويل "هرتزل" المسألة اليهودية في أوروبا من مسألة دينية أو اجتماعية إلى مسألة قومية، وبأنها لا يمكن حلها إلاّ بجعلها قضية سياسية على مستوى العالم، وأن هذا الحل لا يتحقق إلاّ بقيام دولة لليهود، وهي تختلف عن الدولة اليهودية التي كان يتطلع اليهود المتدينون إلى قيامها، وربطوا ذلك بعودة مسيحهم "ألْ ماشيا" Mashiah. وقد أخطأ كثير

من الكتاب العرب حينما أطلقوا على كتاب هرتزل "الدولة اليهودية" بدلاً من دولة اليهود، والفارق كبير بينهما، إذ أن الدولة اليهودية تُعبِّر عن مفهوم ديني، بينما "دولة اليهود" الذي نادى بها هرتزل، ووضع أسس قيامها ذات مفهوم علماني.

وبناء عليه فإن الصهيونية أعادت صياغة الهوية اليهودية، من هوية دينية، إلى هوية قومية تقوم على مرتكزات ومنطلقات قومية مستنسخة عن أيديولوجيات الفكر القومي الأوروبي في القرن التاسع عشر، التي كان هدفها في النهاية قيام دولة قومية موحدة، كما حدث في إيطاليا وألمانيا. ولكن هذا لا ينطبق على اليهود. ففي كل من إيطاليا وألمانيا يوجد شعب متجانس تاريخاً وحضارة وثقافة، وله أسسه وقواعده الإثنوجرافية، بينما اليهود فالدين هو القاسم المشترك الوحيد الذي يجمعهم، وفيما عدا ذلك فإنهم ينتمون إلى الشعوب والمجتمعات التي يعيشون فيها ويعدون جزءاً منها. وعلى الرغم من ذلك فإن الصهيونية تجاهلت كل هذا، وظنت بأنها قادرة على خلق هوية قومية لليهود عن طريق عَلْمنة الإحساس بالانتماء الديني والطائفي والارتباط الروحي بأرض الميعاد، وتحويل هذا كله إلى إحساس قومي مبرمج سياسياً.

ولكي تُرسِّخ الصهيونية فكرة القومية اليهودية التي اختلقتها، وتؤكدها ويُشاع استخدامها ألغت الوصف الذي كان يُطلق على اليهود بأنهم جماعة دينية، واستخدمت كلمة "الشعب" بالمفهوم القومي والعرقي الذي كان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر[7]. وحتى يتم أدلجة ذلك قومياً فقد اختلق الصهاينة لها تاريخاً، استوحوه من التوراة وأسفار العهد القديم. وأطلقوا عليه "التاريخ اليهودي"، ومنه صاغوا "التراث اليهودي" و"الثقافة اليهودية"، وقالوا: إن

العقيدة الدينية هي مجرد جزء من التراث اليهودي الذي يُعد من ركائز القومية ومتطلباتها.

إن الأفكار التي حاول الصهاينة بثّها بين اليهود، ونشرها بين الناس وتسويقها عليهم لا أساس لها من الصحة، ذلك أنه ليس ليهود أوروبا الذين ينتمون إلى الشعوب الأوروبية، علاقة بالشرق، من حيث القرابةُ والأصلُ والانتماءُ، كما أنه ليس لهم تاريخٌ خاص مميز عن غيرهم، فتاريخُهم هو تاريخُ الشعوب الأوروبية التي هم جزء منها، وثقافتُهم هي نفس ثقافة تلك الشعوب. والشيءُ نفسه ينطبق على التراث. فقد ظهر بين اليهود في أوروبا علماء ومفكرون وفلاسفة كثيرون معروفون، ولا داعي لذكرهم، صنفوا بأنهم أوروبيون، واعتزت بهم وتفاخرت بهم الشعوب التي ظهروا فيها. لقد كانوا ولا شك نتاج الحضارة والثقافة الأوروبية، ولا علاقة لهم بما سمي بـ" التاريخ اليهودي"، و"التراث اليهودي" و"الثقافة اليهودية"، وهي تسميات زائفة اختلقتها الصهيونية ونشرتها وسوقتها على الناس، وانخدع بها كثيرون، ومنهم عرب للأسف.

إن يهود أوروبا ينتمون – كما قلنا – إلى حضارة أوروبا، وتراث شعوبها وثقافتهم، مثلما ظهر علماء ومفكرون وفلاسفة يهود في الدولة العربية الإسلامية، وكانوا من نتاج بيئتها الحضارية والثقافية، وساهموا مع رعايا هذه الدولة من شتى الملل والنحل والعقائد والمذاهب في النهضة والتقدم العلمي، ونشروا مؤلفاتهم وكتبهم باللغة العربية، ولذلك عُدّت من التراث العربي الإسلامي، لأن اليهود كانوا آنذاك – ومنهم من كان من أصول عربية – من النسيج البنيوي للدولة العربية الإسلامية، والتي عاشوا عصرهم الذهبي في ظلها.

وعلى الرغم من علمنة الصهيونية للمشاعر والعواطف الدينية عند اليهود فإنها حاولت الإبقاء على ظواهرها وشكلها الخارجي، فعلى سبيل المثال تم الاحتفاظ بمصطلح "أرض صهيون" لحساسيتها الدينية، وتعلق اليهود، وبخاصة المتدينون، بهذه الأرض منذ السبي البابلي، كما ذكرنا سابقاً في المزمور 137 من العهد القديم. ولكن الصهيونية التي، كما قلنا أبقت على الشكل وغيّرت الجوهر، فحوّلت أرض صهيون من عاطفة وحنين ديني إلى مجرد أرض للاستيطان، وهو في حد ذاته استعمار إحلالي، لأن هدفه طرد السكان الأصليين لإحلال اليهود محلهم. ونزعت فكرة شعب الله المختار الواردة في التوراة، والمستندة على الدين فقط، وحولتها إلى شعب اختلقت له مقومات زائفة كالتاريخ والتراث والثقافة، كما سبق القول. وحوّلت الشوق والحنين إلى أرض صهيون عند اليهود إلى شعب هدفه الاستيطان في وطن كسائر شعوب العالم. وابتدعت المقولة الزائفة الكاذبة التي سبق ذكرها وهي: "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"، وهي مقولة لم تنطل إلاّ على الجهلاء أو السذج والبلهاء، فالجميع يعلم أن وطن اليهود الأوروبيين الذين ابتدعوا الصهيونية في أوروبا، وأن فلسطين أرض مأهولة بسكانها منذ آلاف السنين، وهي ليست خالية تنتظر قدوم هؤلاء اليهود الدخلاء المستعمرين حتى يستوطنوها ويعمروها.

لا شك في أن هذه المقولة الزائفة والكاذبة "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض" والتي اتخذتها الصهيونية شعاراً لها، تتناقض مع ادعاءاتهم الأساسية وتنقضها. فإذا كانت فلسطين أرضاً بلا شعب، كما تزعم الصهيونية، فمعنى ذلك أنها بلد بلا تاريخ، لأن التاريخ يصنعه البشر، فكيف يكون هناك تاريخ لمكان خالٍ

من السكان؟. وإذا كانت فلسطين خالية من السكان فهذا يعني أنه لم تشهد وجوداً يهودياً في الماضي، كما تدعي الصهيونية. لأنه من غير المعقول أن تبقى فلسطين بدون سكان بعد طرد اليهود منها، كما يزعم اليهود. وأن الادعاء بأن فلسطين كانت خالية تنتظر عودة اليهود إليها أكذوبة تنفي أكذوبة الطرد وهذا ما قاله "شلومو ساند" في كتابه "اختلاق الشعب اليهودي" الذي سبق ذكره في الفصل الأول من الكتاب.

إن الادعاء بأن فلسطين ظلت خالية من السكان إلى أن هاجر اليهود إليها وأقاموا دولتهم عليها، يلغي تاريخها القديم والوسيط والحديث، وينفي ظهور المسيح على أرضها، وينكر الوجود الإغريقي والروماني، وينفي سبي اليهود إلى بابل وطردهم أيام الرومان – كما يزعمون – ويلغي الفتح الإسلامي لفلسطين. وقبل كل هذا وذاك ينفي الوجود الكنعاني القديم في فلسطين الذي اعترفت به توراتهم.

أمّا الشق الثاني من هذا الشعار الصهيوني الكاذب وهو "لشعب بلا أرض"، فإن المنطق السليم يرفض قبوله ويكذبه، إذ كيف لا يكون لليهود أرض ووطن في هذا الكوكب؟ وهل هم من سكان كوكب آخر غير الأرض؟ إن اليهود منذ وجدوا جماعاتٍ دينية ينتمون إلى الأمم والشعوب والمجتمعات التي نشأوا فيها، وعاشوا على أراضيها، وهم – كما قلنا – جزءٌ من النسيج الاجتماعي لتلك البلاد والمجتمعات، ولذلك فإن مقولة "شعب بلا أرض" خرافة لا يقبلها عقل، ولا يقبلها منطق، وبها تستخف الصهيونية بعقول البشر.

وعلى الرغم من انكشاف الادعاء بأن الصهيونية قومية اليهود واكتشاف زيفها، نجد باحثين يهود لا يزالون يحاولون بث هذا الادعاء الباطل ونشره بين الناس، نذكر منهم – على سبيل المثال "روبرت ساتلوف" Robert Satloff، المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط (2006م)، ففي كتابه بعنوان "من بين الصالحين"، Among The Righteous، استهجن ما سمعه من سيدة مغربية حينما قالت له: بأنها لا تكره الإسرائيليين، ولكنها تكره الصهاينة، فرد عليها قائلاً[8]: بأن الصهيونية هي قومية اليهود، وأن هدف الصهيونية خلق دولة ذات سيادة للشعب اليهودي...".

كان هدف "ساتلوف" من تأليف كتابه سابق الذكر، معرفة الأشخاص والهيئات والجهات التي حاولت حماية اليهود إبان الاضطهاد النازي لهم في عهد هتلر، في أربعينيات القرن الماضي. وأطلق على هؤلاء الحماة "الصالحين". وقد صدر كتابه في عام 2006م.

صهاينة أم متصهينون؟

يعتقد كثيرون بأن الصهيونية خاصة باليهود الذين اعتنقوا أفكارها، وآمنوا بغاياتها وأهدافها، وساهموا في مناشطها وفعالياتها، وأيدوا أفعالها وأساليبها. وقد لا يخفى على الكثيرين أن في الغرب صهاينة من غير اليهود، وأن خطرهم علينا لا يقل عن خطر اليهود الصهاينة، إن لم يكن أكثر، لأنهم هم الذين دعموا اليهود الصهاينة وأيدوهم، ولولاهم لما تمكنت الصهيونية من تحقيق الكثير من أهدافها، ولما استطاعت إنشاء إسرائيل في فلسطين، ولما استمر وجودها حتى يومنا هذا.

يفضل البعض – وأنا منهم – تسمية الصهاينة من غير اليهود بـ "المتصهينين"، حتى يمكن التمييز بين من يحمل هذه الأفكار من اليهود وغيرهم، وكي لا يحدث خلط بين الفريقين.

المتصهينون ليسوا جميعاً متفقين في الأهداف والغايات، ولا ينتمون إلى حركة واحدة ذات دوافع محددة، فمنهم من استند على أسس دينية وعقائدية، ومنهم من اعتمد على منطلقات سياسية، وهناك من جمع بين هذه الأسس والمنطلقات. ويطلق على الفئة الأولى مصطلح "المسيحيون المتصهينون". وهناك من يسميهم "المسيحيون الصهاينة"، إلاّ أنني – كما ذكرت – أفضل التسمية الأولى على الثانية. أمّا الساسة الذين يدعمون الحركة الصهيونية، فيمكن تسميتهم بالمتصهينين العلمانيين. أو السّاسة المتصهينين وفيما يلي نبين منطلقات كل فئة وتوجهاتها وأهدافها وغاياتها:

المسيحيون المتصهينون:

نود أن نوضح في البداية بأن هذه التسمية تُطلق على توجهات الجماعات المسيحية، وبخاصة في الغرب، التي تخدم التطلعات والأهداف الصهيونية. وقد استغلها الصهاينة في تحقيق أهدافهم، ولا زالوا يستغلونها في دعم إسرائيل ومساندتها.

حينما نشأت هذه الفئة في القرون الأولى للمسيحية، كان أتباعها يَعدُّون أنفسهم مسيحيين مخلصين لعقيدتهم، وربما كان ما يميزهم عن سواهم من المسيحيين اعتمادهم على قراءتهم الخاصة للكتاب المقدس بقسميه: العهد القديم، والعهد

الجديد، وتفسيرهم لما جاء في "رؤيا يوحنا اللاهوتي" في العهد الجديد، ومفادها أن المسيح سيعود إلى العالم محاطاً بالقديسين ليقبض على النبي الكذاب[9]، ويحكم العالم ألف سنة، ثم ينشب الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، يكون النصر فيها لقوى الخير. وسنعود إلى تناول هذه المسألة بشيء من التفصيل فيما بعد.

كانت التسمية الأولى لهذه الجماعة، التي اتخذت صفة الحركة في الديانة المسيحية، بالألفية أو الحركة الألفية، لإيمانها بفترة حكم المسيح بعد عودته إلى الأرض والتي قدرتها الرؤيا بألف سنة. وقد ضمت هذه الحركة في صفوفها إبان نشأتها، في القرون الأولى للمسيحية، مسيحيين، وبخاصة من الذين كانوا من أصول يهودية[*].

مع مضي الزمن تفرعت الحركة وانقسمت إلى حركات، اصطدم بعضها مع الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا في العصر الوسيط.

يبدو أن بعض تيارات الإصلاح الديني، وبخاصة ما سمي بالحركة الإصلاحية البروتستانتيّة في أوروبا في القرن السادس عشر تأثرت بالأفكار الألفية. ولكن انكشاف ارتباط الحركة الألفية بالتطلعات اليهودية الرامية إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين، والتي أصبحت فيما بعد محور الحركة الصهيونية، ظهر في القرن السابع عشر، وهو القرن الذي سيطرت فيه حركة المتطهرين المسيحيين Puritans على

(*) لاحظ هنا الشبه بين اعتناق عدد من اليهود الديانة المسيحية، وإنشائهم حركة تخدم أهدافهم، وبين يهود اعتنقوا الإسلام، وأدخلوا في التراث الإسلامي ما سمي بالإسرائيليات التي شرحنا نشأتها في الفصل الأول من الكتاب. وبناء عليه يمكن القول بوجود قاسم مشترك بين أصول التصهين في المسيحية، وأصول الأسرلة في التراث الإسلامي.

مظاهر الحياة في بريطانيا. والمتطهرون جماعات أصولية نادت بما سمته تطهير الكنيسة بالتخلص من الطقوس المعقدة، والتشدد في تطبيق سلوكيات الدين المسيحي.

لقد كان للمتطهرين قراءاتهم وتفسيراتهم الخاصة للكتاب المقدس، وكانوا يؤمنون بقيام دولة يهودية. وقد طالبوا باستعمال اللغة اليهودية في الصلاة بالكنائس، وتحويل يوم ذكرى قيامة المسيح من يوم الأحد إلى يوم السبت اليهودي. وطالب بعضهم الحكومة البريطانية بإعلان التوراة دستوراً لبريطانيا[10].

يُعتقد بأن القس البريطاني "توماس برايتمان" Thomas Brightman (1562–1607م) كان أول رجل دين مسيحي دعا بصراحة إلى ما أسماه "عودة اليهود إلى الأراضي المقدسة"، بناء على إيمانه بنبوءة الكتاب المقدس.

وفي عام 1615 دعا عضو البرلمان البريطاني "هنري فينش" Henry Finch، الحكومة البريطانية إلى المساعدة فيما أسماه "عودة اليهود إلى فلسطين"، قائلاً: ليس اليهود قلة مبعثرة، بل هم أمة. ستعود أمة اليهود إلى وطنها، وستعمر كل زوايا الأرض. وسيعيش اليهود في وطنهم بسلام إلى الأبد[11].

إذن ربما يكون "هنري فينش" أول أوروبي يَعُدُّ اليهود أمة، وليس مجرد جماعات دينية.

وحينما سيطر "أوليفر كرمويل" Oliver Cromwel على بريطانيا بعد انقلابه المشهور (1649–1658م)، كان أول مسؤول بريطاني دعا إلى توطين اليهود في فلسطين.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، فكثير من البريطانيين آمنوا بفكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين من منطلق ديني توراتي وإنجيلي، وفي الوقت نفسه حاول بعضهم تنصير اليهود. فعلى سبيل المثال دعا "هنري فينش" اليهود في كتابه الذي ألفه عام 1621 بعنوان "دعوة اليهود"، إلى اعتناق المسيحية، وفيه تنبأ باستعادة اليهود في المستقبل القريب للسيادة الزمانية، وتأسيسهم إمبراطورية عالمية.

يُعد القس "وليم هشلر" William Hashler (1845–1931م) في العصر الحديث، من أشد المتحمسين المتصهينين، فقد استغل فترة عمله في السفارة البريطانية بالعاصمة النمساوية (فينا)، فنظم حركة تهجير اليهود الروس إلى فلسطين، معتمداً في ذلك على ما قال: بأنها جاءت في النبوءات الدينية الواردة في العهد القديم. وكان "هشلر" من أشد المتحمسين للزعيم الصهيوني "ثيودور هرتزل" مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة.

وقد خرج من رحم الألفية مؤخراً تيار مسيحي يميني، أطلق عليه "التيار المسيحي اليميني"، والذي تحالف مع تيار سياسي في الولايات المتحدة الأميركية سُمِّي "المحافظون الجدد" The New Conservatives، وبدأ بالسيطرة على الإدارة الأميركية منذ ولاية الرئيس الأسبق "رونالد ريغان" (1981–1989)، واشتدت سيطرته في عهد الرئيس جورج بوش الإبن 2000–2008م.

تشكل التيار المسيحي اليميني، والذي يعرف أحياناً بالتيار المسيحي المتصهين من خارج الكنائس الأورثوذوكسية والكاثوليكية والبروتستانتية التقليدية، وهو، من حيث المعتقد – يُعد امتداد لحركات الألفية التي استمدت أفكارها من أسفار

حزقيال ودانيال في العهد القديم، ورؤيا يوحنا اللاهوتي في العهد الجديد. ففي سفر حزقيال(*) تتنبأ الرؤيا بهزيمة العدو يأجوج بمساعدة الرب[12]. ولا شك في أن رؤيا يوحنا اللاهوتي تحتوي على توضيحات أكثر، وعليها اعتمد الألفيون الأوائل – كما قلنا سابقاً– في صياغة أفكارهم.

وعلى أية حال فإن ملخص أفكار هذا التيار حالياً، الاعتقاد بصحة "رؤيا يوحنا اللاهوتي المفصلة، والتي هي آخر أسفار العهد الجديد، وتشتمل على اثنين وعشرين إصحاحاً. وقد جاء في الإصحاح العشرين بأن[13]: "يوحنا رأى ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنين، الحية القديمة الذي هو إبليس وقيده ألف سنة، وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يُضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لا بد وأن يُحل زماناً يسيراً".

يتابع الإصحاح العشرون ذكر رؤيا يوحنا قائلاً: "ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السِّمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة".

يعتقد مفسرو هذه الرؤيا بأن العالم قد أشرف على النهاية، ومن دلالاتها وقوع أحداث مهمة تؤشر على قرب عودة المسيح، وإعادة إقامة دولة إسرائيل، وظهور المسيح الدجال anti christ، وستنشب معركة فاصلة بين قوى الحق بقيادة

(*) يقال بأنه النبي "ذو الكفل" المذكور بالقرآن الكريم، وهو مدفون في العراق.

المسيح، وقوى الباطل بزعامة المسيح الدجال، وفيها تنتصر قوى الحق. وتدور رحى المعركة في موقع أثري بفلسطين اسمه "مجدو"، يقع حالياً شمال مدينة جنين، يسمى "تل المتسلم". وقد ورد ذكر هذا الموقع في سفر يوحنا اللاهوتي: "فجمعهم إلى الموضع الذي يُدعى بالعبرانية هرمجدون"[14].

ومن المعلوم بأن كلمة "هرمجدون" مؤلفة من مقطعين هما: "هر" وتعني "تل"، ومجدو اسم الموقع، وبذلك يصبح معنى الكلمة "تل مجدو" الأثري الذي يعود تاريخه إلى العصر الكنعاني.

يرى أتباع هذه الحركات بأنه في عودة المسيح سيعتنق كثير من اليهود الديانة المسيحية. ولعل من أبرز قيادات هذه الحركات المسماة "المسيحيين المتصهينين" القس الأمريكي "جيري فولويل" Jerry Falwell الذي كانت له مكانة خاصة في البيت الأبيض في عهد ولاية الرئيس "رونالد ريجان" حيث كان يقربه ويستمع إلى عظاته. وقد نشرت نيويورك تايمز في آذار/ مارس عام 1981 خبراً جاء فيه بأن القس "جيري فولويل" قال بأن الرئيس "ريجان" قال له: "بأنه مؤمن بأننا نتوجه بسرعة كبيرة نحو هرمجدون". وفي تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1983 قال الرئيس "ريجان" أمام لجنة العلاقات العامة الأميركية الإسرائيلية: "إنني أتساءل إذا كنا نحن الجيل الذي سيشهد معركة هرمجدون. إن النبوءات في العهد القديم تصف تماماً الوقت الذي نمر فيه"[15].

يُعد القس "بات روبرتسون" Pat Robertson في الولايات المتحدة الأمريكية من أبرز المسيحيين المتصهينين، وكذلك القس "جورج أوتيس" George Ottis.

هناك العديد من المنظمات والمؤسسات والهيئات التي تصنف على أنها تنظيمات مسيحية متصهينة نذكر منها: مؤسسة "جبل المعبد"، ومؤتمر القيادة المسيحية الوطنية لأجل إسرائيل، ومنظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل"، و"الصندوق المسيحي الأمريكي لأجل إسرائيل"، والمتخصص في شراء الأراضي العربية لبناء المستوطنات الإسرائيلية عليها، و"الرابطة الصهيونية المسيحية لدعم إسرائيل" و"السفارة المسيحية الدولية"، وتقوم حالياً بنشاط كبير في إسرائيل(16).

من الجماعات التي تدعو للفكر الصهيوني جماعة ما يسمى "شهود يهوه"، وتغطي أنشطتها أقطار العالم كافة، بما فيها البلاد العربية. وقد كان لي معهم حوارات ونقاشات، شعرتُ من خلالها أنهم تمكنوا من تضليل كثير من المسيحيين وتسخيرهم لخدمة أهداف الصهيونية. ومن الجماعات التي اتهمت بالعمل سراً لصالح الصهيونية "الماسون"، ويطلق على أتباعها "الماسونيون"، أي "البناءون". وتتخذ من نجمة داود السداسية شعاراً لها. ومن المعلوم بأن هذه النجمة تتوسط علم إسرائيل حالياً.

في عام 1946، حينما كنت طالباً في مدرسة الإمام الشافعي الثانوية بغزة، ذهبت مع صديق مسيحي لحضور الصلاة في كنيسة تابعة للمستشفى المعمداني الذي كان يسمى "المستشفى الإنجليزي"، واستمعت إلى خطبة ألقاها قسيس

استهلها بقوله: "بشرى يا أتباع يسوع". والبشرى هي هجرة اليهود المكثفة آنذاك إلى فلسطين، والتي عدها القسيس مؤشراً على قرب عودة المسيح إلى الأرض المقدسة، وإيمان اليهود به، واعتناقهم للديانة المسيحية.

لم ترض كنائس الشرق الأوسط عن قراءات وتفسيرات الجماعات المسيحية المتصهينة للكتاب المقدس، وبخاصة الأسفار الرؤيوية، وتجييرها لأغراض سياسية تخدم الصهيونية وتدعم إسرائيل. وقد شجب مجلس هذه الكنائس المؤتمر الصهيوني المسيحي الذي عقدته السفارة المسيحية في نيسان/ إبريل 1985 وأدانه. وجاء في هذا الشجب ما يلي[17]: "إننا ندين سوء استعمال الكتاب المقدس والتلاعب بمشاعر المسيحيين في محاولة لتقديس إنشاء دولة من الدول، وتسويغ سياسات حكومتها".

إن عودة المسيح المخلص في التراث الديني المسيحي، موجودة أيضاً في التراث الديني اليهودي، ولكن الاختلاف يتركز حول شخصية هذا المخلص وماهيته. فاليهود يعتقدون بمجيء مسيح من نسل داود يطلقون عليه بلغتهم "ماشيا" Mashiah يعيد لليهود أمجادهم، ويؤسس مملكة يهودية في فلسطين بعد أن يقضي على أعدائه. ويتنبأون بدخول الناس في الديانة اليهودية، وسيتمكن اليهود من حكم العالم.

ولما ظهر المسيح عيسى بن مريم أنكره اليهود، وعدوه ابناً غير شرعي لمريم، وحاربوه، وطالبوا الحاكم الروماني "بيلاطس" بصلبه. ويؤمن المسيحيون بحادثة صلب المسيح ثم قيامه، بينما ينفي القرآن الكريم ذلك، ويقول: أن عيسى رفعه الله،

وإن الذي صلب كان شبيهاً له: "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ" النساء: 157.

ربما يتساءل البعض عن أصل كلمة المسيح، وتعميماً للفائدة سنجيب عن هذا السؤال على الرغم من أنه خارج عن الموضوع.

يروي سفر صموئيل الأول في العهد القديم بأن اليهود جاءوا إلى كبيرهم وأحد قضاتهم البارزين "صموئيل" حينما شاخ وطلبوا إليه أن يجعل لهم ملكاً يحكمهم كسائر الشعوب، فحذرهم صموئيل من ذلك، وبيّن لهم ظلم الملوك واضطهادهم للرعية، ولكنهم أصروا على مطلبهم، فاختار لهم شخصاً اسمه "شاؤل" من نسل بنيامين بن يعقوب. وفي يوم تنصيبه ومباركته، قام صموئيل وأخذ[18] "قنينة الدهن، وصب على رأس شاؤل وقبّله، وقال: أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً". ومنذ ذلك اليوم صار الكهنة يقومون بمسح كل من يصبح ملكاً على اليهود.

وكما هو معلوم جاء داود بعد شاؤل. ولما قُضى على مملكة اليهود، آمن اليهود بنبوءة مجيء ملك مسيح من نسل داود، كما ذكرنا، وهم لا يزالون في انتظاره.

ولما جاء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، قام يوحنا بمسحه بالماء. وذكرت الأناجيل ذلك، فإنجيل يوحنا – على سبيل المثال – يقول: "...وقالوا له فما بالك تعمد أن كنت لست المسيح ولا إيلياء ولا النبي. أجابهم يوحنا قائلاً: أنا

أعمد بماء...". ويحتفل المسيحيون كل عام بهذه المناسبة، ويسمونها "عيد الغطاس".

وبما أن يوحنا تولى تعميد عيسى بن مريم – أي مسحه – سمي بعد ذلك "يوحنا المعمدان". ويوحنا هو يحيى بن زكريا عليهما السلام الوارد ذكره في القرآن الكريم.

متصهينون علمانيون:

الصهيونية من حيث فكرتُها ونشأتُها حركةٌ عَلْمانية، ولكنها وظفت الدين لصالحها لتستقطب اليهود المتدينين، وتكسبهم إلى جانبها، وضربت على وتر المشاعر الدينية لليهود الذين يؤمنون بنبوءة عودة "ألْ ماشيا"، وإقامة مملكة اليهود، كما سبق القول.

وإذا كانت عودة "المسيح" في التراث المسيحي جعلت أعداداً كثيرة من المسيحيين يؤيدون الصهيونية، معتقدين أنها ما دامت تهدف إلى تهجير اليهود إلى فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، فإنها تؤشر على قرب عودة المسيح المُخلِّص، كما ذكرنا سابقاً، ولكن كان هناك في الغرب أشخاصٌ نافذون وسياسيون ورجال دولة، أيدوا الصهيونية ودعموا فكرة إقامة دولة لليهود في فلسطين، وعملوا بكل ما استطاعوا من نفوذ وقوة، على إقامة هذه الدولة، لأهداف سياسية بحتة، ولو أن منهم من أخفى هذه الأهداف ولم يعلنها، وحاول التخفي بستار ديني، مما جعل كثيراً من الكتّاب والباحثين يحتارون حينما يفرقون بأن المتصهينين من منطلق ديني، والمتصهينين من منطلق علماني أو سياسي واستعماري. وهذا القول ينطبق على

كثير من الساسة البريطانيين أمثال اللورد "بالمرستون" Palmerston رئيس وزراء بريطانيا، واللورد "شافتسبري" Shaftesbury في القرن التاسع عشر، وآرثر بلفور Balfour صاحب الوعد المشؤوم في عام 1917، فحينما كان بلفور رئيساً للوزارة البريطانية في عامي 1903 و1905، هاجم اليهود المهاجرين من روسيا وبولندا وأوروبا الشرقية إلى بريطانيا واستصدر تشريعات تحد من هجرتهم إلى بريطانيا خشيةً مما أسماه بالشر الأكيد الذي قد يلحق ببلاده من جراء هذه الهجرة اليهودية.

لا شك في أن هؤلاء المتصهينين العلمانيين كانوا أشد خطراً علينا من المتصهينين دينياً، لأنهم تمكنوا بفضل نفوذهم من تنفيذ المخطط الصهيوني. ولذلك فقد ركزت الصهيونية اهتمامها للتعامل معهم على مبدأ المصالح المشتركة التي سبق الكلام عنها.

كان المتصهينون العلمانيون وبخاصة السياسيون منهم، يبغضون اليهود في أعماق نفوسهم، ولا يعلنون عن هذا البغض والكره. وكان مبعث هذا الكره الخشية من إمكانية سيطرة اليهود على الاقتصاد في أوروبا وهيمنتهم على المصارف والمؤسسات المالية لخبراتهم التاريخية في هذه القطاعات الاقتصادية. وبالسيطرة على الاقتصاد يمكن التحكم في الفعاليات الأخرى، وبخاصة السياسيةُ منها.

ربما كان مما ولَّد المخاوف الأوروبية من اليهود ما حدث في روسيا القيصرية وبولندا حيث كان يعيش فيهما معظم اليهود الأوروبيين. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهدت كل من روسيا وبولندا تحولاً كبيراً، من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، وزادت وتيرة التصنيع، حتى قيل: إنَّ الثورة

الصناعية بدأت في روسيا في تلك الفترة، وبدأت تظهر الطبقة البرجوازية لتحل، من حيث السيطرة والنفوذ، محل الطبقة الإقطاعية أو ملاك الأراضي. وقد اعتمد البرجوازيون الروس والبولنديون في إقامة المصانع على الديون والقروض التي استدانوها من اليهود بفوائد ربوية عالية، بحيث أصبح سدادها يشكل عبئاً على البرجوازيين الصناعيين، ولذلك حدثت الاصطدامات بين الدائنين اليهود والمدينين البرجوازيين. وتطورت هذه الاصطدامات لتصبح غارات شنتها جماعات مسلحة على مراكز التجمع اليهودية، فتقتل أعداداً كثيرة من اليهود، وتنهب ما تشاء من ممتلكاتهم وأموالهم. وقد أطلق على هذه الغارات مصطلح "بوغروم" Pogrom وهي كلمة روسية تعني هجوم أو مذبحة منظمة لتدمير جماعة أو طبقة ما، خاصة إذا كان أعضاؤها من اليهود[19].

شعر اليهود في روسيا وبولندا، بسبب هذه المذابح، بالخوف والقلق وانعدام الأمن والأمان على أنفسهم وممتلكاتهم، وبدأوا بالهجرة إلى أقطار أوروبا الغربية، مثل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، حيث وجدوا فيها الأمان النسبي، وفرص العمل ومزاولة فعالياتهم ومناشطهم التي اعتادوها.

بدأ الأوروبيون يشعرون بعدم الارتياح من هجرة اليهود المتزايدة من روسيا وبولندا، وحتى اليهود الذين كانوا مستقرين في أقطار أوروبا الغربية خشوا أن تهدد هذه الهجرة مصالحهم، وتؤثر في أوضاعهم المستقرة في تلك الأقطار. وهكذا بدأت تظهر في أوروبا مشكلة أطلق عليها، ولأول مرة، المسألة اليهودية، وأصبح لا بد من إيجاد حل لها. وصار الساسة الأوروبيون يفكرون في الحلول الممكنة، وشكلوا اللجان لبحث المسألة وإبداء الرأي والمشورة وطرح الحلول.

ففي بريطانيا – على سبيل المثال – تشكلت لجنة لبحث هذه المسألة في عام 1902، أطلق عليها "اللجنة الملكية لهجرة الغرباء". واستدعت اللجنة عدداً من الخبراء للإدلاء بشهاداتهم، والاستماع لآرائهم، ثم استقر الرأي على استدعاء الزعيم الصهيوني "ثيودور هرتزل" إلى لندن لأخذ رأيه في المسألة.

وقد وجد "هرتزل" فرصتة المناسبة التي كان ينتظرها لتكون الخطوة الأولى لإقامة دولة لليهود في فلسطين. وهو يعلم أن الدولة لن تقوم إلاّ ببشر يشكلون كيانها ويقيمون بنيانها. وأن اليهود الأوروبيين هم البشر الذين ينبغي أن يقيموا هذه الدولة ويتولون إدارتها وتصريف أمورها وشؤونها.

قال "هرتزل" في شهادته أمام اللجنة..إنكم أيها السادة تبحثون عن الحل وهو موجود، وفي أيديكم الحل يا سادة، بتحويل تيار هجرة اليهود الروس والبولنديين وأقطار أوروبا الشرقية، الذين لم يستطيعوا البقاء في أقطارهم لتعرضهم للقتل والنهب والتهديد، إلى مكان خارج القارة الأوروبية، ما دام الأوروبيون لا يقبلونهم، وأن بقاءهم في بريطانيا غير مرغوب فيه.

وواصل "هرتزل" شهادته قائلاً: إن تحويل هذه الهجرة إلى مكان خارج أوروبا يريح الأوروبيين، ويحل المسألة اليهودية التي باتت تؤرقهم. وفي هذا المكان المقترح الذي يصبح وطناً يتمكن اليهود من إقامة دولة لهم ذات سيادة على أرضه[20].

طُرِحَتْ على اليهود عدةُ أمكنة ليقيموا عليها دولتهم منها أوغندا في إفريقية، وفي سيناء المصرية، وفي الأرجنتين، إلاّ أن جميع هذه العروض رُفضت، وأصروا

على فلسطين، لأنها حسب مزاعمهم تربطهم روابط بها دينية وتاريخية وتراثية، ويطلقون عليها "أرض الميعاد".

وعلى الرغم من البغض والكره الذي كان يخفيه المتصهيون العلمانيون لليهود، ورغبتهم في التخلص منهم، فإنهم – وبخاصة السياسيون ورجال الحكم منهم – وجدوا أن من المصلحة التعاون معهم، ما دام هذا التعاون يخدم مصالح أقطارهم.

وقد بيَّنا فيما سبق تعاون كثير من الساسة الأوروبيين الاستعماريين وبخاصة في بريطانيا، مع الحركة الصهيونية. فبهذا التعاون يضربون عدة عصافير بحجر واحد، كما يقول المثل: إنهم يتخصلون من اليهود في بلادهم، ويستخدمونهم لتحقيق مصالحهم وأهدافهم، كما سبق أن ذكرنا. لذلك نحن لم نطلق عليهم "متصهينون" ما داموا في أعماق نفوسهم يخفون الكره والبغض لليهود، وأن تعاونهم مع الحركة الصهيونية لم يكن مبعثه الإيمان بها ولا بمنطلقاتها، ولا بتطلعات اليهود ومعتقداتهم الدينية، وإنما كان تعاونهم معها ومع اليهود قائماً على أسس نفعية مصلحية، ولذلك قلنا: إنهم متصهينون، لأن ظاهرهم لا يعكس حقيقة باطنهم.

الصهيونية – العدو الحقيقي لليهود:

هذا عنوان لكتاب، قلت في بداية الفصل أن الجزء الأول منه صدر في شهر كانون الأول، العام الفائت (2009)، ومؤلفه "ألن هارت" Alan Hart. وقد اعتمد في كتابته على وثائق وبيانات ومراجع مختلفة، وعلى خبرته السابقة الطويلة

في الصحافة، ومن كونه مراسلاً لمحطتي ITN وBBC، وهو على اطلاع واسع على حقيقة الصراع في الشرق الأوسط منذ بداياته، وخبير في القضية الفلسطينية. وأقام علاقات قوية مع قادة عرب وإسرائيليين، كان من بينهم الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" الذي نشر عنه في عام 1984 كتاباً بالإنجليزية عنوانه: «عرفات – إرهابي أم صانع سلام؟»، وكان على علاقة وثيقة مع رئيسة وزراء إسرائيل السابقة "غولدا مائير". وقد شارك، وعلى مستوى القيادة، في السياسات السرية للبحث عن السلام، وعمل وسيطاً بين الرئيس عرفات وشيمون بيريز – رئيس الكيان الإسرائيلي حالياً – حينما كان – أي بيريز – زعيماً للمعارضة في أثناء رئاسة "مناحيم بيجين" للوزارة الإسرائيلية (1977 – 1983)[21].

عَدَّ "هارت" كتابه هذا، بمثابة رسالة إلى جميع الغربيين، وعلى رأسهم الأميركان، وبخاصة اليهود منهم. وفحوى هذه الرسالة ومفادها، بأن موقفهم من النزاع في الشرق الأوسط، ومساندتهم لإسرائيل لا يستند على حقائق صادقة، فوجود إسرائيل لم يكن أبداً، ولن يكون، معرضاً للخطر، حتى لو تجمعت كل القوى العسكرية العربية. وأن ما تؤكده الصهيونية، وتصر على ترديده، وهو أن يهود إسرائيل عاشوا في خطر دائم، بحجة أنهم سيُلْقَوْن في البحر، كان مجرد دعاية، تستخدمها إسرائيل – دولة الصهاينة – لتغطية هدفها، والتمويه على الأوروبيين والأميركان، وكي تُظهر عدوانها على أنه دفاع عن النفس، وإنها هي الضحية، ولكن الحقيقة، كانت ولا تزال، إنها هي الدولة المعتدية[22].

يفرق "هارت" بين نوعين من الصهيونية فيقول[23]: «علينا أن نفرق بين اليهودية كديانة سماوية تشتمل على قيم وتعاليم رفيعة، وبين الصهيونية. صحيح

أنه ليس جميع اليهود متدينين، وإنما كثير منهم علمانيون لكن المتدينين منهم يتطلعون إلى القدس. ويجذبهم شعار "صهيون"، ولذلك فهم من الناحية الروحية صهاينة. ولكن علينا أن نفرق بين الصهيونية الروحية التي ينادي بها اليهود المتدينون، والصهيونية السياسية التي لها أغراضها وأهدافها العلمانية، والتي قد يعارضها كثير من اليهود".

وهكذا يعارض "هارت" الصهيونية السياسية ويندد بها قائلاً[24]: «إن الصهيونية السياسية، هي قومية اليهود المختلقة في شكل تعصبي، ومشروع استعماري، وهي عملية خلق دولة لليهود في قلب البلاد العربية، نُفّذت بالإرهاب والتطهير العرقي، بحيث أساءت للديانة اليهودية، ومبادئها الخُلقية والسلوكية».

وضع "هارت" للجزء الأول، من كتابه سابق الذكر "عنواناً فرعياً": «المسيح المزيف» The False Messiah، وهي تسمية أطلقها على الصهيونية السياسية التي ادعت بأنها البديل لما جاء في الرؤيا الواردة في الكتاب المقدس، التي سبق ذكرها، ومفادها أن قيام الدولة مشروط بعودة المسيح، ونشوب حرب فاصلة بين قوى الحق بقيادة المسيح وقوى الباطل، وهم أعداؤه، وتُحسم المسألة في معركة "هرمجدون" لصالح الحق.

يقول "هارت" بأن الصهيونية ترى بأنها لن تنتظر عودة المسيح، وأنها ادعت بأنها المسيح، ولذلك فهو يسميها "المسيح المزيف" أو الكاذب[25].

وربما كان تفريق "هارت" بين الصهاينة المتدينين والسياسيين في بداية الحركة الصهيونية، حيث تعرضت الصهيونية آنذاك إلى هجوم عنيف من كثير من المتدينين، لأنهم عدوها ضد رؤيا العهد القديم، كما تعرضت إلى هجوم أعنف من

يهود سياسيين، لاعتبارات سياسية ووطنية، كما سنبين بعد قليل، لكن الصهاينة السياسيين نجحوا في احتواء معظم اليهود المتدينين، وما نراه في إسرائيل اليوم يؤيد ما نقول. فغالبية الأحزاب الدينية – إن لم يكن كلها – التي تشكل نواة اليمين الإسرائيلي المتطرف، أصبحت أكثر صهيونية من الصهاينة السياسيين، وتدافع عن إسرائيل بشراسة، وتتبنى أعمال الاستيطان في الضفة، وتتمسك بما تسميه أرض إسرائيل، وتصرح بأن التنازل عن أي جزء منها خيانة.

لم نسمع عن يهود متدينين حالياً يحاربون الصهيونية، ويعارضون قيام إسرائيل، سوى جماعة "ناطوري كارتا"، وهي كلمة آرامية تعني "حارس المدينة"، تأسست في عام 1935. وهي ترفض الصهيونية بجميع أشكالها، وتعارض قيام إسرائيل، وتشجب قيامها لأن عودة المسيح لم تأت بعد. وهي ترى بأن اليهود ممنوعون من إقامة دولة خاصة بهم حتى مجيء المسيح. وتطالب بتفكيك إسرائيل الحالية وإنهائها سلمياً.

ويبلغ عدد جماعة "ناطوري كارتا" نحو خمسة آلاف شخص منتشرين في القدس ولندن ونيويورك. وهم يؤيدون حركات المقاومة الفلسطينية، ويشاركون في التظاهرات التي تندد بالأعمال الإجرامية التي ترتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين. وقد اشترك عضوان من هذه الجماعة بالصلاة على جثمان الرئيس ياسر عرفات في باريس، كما اشترك الحاخام "موشيه هيرش" في جنازة عرفات.

وإني أتساءل فيما إذا كان هناك يهود متدينون، غير جماعة ناطوري كارتا، يعارضون الصهيونية السياسية؟ أنا شخصياً لم أسمع بهم، ولكنني في الوقت نفسه لا أنفي وجودهم، إذ ربما كان "هارت" أعلم مني بهم، بحكم عمله وخبرته

الواسعة، وتحركاته في دول العالم، ولقائه بكثير من اليهود من مختلف التوجهات والمعتقدات والسياسات.

إنني أتفق مع "هارت" في أن الصهيونية مسؤولة عن عودة الكراهية لليهود – التي يسمونها اللاسامية – وهي ما يخشاها اليهود. وأعتقد أن الاضطهاد النازي لليهود، إبان حكم هتلر في أربعينيات القرن الماضي، والمذابح التي تعرضوا لها كان من نتائج الصهيونية. وعلى الرغم من أن هذه المذابح والاضطهادات قوبلت، فيما بعد، بالإدانة والشجب، وأدّت إلى اختفاء ظاهرة اللاسامية، ليحل محلها العطف الذي استغلته الصهيونية أسوأ استغلال، واستثمرته في إقامة إسرائيل ودعمها، فإن ما يقوم به الصهاينة في إسرائيل اليوم من جرائم بشعة، وما يمارسه الصهاينة من ابتزاز للحكومات الغربية، ودعمهم لإسرائيل، ساهم في إظهار الوجه الحقيقي البشع والكريه للصهيونية، وعمل على إحياء ظاهرة اللاسامية من جديد[26]. ولعل من مظاهر هذا الإحياء للاسامية الاعتداء المتكرر على المعابد والكُنس والقبور اليهودية، ووضع الصليب المعقوف – وهو شعار هتلر – على بعضها. ومن المظاهر الأخرى ما أسفر عنه استطلاع أوروبي، قبل عدة سنوات بيّن فيه معظم الأوروبيين بأن إسرائيل أكبر مهدد للسلام والأمن العالميين.

ولعل من أهم الأدلة على نمو الكراهية لليهود الصهاينة، ولكيان إسرائيل الصهيوني، ما يشهده العالم، وبخاصة على الساحة الأوروبية، من تظاهرات تندد بإسرائيل وممارساتها الإجرامية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وحربها على غزة في عامي 2008/ 2009م، وحصارها وتجويعها لسكان القطاع. وقد أدت هذه الممارسات الإجرامية إلى شجب إسرائيل وإدانتها، وتنظيم حملات بحرية وبرية

لكسر الحصار، واشتراك أوروبيين وأميركان ويهود في التظاهرات ضد الاستيطان، وبناء جدار الفصل العنصري في الضفة.

لم يكن اليهود المتدينون وحدهم الذين عارضوا الصهيونية حين ظهورها، فقد عارضها وحاربها آنذاك كثير من اليهود في أوروبا وأميركا من منطلقات وطنية، وعدوها خطراً حقيقياً لليهود الذين كانوا يعدون أنفسهم جزءاً من النسيج الاجتماعي لمجتمعاتهم في أوروبا وأميركا، وجزءاً لا يتجزأ من أمم وشعوب تلك الأقطار، وليسوا شعباً خاصاً ولا عرقاً مميزاً، وإنما هم مجرد جماعات دينية تنتمي إلى هذه الشعوب، شأنهم في ذلك شأن الجماعات الدينية الأخرى.

لقد اتهم اليهود المتدينون الصهاينة آنذاك بأنهم خرجوا عن الدين، وسلكوا مسلكاً غير أخلاقي بينما اتهمهم اليهود الساسة والوطنيون، بأنهم يُظهرون اليهود بمظهر العداء لأوطانهم الأصلية. وهذا ما كان يقوله اليهودي "إدوين صموئيل مونتيجيو E.S.Montagu" الوزير البريطاني لشؤون الهند في وزارة "لويدجورج" David Lioyd George التي كان فيها "آرثر بلفور" وزيراً للخارجية وصاحب الوعد المشؤوم الذي صدر في 2/ 11/ 1917،وبينما كانت الحرب العالمية الأولى (1914–1918) مستمرة.

كان "مونتيجيو" من أشد المعارضين لوعد بلفور، وقدم مذكرة قوية آنذاك، كُشف النقاب عنها مع غيرها من الوثائق البريطانية حينما كان قد مضى عليها ثلاثون عاماً، أي في سبعينيات القرن الماضي، قال فيها بأنه بإصدار هذا الوعد، تكون الحكومة البريطانية قد أظهرت عداءها للسامية، وإنها بهذا الإصدار تكون قد لعبت بالبطاقة الصهيونية. وقدم "مونتيجيو" مذكرته هذه بتاريخ 23/ 8/ 1917،

أي قبل الإعلان عن وعد بلفور بشهرين وتسعة أيام.

وينقل "هارت" عن الكاتب اليهودي المعروف "الفرد ليلنتال" Alfred Lilinthal قوله بأن[27]: «مونتيجيو شجب بشدة جهود الصهاينة الهادفة إلى إقناع شركاء المتدينين الأغبياء، بأن اليهود مجموعة عرقية، وجنس متفوق مؤهل لحكم فلسطين...وكان يعتقد أن إقرار الحكومة البريطانية بالوعد يُعرِّض للخطر وضع اليهود، من حيث كونهم مجتمعاً دينياً متكاملاً ويتمتعون بالمساواة في الحقوق والمسؤوليات في الأقطار الأوروبية التي يعيشون فيها.

وبعبارة أخرى تخوّف مونتيجيو من أن يقول الشعب الإنجليزي – الذي نجح في إخماد معاداته للسامية – بصوت عالٍ لليهود: «نحن لا نريدكم أيها اليهود هنا. الآن لستم بحاجة لأن تكونوا هنا. إذهبوا إلى وطنكم في فلسطين».

أنهى "مونتيجيو" مذكرته محذراً الحكومة البريطانية من دعم الصهيونية قائلاً[28]: "لا تفعلوا ذلك. لا تمنحوا الصهيونية الاعتراف والتضمين الذي تطلبه، لو فعلتم ذلك، فإنكم تخلقون آلية جديدة لتغذية جمرة نار اللاسامية بدلاً من إطفائها". ربما لا يعرف كثيرون بأن "مونيجيو" كان ابن عم الصهيوني هربرت صموئيل الوزير البريطاني، وأول مندوب سامٍ لبريطانيا في فلسطين عام 1922. ولم تلتفت الحكومة البريطانية لمذكرة "مونتيجيو" وأصرّت على إصدار وعد بلفور تأييداً للحركة الصهيونية.

وقد دافع بلفور آنذاك عن وعده قائلاً[29]: «إن الدول الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية. والصهيونية، سواء كانت على حق أو خطأ، على خير أو سوء، فجذورها تمتد إلى تقاليد عريقة قديمة، وحاجات راهنة، وآمال مقبلة، وهي ذات

شأن أعمق بكثير من رغبات السبعمائة ألف عربي الذين يقطنون تلك الأرض القديمة».

ولا شك في أن دفاع بلفور عن وعده المشؤوم يكشف عن تورط الحكومة البريطانية في دعم الحركة الصهيونية بسبب المصالح المشتركة، وبخاصة في المنطقة العربية. وقد سبق أن تناولنا ذلك، ولكن، ومن قبيل التأكيد والإضافة، نود الإشارة إلى ما قاله الزعيم الصهيوني البارز "حاييم وايزمن" في مذكراته، لمحرر جريدة "مانشتسر غارديان" المشهور المستر "سكوت" C.P.Scott والذي كان من أكبر المؤيدين للصهيونية[30]: «نحن – يقصد اليهود الصهاينة – نستطيع القول أنه إذا أصبحت فلسطين ضمن النفوذ البريطاني، وإذا شجعت بريطانيا الاستيطان اليهودي فيها، على اعتبار أنها تابعة ضمن النفوذ البريطاني، وإذا شجعت بريطانيا الاستيطان اليهودي فيها، على اعتبار أنها تابعة لبريطانيا، فإننا نستطيع في غضون عشرين إلى ثلاثين سنة، حيث يصل عدد اليهود في فلسطين مليون، وربما أكثر، تطوير البلاد، واسترجاع الحضارة لها، ونكون حارساً فعالاً لقناة السويس».

ربما كان مما يثبت خطر الصهيونية على اليهود كجماعات دينية تنتمي إلى الشعوب التي تعيش معها في أوطانها، وتشاركها في الحقوق والواجبات والمسؤوليات، أن الحركة الصهيونية استغلت اللاسامية، وفي حالات كثيرة، ساهمت في خلقها، لاعتقادها أن ذلك يخدم أغراضها، ويحقق أهدافها. فالزعيم الصهيوني "هرتزل" كان ينظر إلى اللاسامية من زاوية صهيونية بحتة، ويعدها من القوى العاملة لمصلحتها. وكأن لسان حاله يقول[31]: "العداء للسامية هو الذي جعل منا يهوداً، والصهيونية تستمد مقوماتها من هذا العداء".

وجدت الحركة الصهيونية فرصتها الذهبية في صعود الحزب النازي في ألمانيا إلى سدة الحكم لإجبار اليهود على الرحيل إلى فلسطين. ولتحقيق ذلك جرى تنسيق وتعاون بين النازيين والصهاينة. وقد عَبّر الصحفي الألماني "هانس هنية" Hans Hania بقوله[32]: «إن الصهيونيين لم يروا في توطيد أقدام النازيين في ألمانيا كارثة قومية، بل عدوه إمكانية تاريخية فريدة لتحقيق المقاصد الصهيونية».

وقد كشف صحيفة "نيويورك تايمز" في عددها الصادر في الثاني من شباط/ فبراير 1940 عن هذا التعاون بين النازيين والصهاينة قائلة بأن الألمان كانوا يشجعون هجرة اليهود إلى فلسطين من المناطق التابعة لهم في بوهيميا ومورافيا، وأنشأوا مكاتب لهذا الغرض في كل من فينّا وبراغ. وكانت هذه المكاتب على اتصال دائم بالبوليس السري الألماني (الجستابو)، والذي كان يقدم الدعم المالي لها بالعملات الصعبة، ويتكفل بنفقات نقل المهاجرين اليهود من أوطانهم الأصلية إلى فلسطين. وبنهاية شباط/ فبراير 1940 تمكن الجستابو من تهجير حوالي ستة آلاف يهودي من النمسا وتشيكوسلوفاكيا إلى فلسطين بطرق سرية. وكان الألمان يعتقدون أنهم بهذا العمل يحرجون بريطانيا ويسببون لهم المتاعب مع عرب فلسطين، مما يشجعهم على الثورة ضد بريطانيا. وكان يشرف على الهجرة اليهودية غير المشروعة "كارل آيزمان" الذي أصبح اسمه فيما بعد "أدولف آيخمان" وهو ألماني من مواليد فلسطين. وكان والده يقيم في مستعمرة سارون الألمانية في أثناء مد خط سكة حديد بغداد[33]. ومن المعلوم بأن إسرائيل اختطفته فيما بعد من الأرجنتين وأعدمته في 31/ 5/ 1962، بعد أن ألصقت به تهمة الاشتراك في إحراق اليهود في ألمانيا إبان الحكم النازي، وبذلك تكون قد تخلصت منه حتى لا ينكشف سر تعاونه مع الصهاينة.

وحتى تتم الهجرة بأعداد كبيرة تعاون الصهاينة مع النازيين في إرهاب اليهود الألمان، وإشعارهم بعدم الأمن والاستقرار، مما يدفعهم إلى ترك البلاد، والهجرة إلى فلسطين. ولتحقيق هذه الغاية قام النازيون بإحراق ممتلكات اليهود في ألمانيا، مما أفزعهم وولّد الرعب في نفوسهم، وتقدموا بأعداد كبيرة للهجرة عبر مكاتب "حركة الريادة الصهيونية"[34].

لم تكن الحركة الصهيونية حريصة على سلامة اليهود ومصالحهم – كما تدعي – بقدر ما كانت حريصة على تحقيق أهدافها. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، فإنها على استعداد للتضحية بأرواح اليهود ودمائهم، وخير برهان على ذلك ما حدث للسفينتين "باسفيك" و"ميلوس" في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1940، حيث وصلت هاتان السفينتان قبالة شاطئ فلسطين، بالقرب من ميناء حيفا، وعليهما 1771 مهاجراً يهودياً بطريقة غير مشروعة. وحاولت سلطات الانتداب البريطانية منعهما من الدخول إلى فلسطين، وقامت بنقل الركاب إلى سفينة أخرى اسمها "باتريا" وأمرتها بإنزالهم في جزيرة موريشوس. وفي الوقت نفسه وصلت سفينة ثالثة "أتلانتيك" وعليها 1783 مهاجراً يهودياً غير شرعي. فخرج جميع اليهود بمدينة حيفا لمراقبة العملية. وفي 25 تشرين الثاني/ نوفمبر تم تفجير السفينة "باتريا" فغرق 252 يهودياً وبعض أفراد البوليس البريطاني. وقد اتهمت الصهيونية السلطات البريطانية بهذا التفجير، وقامت بحملة دعائية عالمية للتعاطف مع الحركة الصهيونية والضغط على بريطانيا كي تقبل بمزيد من الهجرات اليهودية إلى فلسطين. وقد أسفر التحقيق الذي أجرته السلطات البريطانية آنذاك بأن الذي فجر السفينة عصابة "أرجون زفاي ليئومي"

أي المنظمة العسكرية الوطنية بالتعاون مع عملاء لها كانوا على ظهر السفينة[35].

لا شك في أن هناك يهوداً في العالم يدركون أن الصهيونية تشكل أكبر خطر عليهم، وقد أعلنوا ذلك في الإعلام، وأظهروا عن مواقفهم الرافضة للصهيونية وممارسات إسرائيل الإجرامية بأشكال مختلفة كالتظاهرات، والدعم والمساندة للفلسطينيين والوقوف معهم.

إن تنامي العداء للسامية وبخاصة لإسرائيل في ازدياد، ففي خبر بثته وكالات الأنباء بتاريخ 26/ 1/ 2010 مفاده أن الوكالة اليهودية أكدت في تقرير سنوي أن العداء لإسرائيل قد تصاعد بشكل كبير، منذ العدوان على قطاع غزة في 2008/ 2009م، فيما أشار استطلاع للرأي أن 42٪ من الأوروبيين يعتقدون أن اليهود يستغلون المحرقة لابتزاز الأوروبيين. أليس في هذا الخبر مؤشراً آخر على عودة اللاسامية؟.

على أية حال فإني أتفق مع ما قاله "هارت"[36] بأن: «ما سيحدث لليهود في المستقبل، والذين يعيشون في خارج إسرائيل يعتمد على مدى فهمهم وإدراكهم بأن الصهيونية تشكل خطراً عليهم، وأنها العدو الحقيقي لهم، وعليهم أن لا يظلوا صامتين على ما تفعله الصهيونية، فحماية أنفسهم تتطلب منهم الوقوف في وجه الصهيونية».

الخلاصة:

الصهيونية حركة يهودية سياسية تبلورت فكرتها في القرن التاسع عشر، واستمدت اسمها من جبل صهيون في القدس، لاستمالة اليهود المتدينين، وقدّمت

نفسها بأنها قومية اليهود، مدعية بأن اليهود يشكلون شعباً مميزاً له مقوماته الخاصة، واستندت في ذلك على تاريخ مختلق، تقليداً للحركات القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر التي صاغ أيديولوجياتها أوروبيون معتمدين على التاريخ.

كان الهدف الرئيسي للصهيونية إقامة دولة لليهود في فلسطين. وحتى يتحقق ذلك تعاونت مع القوى الكبرى الاستعمارية في أوروبا، وعلى رأسها بريطانيا، على أساس المصالح المشتركة التي من أهمها أن تضع الصهيونية نفسها في خدمة المصالح الاستعمارية لتلك القوى، مقابل إنشاء إسرائيل.

استغلت الصهيونية الأوضاع في أوروبا آنذاك، والتي منها: الرغبة في التخلص من يهود أوروبا، وبخاصة القادمون من روسيا، وتحويل مسار الهجرة إلى خارج أوروبا، واستثمرت في الوقت نفسه، إيمان المسيحيين في أوروبا، وبخاصة البروتستانت – واعتقادهم أن هجرة اليهود إلى فلسطين يؤثر على قرب عودة المسيح، وإيمان اليهود به.

لقد أطلقنا على الذين تبنوا الصهيونية ودعموها المتصهينين، والذين كان منهم متدينون وعلمانيون. وكان المتصهينون أشد خطراً علينا من الصهاينة، إذ لولاهم لما قامت إسرائيل، وما استمر بقاؤها.

يُعد "ثيودور هرتزل" أول من بلوة الصهيونية على أسس أيديولوجية، وطورها من مجرد فكرة إلى مشروع عملي، وبرنامج فعلي قابل للتنفيذ، ووضع آليات هذا البرنامج ووسائل تنفيذه، وركز على كونها قومية لليهود، على الرغم من أن ذلك يخالف الواقع، فاليهود في أوروبا لا يشكلون قومية، ولكنهم جزء لا يتجزأ من النسيج الأوروبي، ومكوِّن من مكونات ثقافته وحضارته، ولا يختلفون إلاّ من

حيث العقيدة الدينية فقط، ولا يشكلون عرقاً أو جنساً أو شعباً خاصاً، ولكنهم مجرد جماعات دينية فقط.

ولذلك فإن الصهيونية – القومية المختلقة لليهود – تُعد العدو الحقيقي لليهود، كما بينا في هذا الفصل. وقد أدرك هذا الخطر يهود مخلصون ليهوديتهم، وحذروا من أن الصهيونية ستعمل على بعث المشاعر المعادية لليهود والتي يطلق عليها "اللاسامية"، وستجعل الأوروبيين وغيرهم ينظرون إلى مواطنيهم اليهود على أنهم أغراب، وعليهم أن يرحلوا إلى إسرائيل التي أقاموها. وهذه النزعة اللاسامية مؤهلة للتصاعد في المستقبل، كما يعتقد كثير من المفكرين – ومن بينهم يهود – وهذا ما يلحق الضرر والأذى باليهود في العالم.

المراجع

1. كيث وايتلام، مرجع سابق، ص52.
2. الكتاب المقدس، صموئيل الثاني 5/ 6.
3. الكتاب المقدس، قضاة 1/ 21.
4. الكتاب المقدس، قضاة 19/ 11 – 14.
5. عبد الوهاب المسيري، "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، المجلد الثاني، دار الشروق، الطبعة الرابعة، 2008، ص214، 215.
6. المرجع نفسه.
7. المرجع نفسه.
8. Satloff, R., “Among The Righteous”, Public Affairs, New York, 2006, p.167.
9. الكتاب المقدس، العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح التاسع عشر.
10. جيروم شاهين، "الصهيونية المسيحية وأصولها ونشأتها ودورها في صنع القرار الأميركي"، صحيفة الخليج الإماراتية، العدد 8673 بتاريخ 16/ 2/ 2003م.
11. المرجع نفسه.
12. الكتاب المقدس، سفر حزقيال، 38/ 14–23.

13. الكتاب المقدس، رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح العشرون، 1-3.

14. الكتاب المقدس، العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي 16/ 16.

15. محمد السماك "الصهيونية المسيحية وأصولها ونشأتها ودورها في صنع القرار الأميركي"، صحيفة الخليج الإماراتية، العدد 8685، بتاريخ 18/ 2/ 2003م.

16. جيروم شاهين، مرجع سابق.

17. المرجع نفسه.

18. الكتاب المقدس، صموئيل الأول 10/ 2001.

19. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول، ص434.

20. محمد علي الفرا، صحيفة الدستور بتاريخ 4/ 11/ 2004م.

21. Hart, A., “Zionism, The Real Enemy of the Jews, vol. one, The False Messiah, Clarity Press, INC, Atlanta, USA, 2009.

22. المرجع نفسه، ص14.

23. المرجع نفسه، ص15.

24. المرجع نفسه.

25. المرجع نفسه.

26. المرجع نفسه، ص17.

27. المرجع نفسه، ص99.

28. المرجع نفسه، ص102.

29. أنغرامز دورين، "أوراق فلسطين1917-1922 بذور القضية"، دار النهار للنشر، بيروت 1972، ص74.

30. Weizman, C., “Trial And Error, The Autobiography”, Hamish Hamilton, London, 1949, p.191.

31. وزارة الدفاع الوطني، الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، "القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني" الطبعة الأولى، بيروت 1973، ص63.

32. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة الأولى 1984، ص432.

33. محمد علي الفرا، ثورات فلسطين، الحلقة 39، جريدة القبس الكويتية، العدد 5684 بتاريخ 10/ 3/ 1988.

34. الموسوعة الفلسطينية، مرجع سابق، ص433.

35. محمد علي الفرا، مرجع سابق.

36. Hart, A., op.cit., p.17.

الفصل السابع

مصير إسرائيل

- نهاية إسرائيل بين الحقيقة والخيال.
- بن غوريون يقول: إن الفلسطينيين الحاليين أصلهم يهود.
- علماء الكتاب المقدس يقولون: إنّ الإسرائيليين كنعانيون تهودوا.
- الصهيونية تظن أن الفلسطينيين يهوداً حمراً يمكن القضاء عليهم.
- مؤشرات على سقوط إسرائيل.
- إسرائيل ستنهار من الداخل كما انهار الاتحاد السوفييتي والاتحاد اليوغسلافي وتشيكوسلوفاكيا.
- تغيرات على الساحات الدولية والإقليمية شعبيةً ورسمية لصالح القضية الفلسطينية.
- الوضع العربي ليس ميؤوساً منه وهناك الكثير من المؤشرات الإيجابية.
- ستزداد المقاومة على الرغم من المؤامرات عليها من الداخل والخارج.
- دراسة لوكالة المخابرات المركزية الأميركية تتنبأ بسقوط إسرائيل في مدى عشرين عاماً من الآن.

الفصل السابع

مصير إسرائيل

مقدمة:

ربما كان من المناسب أن نختتم هذا الكتاب بفصل نستشرف فيه مصير إسرائيل، حتى نعرف في ما إذا كانت ستبقى أم ستزول؟ وما مؤشرات ذلك، وما الأدلة والبراهين التي نستند عليها في طروحاتنا وفرضياتنا التي سنطرحها ونصيغها؟

إن مستقبل إسرائيل، موضوع تناوله كثير من المفكرين والباحثين والمؤرخين، وفيهم يهود. ومن يطلع على الإنترنت، أو ما يُسمى "الشبكة العنكبوتية"، يرَ فيضاً من المقالات التي تتوقع زوال إسرائيل وانتهائها. وقد استند بعض أصحاب هذه المقالات على أدلة دينية إسلامية وغير إسلامية. فالإسلاميون يعتمدون على ما جاء في سورة الإسراء، ابتداء من قوله تعالى: "وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا" الآية: 4 وانتهاء بقوله تعالى: "فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا الآية: 7.

وفي الوقت نفسه يعتمد الذين يرون زوال إسرائيل، من منظور إسلامي، على حديث نبوي نصه: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم

المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبدالله! هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلاّ الغرقد، فإنه شجر اليهود".

ويعتقد يهود متدينون، ومنهم جماعة ناطوري كارتا سابقة الذكر، أن إسرائيل ستزول، لأنها خالفت في قيامها الشروط والمتطلبات الدينية، والتي من أهمها عودة المسيح إلى الأرض، لذلك، فإن هؤلاء المتدينين لا يعترفون بإسرائيل الحالية، ويعارضون قيامها وبقاءها.

وهناك من يتوقع زوال إسرائيل، معتمداً على المنطق المستند على حقائق تاريخية وثيقة الارتباط بالمنطقة العربية، وما تعرضت له من حروب وغزوات، وقيام دول وزوالها. وربما كان المؤرخ البريطاني الشهير "آرنولد توينبي A. Toynbee" من القائلين بهذا القول.

وهناك من تنبأ بزوال إسرائيل على ضوء استقرائه للحاضر، وما تواجهه إسرائيل من أزمات ستطيح بها في النهاية، وتفاؤله بالمقاومة العربية ونموها في المستقبل. ويمثل هذا الاتجاه زميلنا المرحوم المفكر الدكتور عبد الوهاب المسيري.

على أية حال فإن استشراف المستقبل أصبح اليوم علماً له مناهجه وأسسه وقواعده، وهو على الرغم من انطلاقه من الحاضر، فإنه لا يعتمد عليه كلياً، وإنما يسترجع الماضي الذي يشكل الحاضر امتداداً له، ولكن ليس نسخة عنه. وعادة ما يقوم دارسو المستقبل بصياغة مشاهد متعددة لهذا المستقبل. ونحن هنا لن نخوض في مثل هذه التفاصيل، ولكننا نود القول في البداية بأننا سنعتمد في استشرافنا لمستقبل إسرائيل على بُعْدين هما: البُعْد التاريخي أو الزماني بشقيه، الماضي والحاضر، والبعد الجغرافي أو المكاني الذي يتناول ظروف المنطقة ومعطياتها الطبيعية

والبشرية. إن هذين البعدين يشكلان اثنين من الإحداثيات الهندسية Coordinates، ومنهما يمكننا رسم ما يسمى "الدالة" function التي تدل على المستقبل.

استهجان واستغراب:

يُشكك الكثيرون في كتابات الذين توقعوا بزوال إسرائيل، واستغربوا انهيارها وسقوطها، بل على العكس، فإنهم يتوقعون نموها وزيادة سلطانها وهيمنتها واتساع رقعتها وتحقيق حلمها من النيل إلى الفرات، وهو شعار لا زال موجوداً فوق الكنيست، كما يقولون.

إن عدم تصديقهم بانهيار إسرائيل وزوالها، يعتمد على ما يرونه الآن من دلائل ومؤشرات وأحداث منها: ما وصلت إليه إسرائيل من قوة تحكمت بوساطتها على المنطقة العربية، حتى أصبحت الأنظمة العربية تحسب لها ألف حساب، وتحرص على إرضائها، ولا تفكر في إثارتها أو إغضابها أو استفزازها، خوفاً من عقابها، بل إن بعض الأنظمة، كما يبدو في نظر كثيرين يتعاون معها، وقد تحول من عدو إلى حليف، يشترك معها في محاربة أية مقاومة ضدها.

قد يكون من أسباب هذا التشكك، في إمكانية انهيار إسرائيل، أن اللوبي اليهودي في الغرب، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية تزداد قوته يوماً بعد يوم، واستطاع أن يبسط نفوذه وسلطانه وهيمنته على حكومات هذه الدول، وعلى صُنّاع القرار فيها، بحيث لم تعد هذه الحكومات قادرة على مجابهة اللوبيات اليهودية فيها، بعد أن تغلغلت في أوساطها، مستخدمة وسائل وأسلحة مهمة وقوية ونافذة كالإعلام والسياسة والاقتصاد والمال، ناهيك عن الوعيد والتهديد واستخدام القوة.

وتُعد الدراسة التي أعدّها كل من "جون ميرشيمر" Mearsheimer رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة شيكاغو، و"ستيفن والت" S.Walt أستاذ السياسة بجامعة هارفرد، عام 2006، أفضل وأعمق دراسة عن هيمنة ونفوذ: "اللوبي الإسرائيلي في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية". وقد دفعا ثمن هذا البحث الجريء بتعرضهما للمضايقات وإزاحتهما عن منصبيهما الأكاديميين.

لعل آخر مثل نضربه بسطوة اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأميركية، تراجع الرئيس "باراك أوباما" عن وعوده عند استلامه السلطة، بحل للقضية الفلسطينية، وعجزه عن إلزام حكومة "نيتنياهو" بوقف الاستيطان، وتحوله للطرف الضعيف، وهم الفلسطينيون، ليمارس عليهم ضغوطه للانصياع للإملاءات الإسرائيلية.

وفي الوقت نفسه يعاني العرب حالياً، من حالة انقسام وتشذرم وتدهور غير مسبوق، وعدم وجود قيادة عربية وطنية مخلصة، تُخرج الأمة من وهدتها، وتصلح أحوالها، وتدفع الأذى عنها، وتعيد لها بعض هيبتها التي خسرتها، وتحمي أرضها وبحرها وسماءها التي أصبحت مستباحة لجميع القوى من عالمية وإقليمية.

ومما يزيد الطين بلة، انقسام الفلسطينيين وتناحرهم وتنازعهم، لدرجة أن بعضهم لا يمانع بالاستعانة، والاستقواء بالعدو لكسر شوكة خصمه والقضاء عليه، وهو وضع لم يشهد له الفلسطينيون مثيلاً من قبل.

قد يقول قائل: بأن هذه المشاهد المؤلمة لا تؤذن بزوال إسرائيل بقدر ما تؤشر لمزيد من نمو قوتها ونفوذها وبسط هيمنتها على المنطقة، وتوسعها فيها، وتصفية ما تبقى من القضية الفلسطينية، وبخاصة بعد أن هوّدت معظم القدس، وأصبح المسجد

الأقصى مهدداً بالانهيار، وهوّدت معظم أراضي الضفة، بمصادرة الأراضي وبناء المستوطنات وتوسيع القائم منها، وإقامة جدار الفصل العنصري...إلى غير ذلك من أعمال يعرفها الجميع.

نعم كل هذا صحيح...ولكن:

نحن لا نلوم جميع الذين يتشككون، بزوال إسرائيل أو انهيارها، فهو واقع نراه وندركه ونحياه، حتى أن الكثيرين منا أصابهم اليأس والإحباط، ففقدوا الأمل بالمستقبل، وفقدوا الثقة بالأمة العربية وتاريخها، وركزوا على سلبياتها من دون إيجابياتها، ونظروا إلى التاريخ بمنظار أسود، فبدا لهم بأن تاريخ العرب كله فتن وحروب ونزاعات ومؤامرات، وهذا ظلم وافتراء على هذا التاريخ، ولسنا هنا في معرض الدفاع عنه، لأنه سيخرجنا عن السياق.

إذا كنا نعيش اليوم في ظلمات القهر والظلم والطغيان والاستبداد، فإن المنطق يقول بأن دوام الأحوال من المحال، فالفجر لا ينبلج إلا من بعد حلكة الظلام، ثم يسفر الصبح بشروق الشمس. وقد عبّر عن ذلك شاعرنا العربي:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

لا نقول هذا من باب الأمنيات والتمنيات، كما يظن البعض، ذلك أنه في مقابل المؤشرات التي ذكرناها عن الوضع العربي المتردي، الذي يراه كثيرون مشجعاً على صعود إسرائيل، وتوسعها وزيادة سيطرتها وهيمنتها على المنطقة، فإن هناك مؤشرات عكسية، يمكن الاستدلال بها على أن إسرائيل ستزول، إن عاجلاً أو آجلاً، وهذه سنة الحياة، وشريعة الكون، فالدول كالأفراد لها أعمار، وهذا ما قاله

المؤرخ العربي ابن خلدون. وهذا ما قاله أيضاً مؤرخون معاصرون كبار أمثال: "جيبون" Gibbon في كتابه "تاريخ هبوط وسقوط الإمبراطورية الرومانية"، والصحفي "وليم شيرر" W. Shirer، في كتابه: "صعود وسقوط الرايخ الثالث"، والمؤرخ المعاصر "بول كندي" P. Kennedy، في كتابه: "صعود وسقوط القوى الكبرى".

من مؤشرات نهاية إسرائيل:

هناك الكثير من المؤشرات، منها ما هو كامن، ومنها ما هو ظاهر، ومنها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي، ومنها ما هو إقليمي، ومنها ما هو عالمي، ولن نتمكن من بحثها كلها، ولكن سنركز على الأهم منها فقط.

1. ما بُني على باطل فهو باطل:

ولدت فكرة دولة إسرائيل، وهي تحمل جرثومة فنائها وزوالها في أحشائها. وتتمثل هذه الجرثومة في الأساطير والخرافات التوراتية والتلمودية التي استندت عليها في قيامها، وكذلك على المزاعم والادعاءات الصهيونية التي اختلقها الصهاينة وسوّقوها على العالم، منها على سبيل المثال اختلاق ما سمي بالشعب اليهودي، وأسطورة "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض". وقد سبق أن أوردنا نصوصاً لعلماء آثار ومؤرخين وباحثين شككوا في روايات العهد القديم التاريخية وأكدوا بأنها أساطير وخرافات لا أساس لها من الصحة، مثل خرافة أرض الميعاد، وخرافة الشعب المختار، وأكذوبة السبي البابلي، وغير ذلك من أكاذيب.

علاوة على ما ذكرنا سابقاً من مؤلفات ليهود يطعنون في روايات العهد القديم وقصصه التاريخية، فإن "زئيف هيرزوغ" Ze’ev Herzog أستاذ الآثار في

جامعة تل أبيب، الذي عرف ببحوثه الأثرية وتنقيباته في جهات مختلفة من فلسطين سنين طويلة، اعترف في بحث نشره في مجلة "هاآرتز" Haaretz في عددها الصادر في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1999م، بأنه توصل إلى نتائج تنفي ما ورد في روايات أسفار العهد القديم، وقال: "إنه بعد سبعين عاماً من البحث عن الآثار، اكتشف علماء الآثار أن اسم إسرائيل، ليس اسماً لمملكة، كما زعمت الأسفار، وإنما كان اسماً لجماعة بشرية كانت مستقرة في أرض كنعان في نهاية العصر البرونزي، وإن قصص الآباء – يقصد إبراهيم وإسحق ويعقوب – كما وردت في العهد القديم، ما هي إلاّ قصص أسطورية، وأن العبرانيين لم يستقروا في مصر، وبالتالي لم يخرجوا منها، وأنهم لم يغزوا أرض كنعان، كما تروي التوراة، وأنه لا يوجد أي ذكر لإمبراطورية داود وسليمان، أو ما يسمى المملكة المتحدة التي لا نعرف حتى اسمها".

وكان من نتائج انكشاف زيف روايات العهد القديم عن وجود إسرائيل في الماضي، انهيار الأساس التاريخي الذي استندت عليه الصهيونية في إقامة إسرائيل الحديثة على أرض فلسطين، وتبين بأن الصهاينة أقاموها بالقوة والإرهاب والخداع والتضليل، وتسويق تاريخ مختلق لليهود، وتحالف مصالح مع قوى عالمية سبق شرحها.

لقد أدى انكشاف أباطيل الصهيونية إلى تشكك كثير من اليهود بقيام دولة إسرائيل، وأصبح كثير منهم يتساءل عن مصير إسرائيل، ويفقد ثقته فيها، ويتوقع زوالها. وقد أصبح هؤلاء المتشككون يشكلون تياراً منافياً في داخل إسرائيل وخارجها، ويمكن الاطلاع على مقالاتهم على الإنترنت.

2. إنه غزو صليبي شعاره نجمة داود ومصيره كسابقه:

لا نقول بأن التاريخ يعيد نفسه، فتلك مقولة خاطئة، ولكننا نقول، ما أشبه اليوم بالبارحة. أي ما أشبه حالنا نحن العرب والمسلمين اليوم بحال أجدادنا أو أسلافنا قبيل الغزو الصليبي لبلادنا.

إن الأوجه متشابهة، بين غزو صليبي، جاء على شكل حملات في الماضي، وبين غزو صهيوني جاء على شكل هجرات مكثفة إلى فلسطين. الغزو الصليبي رفع شعار الصليب ليضفي عليه الصفة الدينية، ويوهم العالم المسيحي بأن الهدف منه تحرير القبر المقدس، والديار المقدسة من سيطرة العرب والمسلمين الكفرة – كما زعموا – بينما كان الهدف الحقيقي والمخفي غزو أوروبي للمشرق العربي والإسلامي، وحل مشاكل الأوروبيين على حسابنا، فالبابا أربانوس الثاني، كان يعاني من تدهور سلطته، وفقدان هيبته على ملوك وأمراء أوروبا، فأراد أن يصرفهم عنه، ويوجه قوتهم نحو عدو اختلقه. وفي الوقت نفسه وجد ملوك أوروبا وأمراؤها الفرصة سانحة للبحث عن أمجاد لهم في الشرق، بعد أن ضاقت أوروبا بأحلامهم، والسيطرة على موارد الشرق وكنوزه وقدراته. وانساق السذج والبسطاء من الناس الذين فهموا الدين على غير حقيقته. وقد كان المؤرخون العرب القدامى أعرف بحقيقة هذا الغزو، فابن الأثير – على سبيل المثال – يطلق عليه مصطلح "حروب الفرنجة". أمّا المؤرخون الأوروبيون فهم الذين أطلقوا تسمية الحروب الصليبية، لأن المحاربين رفعوا شارة الصليب.

وكلنا يعلم بأن مما ساعد على قيام هذه الحملات الصليبية تردي أحوال العرب والمسلمين، وانقسام المنطقة العربية إلى ممالك ودويلات هزيلة وضعيفة

متناحرة ومتباغضة ومتحاربة، كما هو حالنا اليوم. وإذا كان الصليبيون رفعوا الصليب في الماضي، فإن الصهاينة اتخذوا من نجمة داود شعاراً لدولتهم لكسب ود المتدينين اليهود وأنصارهم من المسيحيين المتصهينين الذين تحدثنا عنهم سابقاً.

وكما سعت أوروبا لحل مشاكلها آنذاك على حسابنا، فإن الغزو الصهيوني كان من أهدافه – كما قلنا سابقاً – حل ما سمي في القرن التاسع عشر في أوروبا بالمسألة اليهودية، بالتخلص من اليهود، وتحويل مسار هجرة يهود أوروبا الشرقية إلى خارج القارة الأوروبية، وفي الوقت نفسه إيجاد كيان في قلب البلاد العربية لتحقيق أهداف استعمارية.

ولا شك في أن تردي الأوضاع العربية يمد في عمر إسرائيل، ويساعدها على زيادة سيطرتها وهيمنتها على المنطقة العربية. لكن من يستقرأ التاريخ يدرك بأن بقاء الحال من المحال، فكما تغيرت الأوضاع في الماضي، وتم القضاء على الممالك والإمارات الصليبية في البلاد العربية، فإن الشيء نفسه سيحدث لإسرائيل، ولذلك فقد عكف عدد من الإسرائيليين على دراسة الأسباب التي أدت إلى انهيار الإمارات والممالك التي أنشأها الصليبيون، حتى لا تلقى إسرائيل المصير نفسه. فوجدوا أن تمسك العرب والمسلمين بهويتهم وعقيدتهم كانت الصخرة التي تحطمت عليها آمال الصليبيين. ولذلك فهم يحاولون اليوم تفتيت أو تفكيك بنية الثقافة العربية الإسلامية، بخلق هويات طائفية وعرقية وقطرية، وإضعاف اللغة العربية والتراث العربي والإسلامي، عن طريق الإعلام والتلاعب في المناهج المدرسية، وهذه مسألة خطيرة ومهمة جداً يجب أن نتنبه إليها.

وقد يشك بعضهم في إمكانية تغير الأوضاع العربية للأحسن، ويرى أنها

تسير نحو الأسوأ، وأن لا أمل يُرتجى في المستقبل، لكن باستعراض تاريخ المنطقة يدرك أن الأمة شهدت فترات كانت أكثر سوءاً مما نحن فيه اليوم. ألْم يتحالف الملك إسماعيل بن العادل الأيوبي مع الصليبيين ضد ابن أخيه سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب؟ ويسلم القدس للصليبيين التي حررها جده صلاح الدين؟!، ولكن الله شاء أن يهزم السلطان نجم الدين قوات عمه وحلفائه الصليبيين. إلاّ أن هذه الهزيمة لم تكسر شوكة الملك إسماعيل، فقد أرسل رسولاً إلى هولاكو سلطان المغول ليتحالف معه ضد ابن أخيه سلطان مصر، لكنّ الله خيب أمله، ومكن نجم الدين من القضاء عليه والاستيلاء على الشام. وبعد وفاة نجم الدين تمكن المماليك من القضاء على المغول في معركة عين جالوت الشهيرة.

وعلى الرغم من الوضع المتردي الذي نعاني منه، والذي أصاب الكثيرين بالإحباط، فإنه والحمد لله، هناك آمال معلقة بأمتنا العربية والإسلامية، بفضل وعي الجماهير، ووجود من يؤمن بحق المقاومة. وما دامت هناك مقاومة، فإن هناك حياة في جسد الأمة ودماء تجري في عروقها، ونبض في قلوبها. كما أننا يجب أن لا نهمل التطورات والتحولات الإقليمية، وبخاصة في تركيا، والتغيرات على الساحة العالمية والتي من مؤشراتها زيادة التعاطف مع الفلسطينيين، وإظهار مشاعر الكره لإسرائيل بسبب أعمالها الإجرامية. وسنبحث هذه النقطة فيما بعد إن شاء الله.

3. إسرائيل جسم غريب وكيان مرفوض:

يعلم كثيرون، ومن بينهم يهود، بأن إسرائيل لا تمت إلى المنطقة بأية صلة، ولا علاقة لغالبية سكانها الذين جاءوا من أنحاء العالم، بالمشرق العربي، ولا قرابة تربطهم بيهود الشرق الذين عاشوا في البلاد العربية، وتمتعوا فيها بالأمن

والاستقرار، وشاركوا في الحضارة العربية الإسلامية، ولم يتعرضوا للظلم والاضطهاد الذي عانى منه يهود أوروبا.

إن اليهود الأوروبيين الذين أقاموا إسرائيل، ويشكلون غالبية سكانها، غرباء عن المنطقة، هدفهم احتلال الأرض العربية، وطرد سكانها منها، وهذا هو الاستعمار الإحلالي الاستيطاني الذي يسعى إلى التوطن والبقاء، ومحو الهوية العربية والإسلامية لفلسطين، وطمس معالمها الجغرافية، وشطب تاريخها، وانتحال تراثها بالادعاء بأنه تراث يهودي. والأدهى من ذلك ادعاء قادة الصهاينة وعلى رأسهم "بن غوريون" بأن عرب فلسطين الحاليين كانوا في الأصل يهوداً. وقد ورد هذا القول في كتاب ألّفه "ديفيد بن غوريون" و"إسحق بن – زفي" Itzhak Ben-Zvi في عام 1918، وسبقت الإشارة إليه وعنوانه: "أرض إسرائيل في الماضي والحاضر". وقد حددا أرض إسرائيل بحيث تشمل ضفتي نهر الأردن – أي فلسطين والأردن – وتمتد من العريش جنوباً حتى مدينة صور في لبنان شمالاً. وفي الفصل الثاني من الكتاب الذي زعم فيه بيهودية عرب فلسطين قال ما نصه[(1)]:

«إن الفلاحين – يقصد في فلسطين – ليسوا من نسل العرب الفاتحين الذين احتلوا أرض إسرائيل وسوريا في القرن السابع الميلادي. فالعرب المنتصرون لم يقضوا على السكان الزراعيين الذين كانوا يعيشون في البلاد، ولكنهم طردوا الحكام البيزنطيين الأجانب فقط، ولم يتعرضوا للسكان الأصليين. ولم يقم العرب بالاستيطان، وحتى أنهم في بيئاتهم السابقة – يقصد الجزيرة العربية – لم يشتغل العرب بالزراعة....إنهم لم يبحثوا عن أراضٍ ليستقروا زراعاً، والتي بالكاد كانت قائمة، ذلك أن جل اهتمامهم في الأقطار الجديدة، كان سياسياً ودينياً ومادياً:

ليحكموا، ولينشروا الإسلام، وليجمعوا الضرائب».

ويؤكد "بن غوريون" و"بن زفي" في كتابهما بأن فلاحي فلسطين أصلهم يهودي، تحول قسم منهم إلى المسيحية حين ظهورها، واعتنق قسم آخر الإسلام حين فتح العرب المسلمون فلسطين.

هذا القول مثال يؤكد على أسلوب الصهاينة في اختلاق تاريخهم، وطمس تاريخ الفلسطينيين، وسرقة تراثهم، واغتصاب أرضهم، والطعن في عروبتهم، والادعاء بأنهم كانوا من أصول يهودية، وهذا قمة الكذب والافتراء.

لقد عكس "بن غوريون" وزميله الحقائق وغيّرها، منكراً أن العرب الكنعانيين هم أول من سكنوا فلسطين وعمروها، وكانت تسمى – وبشهادة التوراة التي يدين بها اليهود – أرض كنعان، قبل أن يصبح اسمها، فيما بعد، فلسطين. وقد سبق أن عرضنا في الفصل الثاني، من هذا الكتاب، نظرية وضعها عالمان متخصصان في الكتاب المقدس، هما "مندنهال" و"جتوالد"، مفادها: أن الإسرائيليين لم يأتوا من خارج أرض كنعان، كما ادعت التوراة، وإن غالبية الإسرائيليين كانوا من الكنعانيين، اعتنقوا اليهودية حينما ظهرت.

إن جميع اليهود الصهاينة ينكرون عروبة فلسطين القديمة، ويصرّون على أن العرب كانوا مجرد غزاة، بدأوا بغزو فلسطين في القرن السابع الميلادي، والذي نسميه "الفتح الإسلامي"، وينكرون أيضاً المعاملة الحسنة التي عاملهم بها العرب المسلمون. فعلى سبيل المثال يذكر رئيس وزراء إسرائيل "بنيامين نيتنياهو" في كتابه "مكان تحت الشمس" ما يلي[2]:

«في بادئ الأمر علّق اليهود آمالاً كبيرة على المحتلين الإسماعيليين – نسبة إلى

الجد إسماعيل – كما عُرفوا في تلك الفترة، ولكن في غضون سنوات قليلة، اتضحت سياسة العرب، وتلاشت كافة آمال اليهود، خلافاً للمحتلين الذين سبقوهم».

ثم يقول: «لقد طبق الاستيطان العربي المسلح، عن طريق مصادرة الأراضي والبيوت والقوى العاملة. ونجحت هذه السياسة في تحقيق ما لم تنجح فيه من قبل، أي دولة عظمى في البلاد – اقتلاع الفلاح اليهودي من أرضه – من هنا، نجد أن اليهود لم يسلبوا العرب أرضهم، إنما هم الذين سلبوا أرض اليهود».

هذه ولا شك ادعاءات ومغالطات وافتراءات لا تستحق حتى مجرد الرد عليها، فالجميع يعرف أنها أكاذيب. ولسوء حظ الصهاينة أن العالم بدأ يدرك زيف هذه الادعاءات، وأن كثيراً من اليهود أصبحوا يشعرون بأن إسرائيل بشكلها الحالي وبنظمها وقوانينها العنصرية، كيان مصطنع لن يكتب له البقاء والاستمرار.

4. الانهيار من الداخل:

هناك أسباب كثيرة تؤدي إلى سقوط الدول وانهيارها، منها غزو خارجي واحتلال عسكري، والأمثلة على ذلك كثيرة. وقد شهدت منطقتنا العربية ومنذ فجر التاريخ قيام الدول وسقوطها، وتعرضت خارطتها السياسية لكثير من التغيير والتبديل. وحتى أوروبا التي تتمتع باستقرار نسبي بالمقارنة إلى الشرق الأوسط، تعرضت خريطتها السياسية لتغييرات جذرية بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، فاختفت إمبراطوريات، مثل إمبراطورية النمسا والمجر، وزالت لفترة من الزمن دول مثل بولندا، ونشأت دول مثل الاتحاد اليوغوسلافي وتشيكوسلوفاكيا، وجميعها تفككت وانهارت في تسعينيات القرن الماضي.

قد تنهار الدول بفعل عوامل داخلية نتيجة تناقضات داخل كيانها، منها ما هو عرقي أو إثني أو قومي أو مذهبي...الخ، أو لأن الأسس التي قامت عليها الدولة لم تكن سليمة، وإن البناء كان ضعيفاً سرعان ما تنهار قواعده، وهذا يحدث في الأقطار التي قامت على أسس نظرية بحتة لا تستقيم مع الواقع العملي.

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك الاتحاد السوفييتي الذي انهار وتفكك في عام 1991 والاتحاد اليوغسلافي الذي بدأ بالتفكك في عام 1991، وكذلك تشيكوسلوفاكيا التي تفككت إلى دولتي سلوفاكيا وتشيكيا في عام 1992. لقد ظن منظرو الاشتراكية أنهم نجحوا، حينما اشتعلت الثورة البلشفية في عام 1917م، أن باستطاعتهم احتواء جميع التناقضات العرقية والقومية والمذهبية...الخ في الاتحاد السوفييتي، الذي اتسعت رقعته لتشمل دولاً آسيوية ودولاً في أوروبا الشرقية، ولكن ظنهم خاب، وأدت هذه التناقضات إلى نسف هذا الاتحاد. والشيء نفسه – تقريباً حدث في الاتحاد اليوغوسلافي وفي دولة تشيكوسلوفيا.

يبدو لنا أن نموذج الاتحاد السوفييتي والاتحاد اليوغسلافي وتشيكوسلوفاكيا ينطبق على إسرائيل، فهي مرشحة في المستقبل إلى الانهيار من الداخل أكثر مما هو من الخارج. وسنذكر فيما يلي بعض مظاهر التناقضات في الكيان الإسرائيلي التي نعتقد بأنها سوف تؤدي إلى انهياره.

أ. انكشاف حقيقة الصهيونية:

لقد بات واضحاً لدى كثير من اليهود أنهم ذهبوا ضحية خداع وتضليل صهيوني، فقد ظنوا بأن الصهيونية ستقيم لهم دولة ديمقراطية ينعم جميع سكانها بالعدل والمساواة وبالأمن والاستقرار، ولكن الواقع أظهر عكس ذلك. وكانت

الصدمة كبيرة، وبخاصة عند اليهود من ذوي الضمائر الحية، حينما رأوا أن قيام هذه الدولة كان على حساب شعب بريئ، سُلب وطنه، وحُرم من حقوقه، وطُرد من أرضه، وموُرست عليه جميع أنواع الظلم والقهر والعدوان، وتعرض – ولا يزال يتعرض – للمذابح، وأن قادة إسرائيل يمارسون الجرائم التي ارتكبها النازيون على اليهود، بل إنهم تفوقوا على النازيين في الإجرام. وقد شاهدنا على الفضائيات يهوداً يستنكرون هذه الجرائم الإسرائيلية ويتبرأون منها، ويقولون بأنها تتنافى مع الأخلاق اليهودية الأصيلة. وينشر كثير من اليهود مقالات في بعض الصحف وفي الإنترنت، يدينون فيها المذابح والجرائم الإسرائيلية، وقالوا فيها بأن هذه الأعمال أفقدت اليهود التعاطف العالمي، وألحقت بهم الأذى، وولدت كراهية الشعوب لهم، وأحيت اللاسامية من جديد. وهناك من أدان بشدة عمليات التطهير العرقي الذي قامت به إسرائيل في فلسطين. ويُعد المؤرخ الإسرائيلي المعروف "إيلان بابيه" أبرز الذين أدانوا التطهير العرقي، في كتابه المشار إليه سابقاً والمسمى "التطهير العرقي في فلسطين"، والذي صدر بالإنجليزية عام 2006.

أمّا "نورمان فنكلشتين Norman Finkelstein أستاذ العلوم السياسية بجامعة "دي بول"، فقد نشر كتاباً بالإنجليزية عام 2005 بعنوان "ما وراء الجُرأة" Beyond chutzpah، شجب فيه تجاهل إسرائيل لحقوق الإنسان، وكشف عن سجلها المشين في هذا المجال، كما أدان سوء استخدام التاريخ، وحجب الحقائق عن الناس. وقال أنه كلما تعرضت إسرائيل لضغط دولي تقوم بحملة إعلامية تحاول أن تثبت بها بأن هناك موجة من معاداة السامية. وقد ركّز على إساءة استخدام اللاسامية من قِبَل جماعة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأميركية قائلاً[3]:

"كلما كان هناك احتمال أو توقع أو إشارة على أن المجتمع الدولي سوف يضغط على إسرائيل لتنسحب من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وجدنا أن حملة اللاسامية تُطلقها الدوائر الإسرائيلية الصهيونية عبر مبالغة إعلامية يتم تنظيمها بعناية، مدعية بأن هناك لا سامية يتقاذفها العالم". وهو ينفي ما يدعيه اليهود بحقهم التاريخي في فلسطين، وينفي أيضاً ما تزعمه الصهيونية بأن فلسطين كانت خالية قبل مجيء اليهود لها[4].

ولقد كشف كثير من اليهود الخدع الصهيونية التي سبق ذكرها، وصدموا حينما شبه الصهاينة عرب فلسطين بالهنود الحمر في أمريكا، وأرادوا تطبيق النموذج الأميركي في إقامة دولة بالقضاء على الهنود الحمر، وتبين لهم أن ذلك غير ممكن، بعد أن رأوا تمسك الفلسطينيين بوطنهم، وقدرتهم على المقاومة والصمود، وأنهم مصممون على إفشال المخطط الصهيوني، وهذا ما سنبحثه فيما بعد.

لا شك في أن انكشاف الصهيونية، أدى إلى سقوط الإجماع على السير خلفها، كما كان في السابق، وتنامى عدد اليهود الذين تحولوا عنها، وعارضوها، بل وحاربوها، لأنهم صاروا يرون أنها تشكل خطراً على اليهود. ولذلك أصبح يطرح – ولأول مرة – الفكر الصهيوني ويُعاد النظر فيه، وفي الأسس الواهية التي قام عليها، وما سيلحقه هذا الفكر من ضرر على اليهود. وتجيء هذه المراجعة للفكر الصهيوني تحت عنوان "ما بعد الصهيونية". وقد نشرت تحته كثيرٌ من المقالات والكتب، ومعظمها موجود على الإنترنت، وفيها مقالات ليهود يهاجمون الصهيونية. وربما كانت البداية بعد قيام إسرائيل، على يد الراحل المفكر الإسرائيلي "إسرائيل شاحاك" والذي كان أستاذاً بجامعة حيفا، فقد نشر الكثير من المقالات

ضد الصهيونية، وشجب ممارسات إسرائيل وأعمالها الإجرامية، وألف كتاباً عنوانه "الديانة اليهودية وتاريخ اليهود وطأة 3000 عام" حيث قدم له صديقه الراحل المفكر الفلسطيني الدكتور إدوارد سعيد، وقد سبقتْ الإشارة لهذا الكتاب. ولا ننسى أيضاً المفكر اليهودي "نعوم تشومسكي" الذي لا يتوانى عن مهاجمة الصهيونية وشجب أعمال إسرائيل الإجرامية. وقد كان صديقاً وفياً للراحل الدكتور إدوارد سعيد.

إن اليهود الذين يدينون الممارسات الإسرائيلية، ويحاربون الصهيونية في تزايد، ومنهم من كان صهيونياً ثم تحوّل عنها بعد انكشاف حقيقتها. وربما كان القاضي "جولدستون" Goldstone الذي أدان فيه جرائم إسرائيل في أثناء حربها على قطاع غزة في عامي 2008/ 2009، مثالاً واضحاً على ذلك. ويُقال بأن هذا القاضي، الذي هو من جنوب إفريقيا، كان صهيونياً. وقد أثار تقريره حنق إسرائيل وغضبها، ووجهت له – وللغرابة – تهمة اللاسامية، على الرغم أنه يهودي.

ب. تدهور الأوضاع الداخلية:

تعاني إسرائيل من مشكلات داخلية كثيرة تحاول تغطيتها إمّا بشن الحروب على العرب، وافتعال الأزمات التي تجعل الإسرائيليين في حالة خوف واستنفار من خطر مزعوم يتهددهم، وأوهمتهم أن العرب يريدون إلقاءهم في البحر، وأن سلامتهم وسلامة دولتهم يتوقف على التمسك بوحدتهم الوطنية، وتناسي خلافاتهم، وتجاوز ما يعانيه مجتمعهم من تناقضات، والتغلب على ما بينهم من خصومات ونزاعات.

ويبدو أن هذا الوهم، الذي حذّر به قادة إسرائيل السكان، انكشف أمره

لدى كثير من الإسرائيليين الذين أدركوا أن العرب لم يعودوا ليشكلوا تهديداً لإسرائيل، وإنما العكس هو الصحيح، فإسرائيل اليوم هي التي تهدد العرب، وأن قوتها تفوق قوة جميع الدول العربية مجتمعة، وأن العرب هم الذين يطلبون السلام، بينما تضع إسرائيل العقبات أمام السلام، مما أزاح الغشاوة عن كثير من الإسرائيليين الذين كانوا يصدقون مزاعم قادة إسرائيل التي ادعت بأن العرب يرفضون السلام مع إسرائيل.

من يطلع على أوضاع إسرائيل من خلال ما ينشر من مقالات في الصحف الإسرائيلية وفي الإنترنت، وما يُطبع من كتب يستطيع أن يدرك حجم المشكلات الداخلية التي تعاني منها إسرائيل، ويتبين الكثير من الخلل في التركيبة السكانية، والتناقضات في هيكل الكيان الإسرائيلي.

ولقد بدأت تظهر هذه الاختلالات والتناقضات على السطح، وتتخذ شكل أزمات وصراعات، منها على سبيل المثال، الصراع بين العلمانيين والمتدينين، والصراع بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، والصراع بين الأصول والعروق والإثنيات التي ينتمي إليها اليهود المهاجرون، كيهود الفلاشا، القادمين من أثيوبيا، واليهود القادمين من روسيا الذين يرفض كثير منهم الاندماج في المجتمع الإسرائيلي، ومنهم من لا يدين باليهودية، ولا يريد التحدث باللغة اليهودية، مما أثار مشكلة الهوية الإسرائيلية، ومن هو اليهودي؟ وما الأسس التي بها يمكن إثبات يهودية اليهودي؟ وهل اليهودي هو المولود من أم يهودية؟.

بزيادة أعداد المتشككين في سلامة قيام إسرائيل، بدأت أعداد كثيرة من اليهود تتهرب من الخدمة العسكرية. ونتيجة للجرائم التي يرتكبها الجيش

الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية فضّل بعض الجنود الذين صحت ضمائرهم الفرار من الجيش غير مبالين بالعقوبات التي يتعرضون لها.

وربما كان الصراع بين العَلْمانيين والمتدينين الأقدم والأقوى، وقد بدأ منذ ظهور الصهيونية التي مثّلت دور المسيح الكاذب في إقامة الدولة. وقد سبق شرح هذه النقطة.

إن الصراع بين العلمانيين والمتدينين واسع جداً، ولا نستطيع أن نفيه حقه في هذا المجال، وهنالك الكثير من الكتب والبحوث والمقالات التي تناولته، ولعل من بينها كتاب صدر في عام 2008، بعنوان: "إسرائيل..الصراع الآخر"، تناول فيه مؤلفه الصحفي "ماريوس شانتر" Marius Shanter، تاريخ المواجهة بين العلمانيين والمتدينين، وخلص إلى أن التعايش بين الطرفين مستحيل. وتزداد قوة هذا الصراع كلما انخفضت حدة الصراع الخارجي. ويلقي المؤلف الضوء على قوة هذا الصراع، وخطورته على صيغة التعايش داخل المجتمع الإسرائيلي.

يقول المؤلف أن هذا الصراع قديم، أي منذ بداية الصهيونية، ولكن الزعماء الصهاينة، وقادة إسرائيل الأوائل حاولوا التقريب بين الطرفين، فعلى سبيل المثال، رفض "بن غوريون" أول رئيس وزراء لإسرائيل حين إنشائها في عام 1948، وهو علماني، الفصل بين الدين والدولة، إرضاءً للمتدينين.

ج. اليمين المتشدد خطر على إسرائيل:

يبدو أنه برحيل الآباء المؤسسين لإسرائيل مثل "بن غوريون" و"موشي شاريت" و"ليفي أشكول" و"جولدا مائير" و"مناحيم بيجين"، عادت النزعة الدينية بقوة، وتغلبت على التيار العلماني، وكانت وراء اغتيال رئيس الوزراء

"إسحق رابين" في عام 1995م.

لقد ظن البعض أنه حدث تراجع نسبي للتيار الديني، وصعود ظاهر للتيار العلماني ممثلاً في صعود "آرئيل شارون" وتسلّمه السلطة، التي استلمها من بعده "أولمرت"، ثم "تسيفني ليفني"، وأخيراً نيتنياهو، وكلهم علمانيون، مهما وضعوا على رؤوسهم من شارات التدين، هي في الحقيقة شكلية، فإن كثيراً من المتدينين تحول إلى يمين متشدد أو داعم لليمين أو متحالف معه في الحكم، ورافض لأية تسوية مشروطة مع العرب والفلسطينيين، ولا يوافق على الانسحاب من الأراضي المحتلة.

إن هذا الصراع بين العلمانيين والمتدينين الذي يدور حول شكل الدولة وعلاقتها بالدين ومسألة الهوية، والشريعة والحرية، وقضايا المسائل الشخصية سيحدد مستقبل اليهود والدولة اليهودية. وفي الوقت نفسه فإن اليمين المتشدد أدى إلى ظهور النزعة الشريرة لإسرائيل – أو أن الأصح بأن نقول – كشف عن حقيقتها العدوانية، وغيّرت النظرة إلى اليهود، من جماعات دينية بدت في أعين الكثيرين أنها مظلومة مضطهدة، إلى دولة معتدية ومجرمة تمارس على الفلسطينيين كل أنواع الجرائم.

إن بروز اليمين المتشدد، وفوزه في الانتخابات، واستلامه السلطة والحكم في إسرائيل، ولّد عند كثير من الإسرائيليين الاستعلاء والغرور والاستهانة بالعالم وبدوله، بما فيها الدول التي لولاها لما قامت إسرائيل، كبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. ولم تعد إسرائيل تستجدي أو تطلب ود هذه الدول، وإنما صارت تبتزها وتملي عليها إرادتها، وبدأت تبرز ظاهرة الاستعلاء والادعاء بالتفوق عند

الإسرائيليين. وسنبحث هذه النقطة بالتفصيل، ونبين تأثيرها ونتائجها السيئة على إسرائيل واليهود، وعودة اللاسامية من جديد وبقوة. التي بدأت تظهر بالفعل، وبخاصة في أوروبا.

ربما كان "بنيامين فرانكلين" (1706–1790)، وهو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأميركية، من أوائل الذين حذروا من نفوذ اليهود وخطرهم. ففي أثناء انعقاد المؤتمر الدستوري في عام 1789م بمدينة فيلادلفيا حذّر فرانكلين من الخطر الذي يمثله اليهود على الدولة الأميركية الجديدة، وقد سجّل هذا التحذير عضو المؤتمر آنذاك "تشارلز بيكني" Charles Pickney، 1746–1825م ممثل ولاية ساوث كارولينا. وإليك نص هذا التحذير:

«إنني أتفق تماماً مع الجنرال واشنطن(*)، بأننا يجب أن نحمي هذه الأمة الشابة من تأثير واختراق غادر. إن ذلك الخطر – أيها السادة – يتمثل في اليهود. ففي كل دولة استقر فيها اليهود بأية أعداد كبيرة، قاموا بإضعاف سلوكياتها الأخلاقية، وتفتيت استقامتها التجارية، وعزلوا أنفسهم، ولم يتم استيعابهم. وقد سخروا من الدين المسيحي الذي بُنيت عليه هذه الأمة، وحاولوا تخريبه بالاعتراض على حدوده، وبنوا دولة داخل دولة. وعندما جرى اعتراضهم حاولوا خنق تلك الدولة مالياً حتى الموت، كما حدث في حالتي إسبانيا والبرتغال.

إذا لم تبعدوهم عن الولايات المتحدة في الدستور، ففي أقل من مائتي عام سيأتون إلى هنا بأعداد هائلة، ويسيطرون على البلد ويلتهمونها، ويغيرون شكل الحكم الذي سفكنا – نحن الأميركيون – من أجله الدم، وضحّينا بحياتنا وبما نملك،

(*) أول رئيس للولايات المتحدة الأميركية، تولى السلطة في عام 1789.

وعرضنا من أجله حريتنا للخطر.

إذا لم تستبعدوهم، ففي أقل من مائتي عام سيعمل أحفادنا في مزارعهم، ليزودوهم بوسائل عيشهم، بينما سيكونون هم في بيوت مالهم يفركون أيديهم (فرحاً). إنني أحذركم، أيها السادة، إذا لم تستبعدوا اليهود للأبد، فإن أبناءكم سيلعنونكم في قبوركم...إن أفكارهم لا تنسجم مع أفكار الأميركيين، حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال، فالنمر الأرقط لا يستطيع تغيير رقطه...إنهم خطر على هذا البلد إذا ما سمح بدخولهم، ويجب أن يُستبعدوا بوساطة هذا المؤتمر الدستوري».

وإن كان لنا من تعليق على هذا التحذير، فإن كل ما توقعه "بنيامين فرانكلين" قد حدث، بل وأكثر مما توقع، وأن تحذيره، وإن لم يؤخذ به، إلا أنه سيأتي يوم يفيق فيه الشعب الأميركي ويصحو ولا يرضى بهذا الوضع، ولن يقبل بهذه الغطرسة الإسرائيلية. ويبدو لنا أن هذا اليوم الذي قد يراه الكثيرون بعيداً أومستحيلاً، فإننا نراه بإذن الله قريباً.

د. الغرور والاستعلاء:

قلنا أنه بفوز اليمين المتشدد في الانتخابات واستلامه الحكم والسلطة في إسرائيل برزت ظاهرة الاستعلاء والغرور والادعاء بالتفوق عند الإسرائيليين وقادتهم. وهي ظاهرة ليست جديدة ولكنها كانت كامنة في نفوس اليهود منذ نشأتهم كجماعة دينية. وقد تتبع دراسة هذه الظاهرة عند اليهود "ديفيد ديوك" David Duke، وهو مرشح سابق للرئاسة الأميركية، وعضو سابق في الكونجرس عن ولاية لويزيانا، في كتابه المسمى "التفوق اليهودي" Jewish Supremacism

والذي ظهر في طبعته الأولى عام 2005م، وكان على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. ومعظم المراجع والمصادر التي اعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب كانت يهودية، حتى لا يُتهم باللاسامية التي يلصقها اليهود بكل من يعارضهم، ويندد بممارسات إسرائيل الإجرامية.

يقول "ديوك" بأن جذور هذا الاستعلاء والادعاء بالتفوق والتمييز عن سائر البشر موجودة في كتبهم المقدسة، وبخاصة العهد القديم والتلمود. وقد سبق أن عرضنا نصوصاً منها تبين ذلك، منها زعمهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الله اختارهم من دون غيرهم وفضلهم على جميع الأمم والشعوب في العالم، وأن من حقهم وحدهم حكم غيرهم من تلك الأمم والشعوب والأقوام، وأن الله وعدهم بأن يمتلكوا العالم ويحكموه. وهم يفتخرون ويتباهون بما ارتكبوه من مذابح ضد غيرهم. وهم مأمورون بقتل جميع سكان البلاد التي قرروا العيش فيها، وقتل شعوب كل الأمم الذين يخضعون لعبوديتهم. ويُحظر عليهم اتخاذ عبيد من بني جلدتهم، ولكنهم يدعون لاستعباد غير الإسرائيليين الذين قد يخضعونهم عبيداً لذراريهم. كما يُحظر عليهم الزواج المختلط، حفاظاً على نقاوة أصلهم، كيلا يفسدها الاختلاط مع غير اليهود الذين يسمونهم "الجويم" بمعنى الأغيار. ولا يستحي التلمود أن يصف غير اليهود بالحيوانات ومرفوضين من السماء.

ومن يطلع على أسفار العهد القديم، وبخاصة سفر يشوع يرى الجرائم البشعة التي ارتكبها اليهود، ولا سيما حينما دخلوا مدينة أريحا.

ويقول "ديفيد ديوك" بأنه لا تزال بعض الصحف اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية، تنادي حالياً بمعاداة الأغيار، مثل صحيفة The Jewish Press.

ويذكر أسماء حاخامات عنصريين، يتباهون بتفوق اليهود.

إن الولاء عند اليهود – كما يقول ديوك – ليس للبلدان التي نشأوا وتربوا فيها، ولا زالوا يعيشون فيها، وإنما هو لإسرائيل فقط. ويستشهد على ذلك باعتراف واضح وصريح للدكتور "ستيفن شتنلايت" Stephen Steinlight، أحد أبرز اليهود الأميركان، وهو شخصية معروفة، عمل خمس سنين مديراً للشؤون الوطنية (السياسة الداخلية)، في أقوى وأهم منظمة يهودية في الولايات المتحدة الأميركية، وهي اللجنة اليهودية الأميركية The American Jewish Committee. وقد جاء الاعتراف في مقال نشره "ستيفن" في تشرين الأول/ أكتوبر 2001 بعنوان "الوتد اليهودي في الديموغرافيا الأميركية المتغيرة"، جاء فيه ما يلي:

«أعترف، على الأقل مثل آلاف اليهود المثاليين من جيلي، بأني تربيت كيهودي وطني..حضرت وعلى مدى عشر سنوات من طفولتي ومراهقتي، ولمدة شهرين في صيف كل عام، معسكراً يهودياً. وكنا في كل صباح نُحيِّي عَلَماً أجنبياً – يقصد علم إسرائيل – ونرتدي زياً يعكس ألوان هذا العلم، وننشد نشيداً وطنياً أجنبياً – يقصد النشيد الوطني الإسرائيلي – ونتعلم لغة أجنبية، يقصد اليهودية، ونغني أغاني تراثية أجنبية، أي يهودية، ورقصات، وتعلمنا أن فلسطين كانت الوطن الحقيقي لنا، وأن الهجرة لإسرائيل تُعد قمة الفضائل.

لقد قضيت، مثل كثير من اليهود المراهقين من أبناء جيلي، صيفين نعمل في إسرائيل في مزرعة جماعية...وقد تعلمت تفوق شعبي – يقصد اليهود – على الأغيار الذين ظلمونا. لقد تعلمنا بأن نرى غير اليهود، على أنه لا يمكن الثقة بهم، وأنهم غرباء، وهم أُناس يمكن أن يكونوا مصدر كراهية لنا، إنهم أقلّ حساسية،

وأقلّ ذكاءً وخُلقاً منا. وقد تعلمنا أيضاً، أن درس تاريخنا الأسود، يكمن بأنه لا يمكننا الاعتماد على أحد».

إن هذا الاستعلاء والادعاء بالتفوق والاحتقار للأغيار يتجلى اليوم بوضوح في إسرائيل، ويتجسد في جرائمها وممارساتها العنصرية، وانتهاكاتها لحقوق الإنسان الفلسطيني.

إن هذا الاستعلاء وهذا السلوك اليهودي مع الأغيار جلب عليهم نقمة الأمم والشعوب. ويستشهد "ديفيد ديوك" بأقوال الدكتور "إسرائيل شاحاك" الذي يَعُدُّه من أحرار اليهود ومن مفكريهم المنصفين، والذي يؤكد فيها بأن هذه الشوفينية المتطرفة – يقصد عند اليهود – أدت عبر القرون إلى عودة أفعال كراهية ومعاداة السامية، والتي بلغت مداها منذ مذابح الفراعنة – لليهود – وحتى أهوال ما يُسمى حالياً المذابح "الهولوكوست". وهو يناقش وبطريقة مقنعة قائلاً: إنه ما لم يقف اليهود والأغيار وبشجاعة ضد أجندة التفوق هذه وقواها، فإنها ستظل تشكل خطراً شديداً على كل من اليهود والأغيار على السواء.

في اعتقادي أن اليهود لن يتخلوا عن هذا السلوك، والدليل على ذلك صعود اليمين المتطرف في إسرائيل، وزيادة التعنت والتشدد، وفي الوقت نفسه صدور تصريحات من حاخامات يهود كبار يصفون العرب بالأفاعي، وزعمهم أن الله نادم على خلقهم...وهذا تطاول على الله، ولكن هذا ليس غريباً عليهم، فأسفارهم كثيراً ما تتطاول على الله جل في علاه.

وللأسف فإن أصوات عقلاء اليهود – وهم كثيرون ومنتشرون في إسرائيل والعالم – تضيع وسط ضجيج السفلة والسفهاء والمتعصبين منهم. ولا شك في أن

هذا الاستعلاء وهذه الغطرسة والعنجهية الإسرائيلية ستكون معولاً من معاول هدم هذه الدولة العنصرية الفاشية، وستلحق الضرر والأذى باليهود في العالم. وقد ظهرت هذه المؤشرات، منها استفتاء أجري في أوروبا قبل عدة سنوات أظهر أن نحو 60٪ من الأوروبيين قالوا بأن إسرائيل تشكل خطراً على السلم العالمي، وفي الوقت نفسه زيادة الدعم والتعاطف لحقوق الفلسطينيين.

هـ. الصراع داخل التركيبة السكانية:

إن من أهم متطلبات الثبات والاستقرار في الدولة وجود تجانس بين السكان، فالتباين في التركيبة السكانية أدى إلى تفكك الدول وانهيارها، وهذا ما حدث في الماضي، وكذلك حدث في عصرنا الحاضر، فقد تبين أن اختلاف العروق والأصول والقوميات والشعوب كانت من أهم عوامل تفكك وانهيار كل من الاتحاد السوفييتي والاتحاد اليوغسلافي وتشيكوسلوفاكيا.

ربما كان من أهم نقاط الضعف في الكيان الإسرائيلي وجود الكثير من الاختلافات في التركيبة الإسرائيلية. ومن المعلوم بأن العامل السكاني وتجانسه، يُعد الركيزة الأولى والأهم في إقامة الدولة، إذ لا وجود لدولة من دون سكان متجانسون يقيمون على رقعة محددة من الأرض، يفرضون عليها سيطرتهم، ويزاولون عليها فعالياتهم ومناشطهم، ويختارون نظام حكمهم.

هذا الشرط غير متوافر في إسرائيل، فالسكان يفتقدون التجانس، وهم ينتمون إلى أصول وأعراق مختلفة، وأقوام وشعوب متباينة، وليس بينهم قاسم مشترك إلاّ كونهم يدينون باليهودية، وكلنا يعلم بأن العلمانيين الذين يشكلون في إسرائيل نسبة لا بأس بها، لا يضعون وزناً كبيراً للدين.

وقد يرى البعض أن التجانس السكاني ليس شرطاً لقيام دولة مستقرة قابلة للاستمرار، بدليل أن دولاً في أستراليا والأميركيتين وكندا يفتقد معظمها إلى هذا التجانس السكاني، فسكان الولايات المتحدة الأميركية وكندا، على سبيل المثال، خليط من أصول وأعراق وأجناس وأقوام مختلفة، ومع ذلك فإنهما دولتان مستقرتان وقويتان.

ردنا على هذا بالقول إن جميع دول الأميركيتين وأستراليا، أو ما يُسمى بالعالم الجديد، أنشأها مهاجرون، معظمهم أوروبيون، وأقاموها على أراضٍ خالية أو شبه خالية من السكان، إلاّ من جماعات قليلة مبعثرة ومشتتة من الهنود الحمر – في الأميركيتين – ومن الأُستراليين القدماء – في أستراليا – وكان مستواهم الحضاري متخلفاً جداً، فيما عدا حضارة الأزتك في مناطق محدودة من أميركا اللاتينية. وقد استطاع المهاجرون الأوروبيون الأوائل من تطوير البيئات الجديدة والنهوض بها والتعايش معها، ثم جاءت أفواج أخرى بعد ذلك لتتأقلم في هذه البيئات التي اتخذتها مواطن جديدة لها، وأخذت تندمج في المجتمع الجديد، ونشأت علاقات ومصالح مشتركة بين السكان، لتشكل الأرضية لتجانس من نوع جديد. إن حالتها أشبه بحالة الهجرات الأولى للإنسان القديم، الذي خرج من بيئته الأولى إلى بيئات أخرى واستقر فيها، وكوَّن فيها مجتمعات لها خصائصها ومزاياها.

الحالة الإسرائيلية مختلفة تماماً، ففلسطين، وهي جزء من المنطقة العربية، ومن بلدان العالم القديم، وهي مأهولة بسكانها منذ آلاف السنين، وقامت على أرضها أولى الحضارات والمدنيات في العالم، وهي ليست أرضاً بلا شعب، تنتظر قدوم شعب بلا أرض، كما زعمت الصهيونية، وخدعت بهذا الشعار يهود العالم، وعرب

فلسطين ليسوا كالهنود الحمر، كما ظن الصهاينة الذين أرادوا تطبيق النموذج الأميركي حينما فكروا في إقامة إسرائيل.

نعود إلى ما سبق قوله بعدم وجود تجانس سكاني في إسرائيل التي عملت على استقدام سكانها من مختلف أقطار العالم. وتضم التركيبة السكانية في إسرائيل مجموعتين رئيسيتين هما: اليهود الأوروبيون واليهود الشرقيون.

يطلق على اليهود الأوروبيين "الأشكيناز"، وهم – كما سبق القول – لا علاقة لهم بالشرق إثنياً أو عرقياً أو جنسياً، وإنما ينتمون إلى الشعوب الأوروبية، وأصلهم من القوقاز ومنطقة حوض بحر قزوين، وهي موطن الجنس الأبيض قبل انتشاره في أوروبا والعالم، كما يقول علماء الأجناس البشرية.

لقد كان اليهود الأوروبيون أول من هاجر إلى فلسطين منذ القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة منها ما تعرضوا له من اضطهاد في عدة بلدان، وبخاصة روسيا، واستغلال الصهيونية لهذا الاضطهاد، وتعاونها مع القوى الكبرى في خدمة المصالح المشتركة، كما سبق وذكرنا.

اليهود الأوروبيون هم الذين أقاموا الكيان الإسرائيلي في عام 1948، وملكوا زمام الحكم والسلطة، وشكلوا أقوى الأحزاب آنذاك، وبخاصة حزب العمل الذي ظل يحكم إسرائيل قرابة ثلاثة عقود. وهم يشكلون نحو ثلثي سكان إسرائيل من اليهود. ويتمتعون بمستوى علمي وثقافي واجتماعي واقتصادي يفوق ما يحظى به اليهود الشرقيون، مما ولّد حقداً عند اليهود الشرقيين.

تبلغ نسبة اليهود الشرقيين حالياً نحو ثلث السكان اليهود في إسرائيل، بينما كانت نسبتهم في عام 1972 نحو 46٪ وسبب هذا الانخفاض نتيجة الهجرات المكثفة

من الاتحاد السوفييتي قبيل تفككه وانهياره. واليهود الشرقيون ليسوا مجموعة بشرية متجانسة، فنحو 18٪ منهم قدموا من المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وأثيوبيا. وحوالي 16٪ جاءوا من تركيا وإيران والعراق واليمن والهند وباكستان. وقد حرصت الحكومة الإسرائيلية على إسكان اليهود الشرقيين في مساكن الفلسطينيين بعد طردهم من البلاد، وفي منطقة النقب الصحراوية، وعلى الحدود مع البلاد العربية المجاورة لإسرائيل، ليشكلوا سياجاً أمنياً للدولة، مما يجعلهم عرضة لأي مقاومة عربية، مما يزيد من العداوة بينهم وبين العرب. ولذلك انخرط قسط كبير منهم في قوات الحدود الإسرائيلية التي اتسمت بشدة وقسوة معاملتها للعرب.

يبلغ متوسط دخل الأسرة من اليهود الشرقيين نحو 85٪ من دخل الأسرة من اليهود الغربيين، أمّا الدخل الفردي لليهودي الشرقي فلا يتعدى 69٪ من الدخل الفردي لليهودي الغربي، وأن حوالي 35٪ فقط من اليهود الشرقيين يحظون بسكن مريح، مقابل أكثر من 55٪ لليهود الغربيين.

وعلى العموم فإن مكانة اليهود الشرقيين متدنية اجتماعياً واقتصادياً، كما قلنا، فتولد لديهم شعور بالاضطهاد والمهانة والإحباط والغربة، وزاد هذا الشعور لاعتقادهم بأنهم قد هُمّشوا سياسياً. فانضموا إلى الأحزاب الجديدة التي تنافس حزب العمل الذي أنشأه اليهود الغربيون، ودعموا حزب "شاس" الديني، وتكتل الليكود، وصوتوا لهم، مما أطاح بحزب العمل في عام 1977، وهذا يعكس عمق الخلافات بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، ولم تنجح عملية الصهر التي كان يعتقد بن غوريون بأنها ستحل المشكلة، وتنهي النزاع والصراع بين المجموعتين،

فالمؤشرات تدل على أن حدة الخلاف، وشدة الصراع في تزايد.

ومما ساهم في تعميق التباين بين هاتين المجموعتين اليهوديتين في إسرائيل، تمسك كل مجموعة بخلفياتها الثقافية والحضارية، فاليهود الشرقيون، وبخاصة القادمون من البلاد العربية، لا زالوا يتمسكون بتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تظهر في الأفراح والمناسبات، ويفضلون التجمع والسكن في أحياء خاصة بهم. ولم تنجح إسرائيل في التغلب على هذه المشكلة.

وبعد هجرة اليهود المكثفة من الاتحاد السوفييتي سابقاً، بدأت تظهر مشكلة اليهود من أصل روسي. لقد بدأت هذه الهجرة في عام 1966. ويبلغ عددهم اليوم مليون نسمة، ولهم حزب خاص بهم اسمه "يسرائيل بعليا"، ورغم أنهم من الأشكيناز فإنهم يرفضون الاندماج كلياً في إسرائيل، ولا زالوا يحافظون على لغتهم وتراثهم، ويسكنون في أحياء مستقلة ومنعزلة عن غيرهم من اليهود، وكثير منهم يرفض تعلم اليهودية، ويصر على التحدث باللغة الروسية، ولذلك أنشأوا لهم صحفاً ومسارح ومدارس خاصة بهم، مما أدى إلى قيام مجتمع داخل مجتمع، جعل الاندماج صعباً، وبخاصة بعد تباين المصالح والتوجهات والرؤى بينهم وبين المجموعات البشرية الأخرى في إسرائيل.

إن مشكلات التركيبة السكانية كثيرة منها مشكلات يهود الفلاشا الذين استقدمتهم إسرائيل من أثيوبيا ولم يندمجوا في إسرائيل كلياً. وهناك من يتشكك في يهوديتهم. ومن المشكلات الأخرى النزاع بين اليهود "الصابرا" Sabra الذين ولدوا في إسرائيل واليهود الدياسبورا Diaspora الذين ولدوا في الخارج، ولكل فئة

مطالبها وتطلعاتها. ونحن لا نستطيع في عجالة كهذه أن نفي التركيبة السكانية في إسرائيل حقها من الدراسة، وحسبنا أن نبين بأن تناقضاتها ستكون من عوامل انهيار إسرائيل، مهما طال بها الزمن.

و. الهجرة المعاكسة:

كلنا يعلم أن إسرائيل اعتمدت في قيامها على الهجرة، ولذلك عمدت الصهيونية – كما ذكرنا سابقاً – بكل الطرق والوسائل على تكثيف الهجرة إلى فلسطين، والتي بدأت في القرن التاسع عشر، وتسارعت وتيرتها إبان فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (1921–1948).

ولو اطلعنا على سجلات الهجرات اليهودية إلى فلسطين منذ قيام إسرائيل في عام 1948، نجد أن عدد الذين هاجروا في ذلك العام كان نحو 101,828 نسمة، وفي عام 1951 بلغ حوالي 105,279، ثم أخذت معدلات الهجرة في التناقص، حتى وصلت في عام 1985 إلى مستوى منخفض جداً، إذ هاجر إلى إسرائيل في ذلك العام نحو 10,642 شخصاً. ولكن بسبب تدهور الأحوال في الاتحاد السوفييتي، وبخاصة في عام 1990، وتفككه وانهياره في عام 1991، ونتيجة لعدم الشعور بالأمان والاستقرار، ارتفعت الهجرة إلى إسرائيل، فبلغت الذروة في عام 1990، فهاجر إليها نحو 200,170 مهاجراً، وفي العام التالي، 1991، انخفض إلى 176,650 مهاجراً، ثم بدأت أرقام الهجرة في التذبذب، مع ميل كبير نحو الانخفاض. ففي عام 2008، هاجر إلى إسرائيل 13,859 مهاجراً، وفي عام 2009، وصلها حوالي 16,244 مهاجراً.

تدل الذبذبة في أعداد المهاجرين إلى إسرائيل، على تردي الأوضاع الأمنية

والسياسية والاقتصادية والمعيشية في البلاد. وقد أجرى مركز "جوتمان Guttman Center" في إسرائيل استطلاعات رأي ومسوحات، تبين فيها أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الهجرة والأوضاع المختلفة في إسرائيل، وأنه نتيجة لتردي تلك الأوضاع، حدثت هجرة معاكسة، فاقت في بعض السنوات، أعداد القادمين إلى إسرائيل. وأظهرت هذه المسوحات أنه، بسبب حرب لبنان في عام 2006، حدوث انخفاض كبير في نسب الشباب الراغبين في البقاء في إسرائيل، بما لا يقل عن 20٪، وأن الذين قدموا من الاتحاد السوفييتي، بحثاً عن الأمن والاستقرار في إسرائيل صدموا حينما خابت آمالهم، وتبين لهم أن الأمن في إسرائيل مجرد سراب.

وقد كشفت دراسة أعدها مكتب الإحصاء الإسرائيلي للكنيست، ونشر فحواها على الإنترنت، بأن نسبة المغادرين من الذين هاجروا إلى إسرائيل، بعد عام 1989 أعلى بكثير من نسب المهاجرين كبار السن والمولودين في إسرائيل، وأن معظم الشبان المتعلمين القادمين من جامعة فلوريدا غادروا إسرائيل إلى أقطار أوروبية، كما أن ظاهرة العودة إلى روسيا أصبحت اليوم منتشرة، وبشكل ملفت للنظر، ومن جميع الفئات والأعمار، لأسباب منها: الاستقرار والأمن والعمل. ويبدو أن كثيراً من اليهود الروس، بدأوا بالعودة، إما إلى روسيا، وإما إلى أقطار غربية، بحثاً عن حياة أفضل.

ففي استطلاع إسرائيلي ظهرت نتائجه على الإنترنت، أُجري مؤخراً، تبين أنه نحو 52٪ من السكان يرغبون في الهجرة إلى الخارج، وأن حوالي 42٪ لا يثقون في الدولة، وأن من يشعرون بالأمن لا تتعدى نسبتهم 4٪ من السكان. وهي جميعها مؤشرات خطيرة، وليست لصالح إسرائيل.

إن ظاهرة الهجرة المعاكسة باتت تقلق الصهاينة، فهي تهدد استمرار الكيان الإسرائيلي، لو استمرت، أو تزايدت وتيرتها، وهذا ما هو متوقع، فقد أعلنت وكالة الأنباء الألمانية على الإنترنت في 20/ 4/ 2007 خبراً قالت فيه بأن صحيفة "أحرونوت" الإسرائيلية نشرت في عددها الصادر يوم الجمعة، تقول بأنه وللمرة الأولى منذ عشرين عاماً، تجاوزت أعداد الهجرة المعاكسة من إسرائيل للخارج، أعداد القادمين إليها. وقالت الوكالة أن صحيفة "معاريف" الإسرائيلية ذكرت بأنه ما يقرب من رُبع سكان إسرائيل تفكر في الهجرة إلى الخارج، وأن ما يقرب من نصف السكان الشباب يفكرون في مغادرة البلاد، لأسباب كثيرة، منها عدم الرضا عن الحكومة ونظام التعليم، وانعدام الثقة في الساسة والزعماء، واضطراب الأوضاع الأمنية.

ز. القنبلة السكانية العربية:

اعتقد الصهاينة بأن المشروع الصهيوني لن يتحقق إلاّ بطرد الفلسطينيين من ديارهم، واستقدام يهود من الخارج ليحلوا محلهم، وأن استمرار بقاء إسرائيل مرتبط بتفوق أعداد اليهود على العرب. وقد ظن الصهاينة أنهم حققوا حلمهم، وأن الطريق أصبحت سالكة لتنفيذ مخططاتهم، بعد أن نجحوا، قبيل وفي أثناء حرب 1948، في طرد غالبية سكان فلسطين آنذاك. ولكن الفلسطينيين تنبهوا لذلك فيما بعد، وتمسكوا بأرضهم، وفضلوا البقاء والاستشهاد على مغادرتها، ولم تفلح إسرائيل، على الرغم من الأعمال الإجرامية التي ترتكبها بحقهم، في زحزحتهم عن أوطانهم، وهذا ما يقلق إسرائيل حالياً، ويجعلها تشك في بقائها إن ظل العرب فيها، وحافظوا على معدلات الزيادة المرتفعة التي تزيد عن معدلات زيادة الإسرائيليين.

ولم تعد إسرائيل قادرة حالياً على سد هذا العجز بالهجرة، بسبب تناقصها – كما قلنا – وزيادة الهجرة المعاكسة.

لقد عقدتْ عدة اجتماعات، وبخاصة في هرتسليا، لبحث المشكلة السكانية، وما سمي بالقنبلة السكانية العربية، ووضعتْ الكثير من الآراء لحلها، لعل من أهمها بذل المزيد من الإجراءات والتضييقات على العرب، لإجبارهم على الرحيل، ولكنها لم تحقق ما عُلِّق عليها من آمال بسبب تشبث العرب بأرضهم، والتمسك بوطنهم، والصمود على ترابهم.

بلغ عدد سكان إسرائيل في عام 2008 نحو 7.41 مليون نسمة، يشكل اليهود حوالي 68٪ والعرب 24٪.

ولو أضفنا عدد سكان الضفة الغربية والبالغ عددهم نحو 2.5 مليون نسمة، وقطاع غزة حوالي 1.5 مليون نسمة، والعرب في إسرائيل، فإن العدد الإجمالي يبلغ نحو 5.7 مليون نسمة، وبذلك تصبح نسبة العرب في فلسطين التاريخية حوالي 50٪. ولا شك في أن هذه الأرقام ليست في صالح المشروع الصهيوني. وحتى لو ركزنا النظر على نسبة العرب الحالية داخل إسرائيل، وهي 24٪، فإنها مرشحة، حسب التقديرات، للتزايد، وهناك دراسة، أعدها مركز الزيتونة في بيروت، ونشرت على الإنترنت، تفيد بأنه في عام 2020م سيتفوق عدد السكان العرب على السكان اليهود، لو ظلت وتيرة الزيادة السكانية العربية مرتفعة، ولم تستطع إسرائيل سد الفجوة بالهجرة من الخارج، وهو احتمال ضعيف، حيث سيبلغ عدد العرب نحو 7.1 مليون نسمة في مقابل 6.8 مليون لليهود. إن القنبلة السكانية العربية، تظل مؤشراً مهماً على اقتراب نهاية إسرائيل، وفشل المشروع الصهيوني.

مؤشرات أخرى ذات دلالات خطيرة:

أولاً: على الساحة الدولية:

مما لا شك فيه أن هناك تحولات مهمة وكبيرة في كثير من أقطار العالم، وبخاصة في أوروبا، لصالح القضية الفلسطينية. وقد أدركت شعوب هذه القارة حقيقة إسرائيل العنصرية، واستنكرت جرائمها في الأراضي المحتلة، وأصبحت إسرائيل في نظرهم تُهدد السلم والأمن والاستقرار في العالم، كما أظهرت الاستطلاعات التي أُجريت في أوروبا قبل بضع سنين أن أكثر من 53٪ من المستطلعين قالوا بأن إسرائيل تشكل أكبر تهديد للأمن والاستقرار العالميين.

ولقد ظهر هذا التحول واضحاً من زيادة عدد الأجانب الذين يشاركون الفلسطينيين في تظاهراتهم ضد الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، مثل مصادرة الأراضي وهدم المنازل وإقامة المستوطنات وبناء جدار الفصل العنصري.

ولم يقتصر الأمر على التظاهرات والتأييد اللفظي والعلني للفلسطينيين ورفض الممارسات والأعمال الإجرامية الإسرائيلية وشجبها وإدانتها، بل بدأت بعض المؤسسات وهيئات المجتمع المدني والنقابات في أوروبا تتخذ مواقف صارمة من إسرائيل، لعل من أهمها على سبيل المثال قرار اتحاد الجامعات والمعاهد في بريطانيا (University and College Union (U.C.U، وهو يُعد كبرى نقابات التعليم العالي في المملكة المتحدة، يضم في عضويته أكثر من 120 ألف منتسب، وقد نص هذا القرار على دعم النداءات لمقاطعة الجامعات الإسرائيلية، تضامناً مع الشعب الفلسطيني. وقد أوردت هذا الخبر جريدة الشرق الأوسط في عدد الصادر بتاريخ 1/ 7/ 2007.

في أواخر شهر آب/ أغسطس، ومطلع أيلول/ سبتمبر عام 2009 أعلن مجلس الكنائس العالمي في دورته التي عُقدت في جنيف بسويسرا، عن إلغاء الاستثمارات الكنسية، وفرض مقاطعة على إسرائيل احتجاجاً على ممارساتها ضد الشعب الفلسطيني.

وفي مطلع هذا العام قاطع طلاب بريطانيون في جامعة أكسفورد، أعرق الجامعات البريطانية، محاضرة لرئيس الكيان الإسرائيلي "شيمون بيريز"، وهتفوا ضده، ووصفوه بأنه مجرم حرب.

وفي النرويج، قررت الحكومة إعادة النظر في استثماراتها في شركات إسرائيلية من بينها شركة "البيت سيستمز" Albait Systems التي تنتج الطائرات من دون طيار، وأجهزة إنذار تستخدم في جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية. وقد بلغت قيمة الاستثمارات في الشركات الإسرائيلية عام 2008 نحو 428 مليون دولار، وحوالي 100 مليون دولار في سندات مالية، إلى جانب شركات أخرى.

لقد زاد هذا التحول، وظهر بوضوح في أثناء الحرب على قطاع غزة عامي 2008/ 2009، فنظمت التظاهرات في العواصم والمدن الأوروبية والعالمية، واشترك فيها مئات الألوف ينددون بإسرائيل وجرائمها، ويطالبون بفك الحصار الظالم عن القطاع. وقد قاموا بعدة محاولات لكسر هذا الحصار، كما نظموا الكثير من قوافل الإغاثة لفك حصار سكان القطاع المحاصر.

ويبدو التعاطف الشعبي والرسمي مع القضية الفلسطينية في دول أميركا اللاتينية حيث يُقيم كثير من العرب والفلسطينيين الذين هاجروا منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومنهم من يحتل مراكز اقتصادية وسياسية مهمة.

وقد تجلى هذا التعاطف في التظاهرات ضد الممارسات الإسرائيلية الإجرامية في الأراضي الفلسطينية. وقد ندد عدد من كبار المسؤولين في دول أميركا اللاتينية بجرائم إسرائيل. وقد بلغ التعاطف ذروته في الوقفة المشرفة والشجاعة للرئيس الفنزويلي "هوغو تشافيز" الذي طرد السفير الإسرائيلي من فنزويلا، على إثر العدوان على غزة، واستعداده لقيادة حملة إغاثة وكسر الحصار المفروض على قطاع غزة.

ولا بد من التنويه أيضاً إلى الموقف الشجاع للرئيس البرازيلي "لولا دا سيلفيا"، ففي أثناء زيارته الرسمية لإسرائيل في آذار/ مارس، هذا العام (2010م) أصرّ على زيارة ضريح الرئيس الفلسطيني "ياسر عرفات" حاملاً إكليلاً من الزهور. وهذه دلالة واضحة على مدى تقدير أكبر دولة في أميركا اللاتينية، وإحدى دول العالم المهمة والمؤهلة لاحتلال مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، للشعب الفلسطيني، وتأييده لمقاومته المشروعة لاستعادة حقوقه كاملة.

وتأتي أهمية هذه الخطوة التي تحمل الكثير من المعاني السياسية والإنسانية من رفض الرئيس البرازيلي بإباء وضع زهور على قبر "ثيودور هرتزل" مؤسس الحركة الصهيونية، رغم الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه مضيفوه الإسرائيليون في أثناء زيارته الرسمية لتل أبيب. ولم يخف وزير خارجية إسرائيل "أفيغدور ليبرمان" غضبه من موقف الرئيس البرازيلي، ولم يكن يتصور أن يرى رئيساً بهذا المستوى يتعاطف مع الفلسطينيين، ويرفض وضع الزهور على قبر أكبر زعيم صهيوني، وأبدى حنقه باتخاذ قرار يتعارض مع الأعراف البروتوكولية، وهو الانسحاب من الكنيست في أثناء إلقاء الرئيس البرازيلي خطابه، معبراً عن الاحتجاج لموقفه.

ومن مظاهر هذا التحول ومؤشراته، تغيّر نظرة كثير من الدول لإسرائيل، واستيائها من أعمالها وتصرفاتها وغطرستها، وانتهاكها للأمن، وارتكابها جرائم تمس سيادتها، وتعريض مواطنيها للخطر، وبخاصة حين قام الموساد الإسرائيلي باغتيال عدد من رموز المقاومة الفلسطينية في أراضيها. وسجل إسرائيل الأسود مليء بالكثير من هذه الجرائم التي لا يتسع المجال لذكرها، ولكن نكتفي بذكر عملية اغتيال أحد رموز "حماس" وهو محمود المبحوح، في دبي بتاريخ 20/ 1/ 2010 والتي كانت من تدبير الموساد الذي استخدم في هذه العملية جوازات سفر لأشخاص ينتمون إلى عدة دول أوروبية، من أهمها بريطانيا وإيرلنده وفرنسا والنمسا وألمانيا وأستراليا، مما أثار غضب حكومات هذه الدول، فاستدعت سفراء إسرائيل فيها، أو من ينوب عنهم لإبلاغهم احتجاج تلك الدول على هذا التصرف المشين. وفتحت بعضها تحقيقاً في الموضوع لمعرفة المزيد من التفاصيل. وفي الوقت نفسه استجاب "الإنتربول" لطلب دبي، وأصدر مذكرات اعتقال لأحد عشر مشتبهاً في اغتيال المبحوح.

لقد أساءت هذه العملية كثيراً لإسرائيل، وألحقت الضرر بسمعتها، وأحدثت هزة عنيفة في إسرائيل، فطالبت صحيفة "هآرتس" بشكل واضح باستقالة مدير الموساد "مائير داغان"، المعروف بتأييده للتحركات المباشرة وعمليات التصفية.

صحيح أن تحول الحكومات الغربية، وبخاصة في أوروبا، لا زال دون المطلوب، وأن التأييد والدعم لإسرائيل لم يتوقف، إلاّ أننا نراهن على الشعوب في تلك الأقطار، أكثر من مراهنتنا على الحكومات، لأن شعوبها التي تتمتع

بالديمقراطية هي التي تنتخب تلك الحكومات، على عكس الأحوال في بلادنا، حيث الشعوب محكومة ومظلومة من أنظمة، غالبيتها مستبدة ومحتكرة للسلطة، وتمنع تداولها.

لا شك في أن للإعلام، بجميع وسائله، دوراً كبيراً في هذه التغيرات على الساحة العالمية، فالفضائيات تنقل الأحداث في حينها، ففي أثناء الحرب على غزة كان الناس في كل مكان يشاهدون جرائم الجيش الإسرائيلي واستخدامه للأسلحة المحرمة دولياً، مثل الفسفور الأبيض. لقد كانت مناظر الحرب والدمار على السكان الآمنين مفجعة، مما جعل العالم يستنكر هذه الجرائم الإسرائيلية، ويصفها بأنها أشد قسوة وبربرية من الجرائم النازية.

ومن العوامل المهمة الأخرى لهذا التحول في الموقف العالمي – وبخاصة الأوروبي – تجاه إسرائيل، انتشار العرب، بمن فيهم الفلسطينيين، في العالم. واندماجهم في مجتمعات الأقطار المختلفة، وقيامهم بمناشط وفعاليات تخدم القضية الفلسطينية، وتشكيلهم لجاناً وجمعيات ومؤسسات تتولى التوعية بالقضية، وتدعو لنصرة الفلسطينيين، وأشركوا في هذه اللجان والجمعيات عناصر وطنية من سكان تلك الأقطار.

ربما كان من أهم ما قامت به هذه الجمعيات واللجان – إلى جانب التوعية والدعم والنصرة – تقديم شكاوى إلى السلطات القضائية في عدد من الأقطار الأوروبية لمحاكمة قادة إسرائيليين تورطوا في جرائم ارتكبت بحق الفلسطينيين، واعتبارهم مجرمي حرب. وقد حققوا بعض النجاح في بعض الأقطار، ففي بريطانيا صدر حكم قضائي على قادة إسرائيليين، من بينهم "تسفني ليفني" رئيسة حزب

كاديما، ووزيرة الخارجية في حكومة "ايهود أولمرت" مما اضطرها للهرب خوفاً من إلقاء القبض عليها. وبسبب الضغط الإسرائيلي، فكرت بريطانيا إجراء تعديل على قوانينها حتى لا يتعرض قادة إسرائيل للقبض عليهم، لكنّ عملية الموساد الأخيرة باغتيال محمود المبحوح، في دبي عقّد المسألة، وجعل الحكومة، أمام ضغط الرأي العام، تعلق أو تلغي التفكير في تعديل القوانين لصالح إسرائيل.

لقد كان للتقارير الدولية، وبخاصة تقارير لموظفين كبار في هيئة الأمم المتحدة، مثل السيدة "كارين أبو زيد" الأميركية، ونائبها في غزة، وتقارير منظمات حقوق الإنسان والعفو الدولية، دور مهم في هذا التحول. لقد أدانت هذه التقارير أعمال إسرائيل الإجرامية بحق الفلسطينيين المدنيين، وتدميرها لمنازلهم، وتجريفها لأراضيهم، واعتداءاتها على أماكن العبادة والمدارس ومكاتب هيئة الأمم المتحدة، وارتكابها العديد من المجازر.

ولا شك في أن تقرير القاضي "رتشارد غولدستون" Goldstone، المشار إليه سابقاً، والذي أدان الجرائم الإسرائيلية في غزة، كان له أثره الكبير في إظهار طبيعة إسرائيل الإجرامية. وقد تبنته منظمة حقوق الإنسان، وطالبت بمعاقبة إسرائيل على جرائمها.

لقد أصبحت تخشى إسرائيل من هذه التحولات، وتحسب لها ألف حساب. وفي الثاني عشر من شهر شباط/ فبراير هذا العام (2010م) نشر خبر مفاده أن تقريراً إسرائيلياً حذر من وجود شبكة عالمية تضم نشطاء وأفراد ومنظمات حقوق الإنسان، في أنحاء العالم، يشكلون جماعات تسعى إلى نزع شرعية إسرائيل، وتشبيهها بنظام البيض في جنوب إفريقية سابقاً، وأفاد بأن هذه الشبكة تشكل تهديداً

استراتيجياً على إسرائيل.

وشدد التقرير على أن إسرائيل تتعرض حالياً لهجمة عالمية، تحاول نزع شرعيتها من خلال تظاهرات ضد إسرائيل في الجامعات وفي المناسبات المختلفة، وشن حملات إعلامية لمقاطعة المنتوجات الإسرائيلية المعروضة في أوروبا، إضافة إلى تقديم الدعاوي لمحاكم أوروبية والمطالبة بإصدار مذكرات اعتقال ضد مسؤولين إسرائيليين.

ولا شك في أن هذه التحولات مهمة وخطيرة، ولم يكن أحد يتصور أو يتخيل حدوثها قبل عشر سنوات من الآن، حيث كانت إسرائيل تحظى بعطف الشعوب والحكومات في معظم أقطار العالم.

ثانياً: على الساحة الإقليمية:

حينما قامت إسرائيل التزمت الدول العربية آنذاك بمقاطعتها ومحاصرتها وعدم التعامل معها، لكنّ إسرائيل تغلبت على ذلك، بالتعاون مع دول الجوار، وبخاصة تركيا وإيران في عهد الشاه، وطوّقت البلاد العربية. وقد تغير الوضع بعد قيام الثورة الإيرانية في عام 1979، وإقفال السفارة الإسرائيلية في طهران، وتحولت إسرائيل من دولة صديقة إلى دولة عدوة، ولكننا – وللأسف الشديد لم نعرف كيف نستثمر هذا لصالحنا، بل إن هناك من يحاول أن يجعل من إيران عدواً يحل محل العدو الإسرائيلي.

إن التحول المهم الآخر حدث في تركيا، بعد وصول حزب العدالة بزعامة "الطيب رجب أردوغان" إلى السلطة، مما أفقد إسرائيل أهم حليف استراتيجي في منطقة الشرق الأوسط. وقد ظهر هذا التحول التركي بانفتاح تركيا على البلاد

العربية، وبخاصة سوريا ولبنان والأردن، وتنديد الأتراك بأعمال إسرائيل الإجرامية وحربها على غزة، ووقوفها مع الشعب الفلسطيني.

ثالثاً: على الساحة العربية:

وهي للأسف أضعف الساحات وأقلها أهمية، رغم أنها المعنية أكثر من غيرها، وهي التي تتعرض للخطر. وهذا الضعف يتمثل في غالبية الأنظمة التي خضعت للضغوط الأميركية لصالح إسرائيل، وفرضت عليها عدم إغضاب قادة إسرائيل واستفزازهم.

ربما كان هذا الوضع الرسمي هو الذي أصاب الكثيرين باليأس والإحباط. ولكن هؤلاء يبدو وكأنهم يركزون على السلبيات دون الإيجابيات، وينظرون إلى نصف الكوب الفارغ، ولا ينظرون إلى النصف الآخر المليء الذي يتمثل في التغيرات العالمية والإقليمية، سابقة الذكر، وكذلك ما هو إيجابي على الساحة العربية.

على الرغم من تردي الأوضاع العربية التي نُعاني منها، ونتألم بسببها، فإن هناك مؤشرات إيجابية كثيرة، لا ينبغي أن نغض الطرف عنها، لعل من أهمها ازدياد الوعي العربي، نتيجة انتشار التعليم، وانخفاض نسبة الأمية، وتحسن المستويات الاجتماعية والثقافية، وارتفاع الدخول، ومستوى المعيشة، وتحسن الأحوال الصحية. وظهور عدد من مؤسسات المجتمع المدني، ومحاولتها التحرر من السيطرة الحكومية، ونجاح كثير منها في تحريك الجماهير، وبخاصة الرافضة للتطبيع مع إسرائيل، ومقاومتها له، ومطالبتها بضرورة المقاومة ودعمها، لأنها الوسيلة الوحيدة، والخيار الذي لا بديل عنه، لمواجهة الأخطار التي تهدد الأمة العربية،

ولإرغام إسرائيل على القبول بسلام عادل يعترف بحقوق الشعب الفلسطيني في وطنه، وهي حقوق لا يمكن تجاوزها، أو نكرانها، ولا تسقط بالتقادم.

لعل مما يبشر بالخير، أن هذا الوعي الجماهيري، أصبح اليوم قادراً على التمييز بين ما ينفع الأمة وما يضرها، وبين عدو حقيقي، وعدو مختلق، تريد قوى أجنبية من العرب محاربته، لصرف أنظارهم عن الخطر الداهم الذي يتمثل في إسرائيل، عدوهم الحقيقي.

وإذا كانت معظم الأنظمة العربية لا تستجيب – فيما يبدو – لمطالب الجماهير، فإن التعنت والصلف والعنهجية والغطرسة الإسرائيلية، واستهانة إسرائيل بالعرب وبقادتهم، وازدرائها بمبادرة السلام العربية، فإن هذا ولا شك، كفيل بتغيير المواقف الرسمية في البلاد العربية، لأن التمسك بالمواقف نفسها سيؤدي إلى مزيد من الفشل الذي يشكل خطراً على هذه الأنظمة، ويشعرها بأنها باتت مهددة، أو يظهرها بمظهر الضعف والمهانة أمام شعوبها، وهذا ما بدا واضحاً في هذه الأيام.

لقد ظهر هذا الوعي الجماهيري وتجلى في أثناء حرب إسرائيل في جنوب لبنان في عام 2006، ومحاولتها القضاء على حزب الله الذي صمد في المعركة، وأفشل مخطط إسرائيل وهدفها، وأثبت خطأ مقولة: الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر.

وتجلى هذا الصمود العربي الجماهيري أيضا في أثناء حرب إسرائيل على قطاع غزة في عامي 2008/ 2009، وفشل الجيش الإسرائيلي الذي استخدم جميع الأسلحة – بما فيها المحرمة دولياً – من تحقيق أهدافه، بسبب الصمود الأسطوري

والبطولي لسكان القطاع، المحاصر براً وبحراً وجواً، وتقاعس أشقائه عن دعمه ونصرته ومد يد العون له.

وإذا كانت الجيوش العربية النظامية فشلت في تحقيق النصر على إسرائيل، ومُنيت بكثير من الهزائم، فإن المقاومة الشعبية أثبتت جدارتها وفعاليتها، وأنها وحدها القادرة على تحقيق ما عجزت الجيوش النظامية من تحقيقه، وأنها قادرة أيضاً على توجيه ضربات موجعة ومؤلمة لإسرائيل.

لا شك في أن المقاومة، هي الوجه المشرق أو المضيء في السماء العربية الملبدة بالغيوم، وهي النور في هذا الظلام الدامس الذي يخيم على المنطقة العربية، وهي الأمل الوحيد المتبقي للعرب. وفي اعتقادنا أنه بسبب الفشل الذي تعاني منه الأنظمة العربية، فإنه لا خيار أمامها إلاّ المقاومة بجميع أشكالها ووسائلها المشروعة دينياً ودنيوياً. والمقاومة مؤشر على أن أمتنا لا تزال حية، وأن الحياة لا تزال تسري في جسمها رغم ضعفه وتدهوره.

وحتى تقوى هذه المقاومة، ويشتد عودها، وتستطيع القيام بدورها، لا بد من دعمها مادياً ومعنوياً، والأمة العربية قادرة على ذلك. وللدعم وسائله وأشكاله المختلفة والتي من بينها محاربة الذين ينشرون الفرقة بين الأمة، بترويج الشائعات التي تخدم العدو، ويبثون اليأس والإحباط بين الناس، ويقومون بغسل الأدمغة بمقالاتهم وأحاديثهم المسمومة التي يريدون بها إيصال الأمة إلى الهزيمة من داخلها، وهي والعياذ بالله، أشد أنواع الهزائم.

لا شك أن للتوعية متطلبات أساسية، منها التربية، سواء في البيت أو في المدرسة، وفي مؤسسات المجتمع المدني. والتربية تستدعي إعادة النظر في مناهجها

المدرسية، والتركيز على المواد الدراسية التي تُنشِّئ المواطن الصالح الذي يعرف واجبه نحو وطنه وأمته، وتحافظ على هويته وعروبته وعقيدته.

إن الإصلاح التربوي في بلادنا يحتاج إلى استراتيجية يقوم بصياغتها خبراء واختصاصيون، بحيث يمكن تحويلها إلى برامج وخطط عملية مرنة ومتطورة وقابلة للتنفيذ.

ونظراً لأهمية الإعلام وخطورته في صنع الرأي العام المستنير، وهذا بدا لنا واضحاً في أثناء الأزمات والشدائد، وتجلى في حرب جنوب لبنان عام 2006، والحرب على قطاع غزة في 2008/ 2009، فإن الأمر يتطلب إيجاد إعلام يتبنى القضايا الوطنية، ويلتزم بالخط الوطني والقومي.

علينا أن لا نحبط ولا نيأس حينما نرى التضييق على المقاومة، ومحاربة بعض الأنظمة لها، وما يُحاك ضدها من مؤامرات، حتى صار لسان حال المقاومة يقول: اللهم احمني من أصدقائي، أمّا أعدائي فأنا كفيل بهم، فهذه الأوضاع عانت منها الأمة العربية كثيراً في الماضي.

إن المقاومة وحدها هي التي جعلت الإسرائيليين لا يشعرون بالأمان في إسرائيل، وزادت شكوكهم في قدرة حكوماتهم على توفير الأمن لهم، فزاد عدد المغادرين للبلاد – كما سبق القول، وانخفضت معدلات الهجرة القادمة إلى إسرائيل. وقد عبّر عن هذا الشاعر الإسرائيلي المعروف "إيلي راندان" في قصيدة نظمها في أثناء انتفاضة الأقصى، وعنوانها "السم في العسل"، وقمت بترجمتها إلى اللغة العربية من اللغة الإنجليزية، وفيها يخاطب يهودياً اسمه "إسحق" يعيش في كييف، عاصمة أكرانيا، يستعد للهجرة إلى إسرائيل. وقد سبق أن نشرت هذه القصيدة

آنذاك في كتابي: "السلام الخادع".

يحذر الشاعر صديقه إسحق قائلاً له:

تمهل يا إسحق...

إلى أين أنت ذاهب؟

هل إلى أرض السمن والعسل؟

لماذا أنت صامت؟

أجبني...

هل استثارك سؤالي؟

ليست هناك مشكلة

وأنا لن أظل صامتاً بعد اليوم

إسحق...

لماذا يبحث الناس عن السمن والعسل؟

هل السمن والعسل ضروريان لحياة الإنسان

لسدّ جوعه وجوع أطفاله؟

إن من يُصر على ذلك فهو غبي!

وذلك ما يراه بسطاء الناس!

بإمكانك الحضور يا إسحق

وستجدهم في انتظارك

يستقبلونك بحرارة...وأيد ممدودة نحوك

والفتيات الفاتنات ينتظرنك في المطار عند سلم الطائرة

ويقدمن لك طاقة أزهار كبطل لأنك عدت إلى أرض الأجداد

وقد تكون سعيداً فتحظى بقبلاتهن الحارة

وستشاهد مسرحية كبيرة....

وستكون أنت أحد ممثليها رغماً عنك

لأنك أحييت تراث الأجداد ونفَّذت نبوءات قديمة

لقد عدت لتعيش في الأبدية وتشرب شهدها

وليسعد أطفالك بأرض السمن هذه!

يا إسحق

إنهم لن يتركوك لتستمتع بالراحة والسلام

ولن يعلموك بالحقيقة

لن يطلعوك على الحقيقة المرة القاتلة

لم يخبروك أن هناك شعباً غيرنا يطالب بأرض السمن والعسل لتكون له

وأنه ليس لنا الحق في أخذها

لم يخبروك أن هناك بعض المشردين "الفلسطينيين"

الذين بالإمكان معاملتهم بما عامل به العم سام الهنود الحمر في أمريكا

وسيقولون لك: لماذا لا تتعلم من خبرة حليفنا الأكبر والأكثر ثقة

ونستعمل الطريقة نفسها مع هؤلاء "المشردين"؟

نحن متحضرون حقاً...

ولكنه الصراع من أجل البقاء

ولذلك فكل شيء مباح...

لقد طبقوا نهج ميكيافيلي

بإمكانك يا إسحق أن تتخذ قرارك

ولكن سرعان ما ستصدم بالحقيقة المرة

وستعترف بخطأ العمر بعد أن تكتشف أنك خُدعت

وكذلك انخدع أطفالك...

فهؤلاء "المشردون" ليسوا هم الهنود الحمر الذين يتحدثون عنهم

وهؤلاء الذين أقنعوك بهذا الكلام الزائف جعلوا منك غبياً

حقاً إنهم لم يخبروك الحقيقة...

إن من المؤكد أن هؤلاء "المشردين" يمتلكون قدرة كبيرة على تغيير الأشياء ونتائجها

هؤلاء "المشردون" جعلوا السمن والعسل اللذين يمدان الإنسان بالحياة سماً قاتلاً إنك ستحب طعمهما...

ولكن سرعان ما ستصبح جثة هامدة

إذا كنت تصر يا إسحق على المجيء....

على الرغم من نصيحتي لك بعدم المجيء

وإذا كنت لا تستطيع الحياة في كييف

وأردت المجيء إلى بلد الفرص الموعودة...

ففكر ملياً

وعليك أن تكون حذراً

فستأتي إلى هنا لتسحب سيفك

الموت يا إسحق مغروس في هذه الأرض

في شوارعها...وفي جبالها...

في تلالها...وفي حاراتها وأزقتها

وفي زرقة البحر الداكنة...بل في سمائها

كما أخبروك يا إسحق...في الأزمنة القديمة

إنه البلد "الذي يأكل أهله"

أنا لا أروّعك....ولا أفزعك

فأنا على الرغم من عدم إيماني بكل ما جاء في الكتب القديمة

احترم أجدادنا الذين رفضوا دخول هذا البلد مع نبيهم موسى

إنهم اتخذوا القرار السليم

ذلك أن الضياع في تيه صحراء سيناء...

والعيش على أوراق الشجر اليابسة

أفضل من الموت على هذا النحو

إذا كنت تصر على المجيء يا إسحق

على الرغم من نصيحتي لك بعدم المجيء

فإنك ستحظى بكل الاحترام

لأنك الرجل الشجاع الذي يستحق الاحترام

ولكن ما قيمة هذه التضحية؟

ولأجل ماذا؟

إن سيفك يا إسحق لن يكون كعصا موسى التي فلقت البحر

وليس فينا من هو كالملك داود

لا تنخدع بما يقولون

فالمعركة لم تنته بعد

وجميع أقوالهم عن الانتصارات مضللة

وأي انتصارات هذه...التي لم تجعل الفلسطينيين يذعنون

ويخضعون على الرغم من قلة إمكاناتهم؟

ما تلك الانتصارات التي لم تقنعهم بالتخلي عن إيمانهم بآيات من القرآن

وعدهم الله فيها بالنصر "علينا" مرة أخرى؟

أخي إسحق

أعتقد أن المعركة قد ابتدأت

أخي إسحق....لك الرحمة ولأطفالك

ابقَ حيث أنت...واسلم

الخلاصة:

قبل حرب عام 1948 استهان العرب بإسرائيل، وظنوا أنهم قادرون على محوها من الوجود، ولكن إسرائيل كسبت الحرب وما تلتها من حروب، فتغيرت نظرة العرب إليها، من دولة يمكن قهرها وإزالتها، إلى دولة قوية ذات جيش لا يُقهر ولا يُهزم، وأصبحت قوة إقليمية كبرى في المنطقة، تمكنت، بسبب الضعف العربي، من فرض وجودها وسيطرتها على دول المنطقة.

لقد بالغ العرب بالأمس في الاستهانة بإسرائيل، وهم الآن يبالغون في قوتها، وقد أخطأوا في الحالتين، فهي لم تكن ضعيفة كما وصفوها، وهي ليست قوية كما يرونها الآن، فقد أثبتت الأحداث أنها كيان هش، يحمل جرثومة فنائه في أحشائه...إنها تجمع بشري متناقض في أصوله ومنابته وأعراقه وثقافاته، ومتباين في مستوياته الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية، ومختلف في آرائه وتوجهاته وتطلعاته، ولا يجمعهم إلا شعور غرسه فيهم قادتهم وزعماؤهم، فأوهموهم أنهم محاطون بخطر عربي هدفه إلقاءهم في البحر، وبعالم يكنُّ لهم الكره، فاضطهدهم ونكل بهم، وأن سفينة نجاتهم الوحيدة وجود دولة قوية تحميهم وتدافع عنهم، وتحقق أحلامهم.

لا شك في أن جرثومة فناء إسرائيل تتمثل في الادعاءات الصهيونية الباطلة، والأوهام الزائفة، والخرافات الكاذبة التي استند عليها الصهاينة في إنشاء إسرائيل، وبالاستعانة بقوى كبرى عالمية، تعهدوا لها بأنهم سيحافظون على مصالحها ونفوذها في المنطقة العربية التي تعاني من أوضاع متدهورة وأحوال سيئة.

لقد خاب ظن الصهاينة بأن إسرائيل ستكون كالبوتقة التي تصهر اليهود، وتقضي على جميع تناقضاتهم. ولا شك في أن هذه التناقضات التي كثيراً ما تطفو على السطح ستكون عاملاً قوياً من عوامل انهيار إسرائيل من الداخل مثلما انهار الاتحاد السوفييتي، والاتحاد اليوغسلافي، وتشيكوسلوفاكيا، وستزول كما زالت الممالك والإمارات الصليبية التي أقامها الصليبيون في المنطقة العربية، في الماضي.

لا شك في أن المقاومة عامل مهم ومساعد، وقد كشفت هذه المقاومة في جنوب لبنان وفي قطاع غزة هشاشة إسرائيل، وهي اليوم غير قادرة على فرض السلام بشروطها، وفي الوقت نفسه لا تجرؤ على شن الحرب إلا إذا ضمنت كسبها، وهذا أصبح اليوم غير ممكن، مما يدل على توقف المشروع الصهيوني وعدم قدرته على تحقيق أهدافه الطموحة.

يبدو لنا أن حروب إسرائيل في المنطقة لن تكون مع الأنظمة الرسمية التي تمكنت من جعلها خاطفة، ولكنها ستكون مع المقاومة الشعبية التي من الصعب على إسرائيل التحكم فيها والسيطرة على نتائجها، إنها حروب ستستنفذ قدراتها، وستنهك قوتها كلما طالت واستمرت.

إن الغطرسة الإسرائيلية والاستهانة بالعرب وبقادتهم، ستجبر العرب في النهاية على دعم المقاومة، لأنها الخيار الوحيد الذي لا بديل عنه. وفي اعتقادنا أن الغطرسة الإسرائيلية، وادعاء الإسرائيليين بالتفوق، واستهانتهم بالعالم سيكون عاملاً مهماً من عوامل انهيار إسرائيل. وقد بدأت مؤشرات ذلك بتحول الرأي العام العالمي لغير صالح إسرائيل. وقد تجلى ذلك في التظاهرات العالمية في أثناء العدوان على قطاع غزة في عامي 2008/ 2009.

لا شك في أن الانتشار العربي، وبخاصة الفلسطينيون، في أنحاء العالم عامل مهم جداً، فالجاليات العربية والفلسطينية تقوم بدور كبير في التوعية بالقضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية. وقد نجحت في تشكيل اللجان والمؤسسات وأدخلت فيها عناصر وطنية حرة من مواطني أقطار أوروبية وغير أوروبية، وهذا ما يتخوف منه قادة إسرائيل وزعماؤها.

على الرغم من الأوضاع السيئة في البلاد العربية اليوم، فإن هناك الكثير من الإيجابيات التي لا ينبغي لنا أن نغض الطرف عنها، لعل من أهمها الوعي بسبب انتشار التعليم، فلم يعد المواطن العربي ساذجاً يصدق كل ما تبثه وسائل الإعلام، وبخاصة التي تسيطر عليها الأنظمة الرسمية، وأصبح قادراً على التحليل والتوصل إلى الحقائق. ولا شك في أن الوعي أصبح اليوم يُعد من أهم مقومات النهوض والتغيير ومقاومة الظلم والاستبداد.

وأخيراً فإن من مؤشرات انهيار إسرائيل تراجع أعداد المهاجرين القادمين، وزيادة أعداد المغادرين، أو ما يُسمى بالهجرة المعاكسة. ومن المعلوم بأنه لولا الهجرة إلى إسرائيل، لما تمكن الصهاينة من إقامة هذا الكيان، ومن دون العامل البشري، لا يقوم أي كيان سياسي.

ومن المؤشرات الأخرى زيادة نسب الإسرائيليين المتشككين في جدوى كيانهم، وعدم ثقتهم في قادتهم وزعمائهم، وارتفاع نسب الراغبين في مغادرة البلاد، ومقاومة الكثيرين – وبخاصة القادمون من روسيا – للاندماج في المجتمع الإسرائيلي، واحتفاظهم بلغتهم وثقافتهم الأصلية، وتفضيلهم العيش في أحياء خاصة بهم. وعلينا أن لا نقلل من أهمية ظهور كتاب ومفكرين يهود فندوا في

كتبهم ومقالاتهم، الادعاءات الصهيوينة، وكشفوا الأكاذيب والمغالطات التي حاول الصهاينة زرعها في عقول الإسرائيليين، مثل أسطورة الشعب اليهودي، وأسطورة شعب بلا وطن، ووطن بلا شعب...الخ، وهذا ما قام به "شلومو ساند" في كتابه "اختلاق الشعب اليهودي"، ومنهم من فضح قيام الصهاينة بالتطهير العرقي، بارتكاب الكثير من المجازر بحق الفلسطينيين مثل إيلان بابيه. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على صحوة ضمير عدد من مفكري اليهود، ويصب في مصلحة إقامة دولة علمانية، تحل محل إسرائيل العنصرية، ويعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة. وهذا يُعد ولا شك شكلاً من أشكال الانهيار لدولة عنصرية قامت على الإرهاب والمجازر والجرائم.

وأخيراً، وليس آخراً فإن ثبات الفلسطينيين في وطنهم ومحافظتهم على معدلات الزيادة الطبيعية المرتفعة، سيجعل منهم الأكثرية، مما يشكل خطراً على إسرائيل الذي تطلق عليه خطر "القنبلة السكانية". ولذلك يجب على جميع العرب دعم صمود الفلسطينيين بكل السبل والوسائل، فهم خط الدفاع الأول للأمة العربية، وهم أشبه بالسد الذي إن انهار – لا سمح الله – غرقت هذه الأمة وهلكت. ولذلك لا بد من وضع خطة عربية تتبنى هذا الدعم وتلتزم به، وتوعي الجماهير بأهميته إعلامياً، وعن طريق المناهج والمقررات الدراسية، كما حدث في البلاد التي تحررت ونهضت.

في أثناء مراجعتي لأصول هذا الكتاب، اطلعت على دراسة أعدتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية C.I.A، تُلقي الشك على بقاء إسرائيل في العشرين سنة القادمة. وقد بُثت فحوى هذه الدراسة على "الإنترنت" في 30/ 3/ 2010.

ملخص هذه الدراسة أن التصلب والتعنت ورفض حل الدولتين أو الدولة الواحدة، وهو النموذج الأفضل القائم على مبادئ ديمقراطية، والمستند على أُسس المساواة الكاملة التي تلغي المظهر غير الواضح لشبح الفصل العنصري "الأبارتهايد" Aparheid الكولونيالي، والسماح بعودة لاجئي 1947/ 1948 و1968، والتي تُعد شرطاً مسبقاً لسلام دائم في المنطقة.

إن هذه الدراسة التي توافرت لعدد محدد من الأشخاص، تتنبأ بعودة جميع اللاجئين إلى الأراضي المحتلة، وخروج مليوني إسرائيلي والذين قد يذهبون إلى الولايات المتحدة الأميركية في الخمسة عشر سنة القادمة.

وهناك أكثر من نصف مليون إسرائيلي يحملون جوازات سفر أميركية، وأكثر من ثلاثمائة ألف يعيشون في منطقة كاليفورنيا. وقال المحامي الدولي "فرانكلين لامب" Franklin Lamb في مقابلة على فضائية "برس تي في" Press T.V يوم الجمعة، بأنه بالإضافة إلى ما سبق، فإن أولئك الذين لا يملكون جوازات سفر أميركية أو غربية، قد تقدموا للحصول عليها. وقال: "وهكذا فإني أعتقد إن ما هو مكتوب على الأقل بين الجمهور في إسرائيل على الحائط...يقترح بأن التاريخ سيرفض المشروع الاستعماري عاجلاً أم آجلاً".

وقال أيضاً بأن وكالة المخابرات المركزية في تقريرها لّمحت إلى السقوط السريع وغير المتوقع لحكومة الفصل العنصري "الأبرتهايد" في جنوب إفريقية، واستذكرت تفكك الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات، مقترحة بحدوث نهاية حلم أرض إسرائيل عاجلاً أم آجلاً.

وزيادة على ذلك تتوقع الدراسة عودة أكثر من مليون ونصف المليون إسرائيلي إلى روسيا وجهات أخرى أوروبية، وتشير إلى انخفاض معدلات المواليد الإسرائيليين، في مقابل زيادة المعدلات عند الفلسطينيين.

إن هذه الدراسة تُعزر توقعاتنا بانهيار إسرائيل، بناءً على الحجج والمؤشرات والدلائل التي ذكرناها في هذا الفصل، وتؤكد في الوقت نفسه، وجهة نظرنا بأن هذا الانهيار سيكون من الداخل، على نحو ما حدث في دول سابقة كالاتحاد السوفييتي، والاتحاد اليوغسلافي، وتشيكوسلوفاكيا.

المراجع

1. نقلاً عن كتاب: ص185–187 Shlomo Sand سابق الذكر.
2. بينامين نتنياهو، "مكان تحت الشمس"، ترجمة محمد الدويري، الطبعة الرابعة، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان 1999، ص85–86.
3. Finkelstein, N., "Beyond Chutzpah: on the Misuse of Anti-Semitism and Abuse of History", University of California Press, Berkeley, 2005, p.16.
4. Ibid, pp.8-9.